



جنوے

النفس

رواية
جنوے
النفس

عباس مہدی البیاضی

رواية

جنوح النفس



جنوح النفس

رواية

عباس مدحت البياتي

المقدمة

هذه الرواية والتي في مجمل وقائعها حقائق طفحت على أرض الواقع بعد أن وطئت قدم المحتل الغاصب- الأمريكي البريطاني- أرض الوطن، والتي دارت أحداثها في فترة حرجة من تاريخ العراق، ابتدأت مع بدأ ناقوس فوضى الاحتلال في 19\3\2003 واستمرت حتى نهاية سنة 2005.

أهدي روايتي لكل من سولت له نفسه أن يجنح في دروب الطمع، ولكل من حاول تغيير جلده ولونه، وللذين يختنون عروقهم بموس الظرف، ولأصحاب القلوب الرهيفة الذين تضيق عليهم أحذيتهم في دروب السعي والمنال، ولكل خوان أثيم.

من جهلت نفسه قدره

يرى غيره منه ما لا يرى

المتنبي

الفصل الأول

لم تغف عينُ أم قاسم لحظةً واحدةً، وهي تركز أذنيها لعزف الجنون الذي اجتاح سماء بغداد، مع أولى رعشات صواريخ المحتل في ربيع 2003. كانت ليلة الخميس هي الأسوأ في حياتها، بل في حياة العراقيين بأسرهم، لا تقاس إلا بأصداء الصراخ المختنق في شوارع المدينة وهي تبتلع صدمات القصف المتوالي عبي أنحاء بغداد.

في تلك الليلة، صغت بروحها إلى زمجرة الفوضى والعبث المتدحرج بها لتلك المهايو الوحلة التي أغرقت عيون بغداد في شجون الذعر، إذ اخترق دوي الانفجارات سواد الليل، فلم يعد الصوت مجرد خبرا للدمار، بل موجةً عاتية تجرف معها آخر بقايا الأمان. كانت تلك الأصوات برمتها تتجاوز حدود السمع، تعبر جدار الظن وأسوار اليقين، تُنثر الألم كغسيل للفرع وسقم العابثين الجدد فوق القلوب الرهيفة، إيذاناً ببداية حرب احتلال العراق في 19\03\2003..

تلك الحرب الشعواء التي عزفت أشجانها أيادي البغض تحت مظلة الأمم الغير شرعية تبعاً لمصالح دول الظلام - أمريكا وبريطانيا ومن لف لفهم- برفقة لفيف من الأقرام المنطوية تحت أجنحة الكراهية بما تسمى بدول التحالف، مجتمعين بغل على قسمة كيكة العراق وإذلال شعبه وثبط عزيمته وسرقة خيراته.. ما إن أشعلت فتيلة الحرب حتى شعرت أم قاسم بانتكاسة تتغلغل في أعماقها، كأنها تسقط في هاوية مفتوحة دون نهاية، هجست بأن الوداعة التي كانت بها تكسرت أجنحتها، وكأنها لم تعد لها وجودا في قائمة الحياة.... كانت بغداد كلها تصغي لصخب الانفجارات،

ولصغير الحمم التي تتوالى في سقوطها كجمر فوق المدينة الهادئة،
متبعةً دوي الطواحين التي اجتاحت شوارعها بلا هواده.

أجهض الليل سكونه، بات أسيراً للضوضاء المفتعلة، للهدير
المنفلت، للزعيق الراعد الذي جعل الخوف سيد الموقف يتبجح في
ازقتها وشوارعها. غدت بغداد رقعةً منصاعةً للفوضى العارمة،
وبدت في تلك اللحظة كما لو أنها تتنفس الصخب بدلاً من الهواء،
تتحرك ككائنٍ جريحٍ يترنح تحت وطأة الظلام..

في تلك الليلة شاءت أن كبلتها وعكة أرهقت كاهلها تزامنت مع بدأ
شرارة الحرب، جعلتها تشذ عن طابع رباط الجأش التي عرفت به،
لتركن ذاتها جانباً وهي تراقب الوضع بوجس عبر صوان أذنيها،
انحنت قامتها للصمت والخشوع، قيدتها حيرة وانكساراً لم تشهدها
سابقاً، متبعةً الأضواء المبرقة النافذة عبر كوة بيتها الوحيدة بشيء
من الضنك والفرع والوجل والعناء والاهتمام الذاتي. بات يختض
جسدها مع كل ومضة وصرخة تعبر حاجز الأمان من تلك الخيوط
العابرة من النار والفرع إلى دارها، بدت تلك الكوة تبدو لها كمرآة
عاكسة تشرح لها حجم البلاء والجحيم القائم في بغداد ومحيطها.
ارتجف جسدها مع خيوط الضوء المنفلت، كأنها تستشعر صدى
الدمار يخزق عروقها، وكأنها تنتظر إلى بغداد لا بعينيها لا بسمعها،
بل بروح ترتجف في صمتها المطبق.

حيرة صمًا لفتها تحت عباءة العبث الذي اجتاح عالمها، سحبها
إلى متاهة من الشك والريبة، جعلها أسيرة سؤالٍ يدور في فلكها لا
تملك له جواباً: كيف تتلافى وقع حدثٍ جلل بحجم الكارثة، وهي
مركونة في زاوية من البيت، بلا مسندٍ يقفها فزع الانهيار؟ تهجس
بحالها كخيمةٍ تنهوى أمام ريح صرصرة، تعصف بها، تسرق منها
عزمها وقواها وثباتها.. بينما الزمن يتدحرج أمامها ليمضي لوهدة

التاريخ بلا رحمة، والمصير معلق في نافذة الحياة، يتأرجح على حافة من الفوضى والغموض والنكابة.

مع زخّ حمم الانفجارات، غاصت في سيلٍ دميٍّ من الهم والغم، أحيطت بطوقٍ حالكٍ من الحزن والكآبة، كأن العتمة التي تولدت من تآكل محطات التوليد الكهربائي بسبب القصف التوقيعي لها، التهمت يقينها وأغرقتها في مستنقع من اليأس. استياءً جائزٌ شدّ وثاقها، شكّم قدرتها على الحركة، أنبت في وجهها دمامل سوداء من أعباء القهر والاستسلام.

بات العزف يرنّ في أذنيها بوقع مريع، نكد الصواريخ المتساقطة يختلط بنشيج الوحدة القاسية، بينما جسدها المرهق لا يقوى على استيعاب الفوضى وهي تمرّق جسد بغداد. ومع مرور الوقت، تكثّف الوجع في صدرها، تحوّل إلى سوادٍ دميٍّ، إلى اصفرارٍ قائمٍ يُشرب اللحظة بمرارتها، كأنّ الكيل قد طفح وجله وبلغ سيله الزبي. لم تعد تحتمل الغصة التي تخنقها، حيث الانفجارات دكّت مواجع الروح الأبية، طوت ذاتها مع طفح الهوان الذي غطّى وجه العراق، عندها انسكبت دموعها لتغسل أثر السقوط في فوضى الحرب.

أضحى العذاب نديم وحدتها، ظلّ ثقيلٌ لا يفارقها، جزعٌ وبيّلٌ لوى الوطن، لثم فاه أبناءه الغيارى بوشاح من الضعف والهوان. لم تعد تقوى على تقبّل فكرة الاحتلال وهي مستاءةٌ من قوام جسدها النحيل، الألم خزق جدار الأناء، عبثٌ بوتتين القلب، طوى وجه العراق المتكبر تحت قهر الأيام. هجست بذاتها جالسةً على فوهة بركانٍ من الألم، تندب حالها في غرفتها البالية، تندب حظها العاثر، وحظ الوطن الذي ابتلعتة ظلمة الأيام، بينما تنسكب قطرات الآه والأنين من مزاريب الشعور، كأنها تُغرق كل ما تبقى من يقينها في مجرى الحيرة المشاطة بين الروح والجسد، بلا مفر.

ظرفٌ كالحُ أغشى بصرها وبصيرتها، لثم فاهها وفكرها بوشاح من القتامة والخدر، كتم أنفاسها، جردها من قدرتها على التفكير وسط طقطقة الانفجارات الملاحقة لضميرها. غدت أسيرة لصمت مهين، وعزلة تنضح بالسكون المرعب، مما جعلها تقبع في دوامة من الحيص بيص، محاصرة بين نظائر القدر والموت الزاحف. هجست بذاتها، كأنها شاخص قائم بين الفرضة والشعيرة في قوس القدر، مغلولة إلى الظن البائس، مُكبلة بالوحدة اللعينة، والوجع الذي يتناهى في أعماقها، ويدور في أحشائها بلا توقف.

مع جلجلة الرعب افتقدت رشدها وثباتها. لم تعد تقوى على الصمود واليقين الدامغ الذي الهب فتيل غيرتها على وطنها وهو يبين لها ما يجري في بغداد.... خلال الايام السالفة كانت خائفة من صخب الحرب بعد أن شمت دخان الاخبار عبر المذياع، قرأت المشهد السياسي مقدما، على الرغم من أميتها. المشهد مقروء، لبيان الغاية وسوء النية المُبَيَّن للعراق. تلك الليلة الفضة كانت القاسم لكل توقعاتها من راغى الشك بنية العدو، فلم يغف لها جفن قط جراء الوسوس والأحزان التي ركبتهما والتي تفجرت على حين غفلة في كل بيت عراقي وعربي شريف على حد سواء..

ليلة ليلاء، انبجست في عين الزمن، كبركانٍ حقد جاش بالسقم والخراب، تلفح أبناء الوطن كما تلفح الريح الهوجاء سهلاً جافاً، لا يملك إلا أن يتشقق تحت وطأة العاصفة. كان وقع الدمار يفتك بها، يتخلل مساماتها، يتسلل إلى نبضها الخافت، يثقل روحها بما يفوق طاقتها، حالها حال كل الغيارى الذين قيدهم الجزع، وألقاهم في عزلة قاسية بين ركام الخوف ودوامة الحرب.

في وهج فناء الهلع، تحت سقفٍ متداعٍ نتيجة قدم بنائه، كان صوتها يشرخ صدرها بالأهات وهو حبيس الفزع والزمن، خشيتها نخر جسدها بدبابيس الألم، جعله أكثر هشاشةً، أكثر تلاشيًا في محيط لا

يعرف الرحمة. وحيدة، تتوجس جدران البيت، تصغي لما يشبه
طنين يتكور في داخلها من خيوط القدر، ينسج حولها شبكة من
الرغبة والتوجس، حيث لا ونيس، لا رفيق، لا أمل، سوى ذكر
الرحمن يحتضن صبرها، وصريير الريح يترنح بين شقوق درف
النافذة ومصراع الباب، كأن العالم كله بتلك اللحظة يتنفس رائحة
الرماد.

في المقابل في زاوية من العتمة، في ركنها المظلم، ينام ابنها جاسم
كمن لا يدرك هول اللحظة والخطر القادم، يغط في نوم مضطرب،
شخير يغطي فضاء الغرفة كثور لا تعنيه عبثية الأشياء، كأنه يود
تذكيرها بأن الحرب لا تبالي بمن يغفو أو يستيقظ، بل تمضي كتيارٍ
جارفٍ لنهايتها.

غدت تجفل مع كل رعدة تضج بها سماء بغداد، تنتفض مع كل
دوي انفجارٍ يخلخل سكون الليل، ترتعش مع كل صعقة تشكُّ
أحاسيسها، تهتز مع كل جفلة تغزو أحشائها. أضحت كأرجوحة
مشدودة لظلمتها بين الفزع واليأس، مخنوقة بصريير الأحزان
وعذابات النفس التي تتكرر بلا هوادة.

مع قدحة زناد الحرب؛ قدح زناد المغص في أمعائها، باتت تتلوى
كالأفعى سحق رأسها حجر. القهر والحزن الدفين يجتاحان
مشاعرها كسرب غربان تائهة، لفح سرها، الهبا جوارحها. صار
الألم يشتد عليها مع جلجلة القنابل الساقطة، تلك التي شقت في وجه
بغداد وأحشائها ترعا من الأسى وقنوات من العناء والجزع. مع
سقوط اللحظات تبدي صبرها كتبدد الضباب تحت لهيب الشمس،
كانت ليلة عسيرة، وخيمة، ظلماء، موحشة، هوجاء ليست لها شبيهة
في تاريخ بغداد بعد احتلال المغول لها...

كأنَّ أحشائها أتقدت بزناد تلك الفوضى الدائرة في سماء وأرض
الوطن وهي تتأمل خط الرجاء يشتد بين خطوط لهيب النار.

عمت الفوضى أرجاء الوطن، تركز دخانها في أحياء بغداد بشيء
من الحنق والحدق والغرابة والدجن، لطمس إثر العراق على وجه
التاريخ.... يا ترى؛ لِمَ هذا الحدق الدفين؟ لِمَ يهدأ العراق يوماً عبر
التاريخ..

أمست أم قاسم لا تستطيع مقاومة الظرف المغل والهوان المجحف،
لا تستطيع تحمل أعباء ذاتها وهي تتلوى في حوض حزنها كسمكة
مزهرة، تعوم في بركة من الصخب والعناء دون أن تجد قشة
تعينها على تجاوز محتنها، دون أن تدرك ذاتها تدور في دوامة من
التيه وسط غموض لف عالمها والوطن وهي مكلومة، مخنوقة،
محبوسة، مقيدة بالحيرة والسكون والصمت والبؤس، تحت وقع
ذلك السخط الدائر من حولها، بحيث لا تستطيع مغادرة فرشتها مع
تفاقم عجزها وآلام امعائها الحادة.

ليلة لا تُعرف لها نظائر قط، انبثقت من رحم الظلام، دكت بها
قوات الغازية خدود بغداد الرهيفة بوابل من الصراخ والفرع
والعويل والدخان، إيذاناً بانهيـار جدار الوطن مع بدء قوات العدو
دكَّ الحدود الجنوبية، وإعلان غزو العراق كخبرٍ يُبث بلسان الحديد
والنار.

شَقَّت الانفجارات زيـق الليل، انبلاجٌ مهتاجٌ، انفلاقٌ هائجٌ، حزمٌ
ضوئيةٌ مغتاضةٌ طالت أجواء الوطن، غصّت بها السماء كلـسعات
البرق، انبرت كسُرج وقناديل تُحاصر أعناق بغداد، تطغى على
أنوارها الهفـافة، كأن المدينة في احتضارها الأخير تضيء على
نفسها بصمتٍ قاتم.

في تلك الليلة، رُقَّت فيها بغداد للمرة الثانية، عروسًا مثخنةً بالدم
للسيد المبجل صاحب التاج والمزاج، بعد أن رُقَّت من قبل
معصوبة العينين إلى مهرج المغول والتتار، كأن القدر لا يملُّ من
إعادة المشهد، وكأن الدمار ظلَّ يلاحقها حيثما مضت وتوهجت.

بزفتها تكون قد أجهضت سكون الليل بسيل من الوجد والفرع
والصراخ، جلجلة خواطر أهلها وعشاقها بكم الحمم الساقطة عليها،
بدت خائفة وهي تحاول نفث غبرة الحقد والبغض من على ثوبها
الناصع البياض دون أن تستطيع نفث الألم من فوق وجه البراءة
والتاريخ.... عزفٌ مستمر هدد سكون الليل، أرخى سدوله على
نوافذ القلوب العاشقة والمحبة بالغل المقدد، أرهق النفوس بالجزع
والاستهجان والرغبة، شتتت نوارس المحبة من على ضفاف دجلة
الهادئة، أحمرت وازرقت مياهها، تماثلا مع ما حصل لها أيام غزو
التتار.

كان دويُّ القصف يكرر غلّه بين لحظة وأخرى كعزف مستمر
للصخب الدائر، ينبعث من وجل، حل كقوس صمت بين جنون
اللحظات كنبض مجنون لا يهدأ. قذائفٌ عشوائيةٌ وأخرى توقيعيةٌ
غرست الأرض بشتائل من النار، نثرت شظاياها كأنياب تنهش
الحياة، ملأت الهواء برائحة البارود، وسكبت الرعب الدفين في كل
منافذ المدينة. الموت أرغى في الطرقات، زحف إلى الأزقة التي
كانت آمنة ذات يوم بذات النسق والضبابية مع عزف نشيد القذائف
وسيل العويل الدائر في خواصر تلك الأزقة الخائرة، كل شيء في
بغداد تلون بلون الدم وسقم الحريق، حتى الهواء الذي نتنفس.

حلقة سوداء عفرت وجوه الناس بصدى اليأس والظن المخيب،
تكلبت أياديهم، استسلمت نفوسهم للظرف والمحتل، جردت من
المقاومة لعدم توازن القوى، بعد أن دكت حصونهم بحصار دام
ثلاثة عشرة سنة من الفقر والجلد والمرار، أرهقت القلوب وأغشت

الأذهان... تلك الأوضاع زادت من عسر حالة أم قاسم الموشومة بالوحدة اللعينة وجدلية المغص العابث في أمعائها، باتت تخور وتدور حول موضع العقدة بهواجس مفزوعة وهلاك مرتقب.

وميض متذبذب ينبلج في الأفق، يرتقي مداه عنان السماء منذرا أهل بغداد بالقارعة، ما أن تشفط الظلمة من الأفق حتى يخترق هدير الانفجار جوف بغداد، كاشطاً حالة السكون من وجه الليل، منذرا بالشؤم والخطر القادم.. تنفلق صرة السكون لتصيخ الأرض فزعا من شدة الغل الذي يصيبها، فتعج الأجواء بغبرة الانفجار، تبين حجم الجحد والحقد والكره التي حملتها قذائفهم وصواريخهم الساقطة. تتبع تلك الصاخة هالة سوداء تغطي النفوس والظن والمواقع المستهدفة. فيما يشيح عبق الدم والبارود والدخان المكان، يغطي على نسائم دجلة الباردة، فتطفح الغلة في النفوس والأرجاء بحجم الصاخة المريبة.

دوامة لاكت صومعة الوطن، أحاطت حدوده من الركن إلى الركن، تلك القبة الناصعة البياض، المغروزة في قلوب العاشقين والعراقيين على حد سواء- فهذه بغداد عروسة التأريخ المسفرة، باءت تنوس بعباءة الحزن والفزع، أظلمها حقد الجهلاء، أربد وجهها سواد ليل دميم.

دمعت عين أم قاسم، شط هاجسها حزن سمج وهي ترنوا إلى هدير الطائرات الدائرة فوق الرؤوس كعقاب جارحة، تجفل، انفجارات متكررة تهدد سكون الليل، ريح عاصفة هبت مع بدأ الهجوم، أصوات صاخبة تكاد لا تهدأ ولا تستكين تخرش الأمان، تنتشر الفزع هنا وهناك، تبحث عن فرائسها المنزوية داخل نفوسها والمباني المستهدفة.

تذكرت طفولتها وهي تلعب بحدائق بغداد الجميلة في أزقتها برفقة رفيقاتها...صارت تدندن والألم يعتصر الفؤاد....

طلعت الشميسة

على قبر عيشه

عيشه بنت الباشا

تلعب بالخرخاشه

صاح الديك في البستان

الله ينصر السلطان على أعداء أمتنه

..... آه يا دنيا أين مضت تلك البراءة وذلك الأمان الذي كان سائدا؟.....

لِمَ تطمع الدول الفاجرة بأوطاننا وخيراتنا؟....

هل ابتلينا بنفط قابع في عمق أراضينا؟ أم جزعوا من فرط ماضينا؟ من وجهة نظري كل الأسباب اجتمعت بتحريك المياه الراكدة، أضحى الأمر سيان، فالعدو يتربص بنا منذ زمن لتمييزنا، ليس لانهم أعداء لنا بل لأن الصهاينة في أسرائيل يرتعبون منا ومن ماضينا.....

أضحت تناجي ربها، رافعة كفيها وصوتها المبحوح لا يرتقي حاجز سقف الدار وهي تدعو الله أن يبردها.

يا رب... أجعل كيدهم في نحورهم...

يا رب... كف عنا حقدهم وبغضهم...

يا رب.. بك نستجير وبك نأتمن...

يا رب آمن بغداد وأهلها من غلهم وشرورهم.

يا رب... أنت الواحد القهار، أقهرهم وأدحر جيوشهم...

عادت لولولتها التي تعلقت بلسانها، نتيجة تواتر الأفكار وحزم آلام
المغص وتواتر أصوات الدوي المستمرة وعصف الريح. القهر
لحفها بصمت غليظ، بقيت متحصنة في فرشتها البالية وهي
ترتجف رعباً وألماً من المجهول القابع تحت مظلة الليل، تلك التي
هي عبارة عن طنفسة إسفنجية متهتكة ولحاف قديم مهتر متهالك،
يكاد لا يقاوم لسعة برد صبح آذار.... فيما أبناها جاسم الذي يسكن
معها الدار غاص في نومة عميقة، يعيق سجدة شرودها بزعيق
شخير المرتفع.

ترى، ما بك يا بغداد؟

أي جرح هذا الذي أطفأ وهجك

وكسر مرآة الفجر في عينيك

حتى الشمس باتت تخجل من إطلالتها منذ أمد

تتوارى خلف ستائر الغضب والعناد؟

ألسنت أنت فاتنة المدن؟

ألسنت القصيدة التي يتغنى بها التاريخ

والحلم الذي لا يشيخ

والرواية التي لا تنتهي فصولها؟

آه يا زوراء...

يا مهد الأحلام ومسرح الأعراس

يا معبد العاشقين ومئذنة الحب

يا نبراس

يا رنين الشوق وصدى الأجراس

يا ابتسامة دجلة حين يهمس المساء

ويا وهج الطفولة وجميل الاحساس...

هل لامس جلدك رعبٌ مما حلّ بالناس؟

هل جفّ نبعك،

وضاقت فيك الأنفاس؟

لماذا كل هذا العبث؟ وكل هذا البأس؟

ترى، أخرسوا لسانك يا أبا نؤاس؟

أين ضحكك التي تملأ الضفاف؟

قم، ثُر على الطغيان

فشوارك باتت وسواس خناس

وكراسيك تكسّرت من البهتان

أه يا وجعي ويا قدرتي، ويا مرارة الإحساس

ماذا أقول للرشيد والمتنبي؟

أقول بغداد زُفّت مرتين؟

مرةً للمهراج،

ومرةً للكابوي صاحب الكأس.

٤٤٤٤٤٤٤٤

أي قلبٍ يحتمل هذا البهتان؟ وأي ليلٍ يذوي بحرقه الحنين في
الأجفان؟ ترى، ماذا أصاب بغداد الحبيبة؟ لماذا كل هذا الحزن
انسكب عليها أمام الأعيان؟ هل خانها الزمان؟ أم نحن من خذلناها،
وتركناها وحيدة تعبر صحراء الحزين؟.....

مسحت ببنان كفها دمة عفرت خدها، عاودها المغص الأجرد
مرة أخرى بشدة تفوق سابقتها، صار يطل عليها الألم من نافذة
الضمير مع كل قذيفة تسقط على بغداد، لا تدري أن كانت تبكي
على حالتها المّعرة أمام الفقر، أم على حال الوطن الذي تعرى أمام
القدر؟. لا تدري أن كان الألم يشند من ققع المغص أم من عذابات
الضمير وحجم الدمار الذي أصاب بغداد.... حيرة سمرت
مشاعرها، أذلتها، لم تعد تتحكم بنفسها، هزلت تحت واطئة عذابات
الروح وموج ذلك المغص المتعقب لسرها وهوانها ونجواها.

دوى انفجار قريب، شديد الوقع، هز أركان بيتها العتيق، كأنَّ
صاروخاً ما قد سقط في أرجاء حي الفضل المتهالك الذي تسكنه أو
جواره. طفحت رائحة البارود في الأجواء أزمكت الأنوف، خيط
دخان أو غبرة أزلفت من نافذة غرفتها التي تنائر جذاذها نتيجة شدة
صوت الانفجار.

صارت تكلم نفسها وتولول.....

...لا..لا.. أكيد أنها قريبة جدا ... ربما في شارع الرشيد.. أو في شارع الكفاح أو في باب الشرقي، أو ... أنها قريبة من الدار وأقرب من الظن إلى النفس، أشم بها رائحة الموت، لربما قصفوا دائرة الشرطة أو وزارة ما....

يا إلهي أجعلها بردا وسلاما على بغداد وأهلها..
يا إلهي أجعل كيدهم في نحورهم....

.... لا..لا.. مستحيل أن تكون هذه قذيفة مدفع للشدة التي دكت بها الأرض، لقد عفرت النفوس قبل الثرى، هذا الدوي لا يكون إلا لصاروخ طائرة أو صاروخ أرض أرض، أصبحنا ذوات خبرة بهذه الاصوات لما لاحتنا من تجارب حروب سابقة، أشعر بسقوطها لم تحتمل غلها الأرض، لم تحتمل شدتها.

فيما سبق كانوا قد قصفوا فندق الرشيد، ولم تشبعهم دماء الأبرياء في ملجئ العامرية حين جزروا رؤوس 450 طفل وامرأة منَ لاذوا إلى الملجأ ليحتموا فيه تجنبا للوحشية التي أتصفوا بها.. أنهم وحوش، قتلة، مصاصي دماء، مجرمي حرب، تنفقوا بثقافة القتل على أفلام الأكشن والرعب والزمبي والسرقة وغيرها، صانعوا الامراض الفتاكة كـ فلانزا الطيور والخنازير وجائحة كورونا والايذز... الخ، هؤلاء صانعوا المثالية جلبوا المتاعب إلى العالم أجمع.

تحاول أن تُصَحِّي أبنها جاسم الغاط في نومة عميقة جراء يوم شاق من العمل المرهق قضاه في عمل الحمالة بنقل البضائع داخل وخارج أسواق الشورجة.

- جاسم ... جاسم يا بني...أصحي...إلا تسمع هدير الطائرات، وعصف الانفجارات التي غصت بها بغداد؟ هل أنت ميت أم حي؟ كيف لا تهزك هذه الأصوات؟ هل لك أحاسيس ومشاعر وطنية كباقي البشر؟ أم أنت من البلهاء وقليل الأصل والدم؟ أم من الصم والبكم؟ قم شاهد ماذا يحصل في بغداد..

شخيره المرتفع غطى على صوتها الأجنح، فيما أشتد وقع المغص في أمعائها، الألم يكاد لا ينفك، بل أنه يزداد شدة مع وتير الانفجارات، مع انحدار الحالة، قد يجني عليها، تهجس بذاتها وحيدة، يكاد وجود أبنها من عدمه سيان، فهي مكلومة وأبنها غارق في سبات عميق لا يرطن لسماع ندائها.

أضحت تأن وتنوح كاليمامة في وحدتها، ولا من يسمع لها صدى ولا من يرطن لصداها، فيما أبنها بدى كجثة هامدة، كثور قابع في الركن البعيد من الغرفة يعق في خواره، لولا غطيته وفحيح شخيره اللائي تشهد على أنه حي؛ لشكت بوجوده على قيد الحياة.

مع كل قذيفة تسقط على بغداد تزداد نحولا وحزنا وندامة يجزل صبرها، أضحت كبندول تتأرجح مشاعرها بين هدهدة النوح ووطد الآه، بسيل مذل يخر الدمع على الجنيتين الناشفة، تلونت حالتها برزئ وسوء مقابل جمود واضح في إرادتها وانحدار يأس في فكرها. رددت مع نفسها:...

- هؤلاء البغاة سيدمرون كل شيء... سيقطفون زهور بغداد وورودها... سيدعسون ببساطيرهم القذرة على منتزهاتها وحدائقها... سيقتلون طيورها ويقطفون ورودها... سوف لن نسمع للحمائم هديلا بعد اليوم ولا للعصافير زقزقة تصدح في صباحاتنا... ربما ستهجر ديارها تلك اليمام، لتبحث عن

أوكار جديدة تسودها الأمان.... سنفتقد القطط الكلاب،
سيمحون أثر الوجود والحضارة والتاريخ عن الجدران
والشوارع والذاكرة. سيقلعون الحجر من مكانه. مثلما
سرقوا بوابة بابل من قبل؛ سيسرقون باقي الآثار...
سيمحون أثر كل شيء جميل يشدو باسم العراق ومجده،
سيدمرون كل شيء يبهج النفس، سيسرقون اللعة من الفكر
مثلما سرقوا كنوز سومر وبابل وآشور التي تملأ متاحف
بريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا، سيتاجرون بآثارنا بين
الدول بإقامة عروض مؤقتة لجني المال كما فعلت بريطانيا
في أبوظبي عام 2013.."

ذلك ما يؤلمهم؛ لأنهم دون عمق وتاريخ، لذا أدخلوا البلاد في أسطم
غلم، تهجس بهم كلاب مسعورة، بين فترة وأخرى تكشر عن
أنيابها لتسرق شيئاً من الوطن، ولدب الرعب والفزع بين صفوف
الأبرياء من الشعب.

لم يشكهم معروف قط! لقد نسوا بأن بغداد هي من انارة لهم
طرقهم المظلمة، هي من صحتهم من غفوتهم وسباتهم الطويل، هي
من أنقذتهم من ديجور ظلامهم المهلك، هي من علمتهم علوم
الفيزياء والكيمياء والرياضيات ليركبوا سنايك العلم. نسو وتناسوا
بأن العراق من علمهم الأحرف والأرقام والجبر ومواقع النجوم
وعلوم الفلك وقوانين الإنسانية. حين أشتد عودهم؛ ركبوا على
ظهورنا وخرموا التاريخ بصواريخهم. هؤلاء السفلة تنطبق عليهم
مقولة " خيرا تعمل شرا تلقى".

بانت تنشد بغداد بنغم حزنها الكئيب....

بغداد

حين تنائم المدنُ تبقيْنَ يقظة

كَأَنَّكَ وُلِدْتَ مِنْ وَجْسِ الْأَنْبِيَاءِ
وَمِنْ حَنِينِ الْعَاشِقِينَ حِينَ يَضِلُّ الطَّرِيقَ.

يَا وَجَعَ الْأَرْضِ حِينَ تُنْطِقُ الْحَقِيقَةَ
وَيَا مَدِينَةً تُغْسَلُ بِالْدَمِ كُلَّ صَبَاحٍ
وَتُصْلَبُ عَلَى جِدْرَانِهَا الْأَحْلَامِ.

بَغْدَادُ، يَا نَخْلَةً لَا تَتَحَنَّى
حَتَّى حِينَ يَشْتَدُّ الرِّيحُ
حَتَّى حِينَ يُغْتَالُ فِي عَيُونِ أَبْنَائِكَ الْأَمَلُ
تَبْقَيْنَ وَاقِفَةً
تَعْرِفِينَ أَنَّ الْجَذْوَرَ لَا تَمُوتُ.

مِنْكَ بَدَأَ الْحَرْفُ
وَفِيكَ يُخْتَبَرُ الْمَعْنَى
وَكُلُّ شَارِعٍ رَوَايَةً تَنْتَظِرُ قَائِدًا يَكْتُبُهَا.

يا مدينةٌ تُحبُّ رغمَ الخذلان
و تُضيءُ رغمَ العتمة
كأنكِ خُلِقْتِ لتكوني درسًا في الصبر
وفي الكبرياء الذي لا يُهزم.

باتت تتلوى في زاويتها كأفعى مصابة، تتقلب في فرشتها ذات
اليمين وذات الشمال، ماسكة براحة كفيها موضع المغص تحت
صرتها، مما جعلها تلحُ بمناداة أبنها، تتأمل منه أن يعينها على
جلدها وهي تحاول أن تنبئه بما يعتريها من مغص..

- جاسم .. جاسم ... يا أبنى أجلس... الله يخليك أجلس..

كأنَّ صوت ندائها لم يتجاوز حدود فرشتها، بقيت تنفث رجاها رغم
عجزها، هامسة، حائرة.. يكاد الصوت لا يرتقي لطبلة أذنيه،
لضعفه.

تألبت عليها الحالة المستعرة المطرقة بالوحدة والمرض والظرف
والقدر والعجز، الذي جعلها تقبع في فراشها كأسييرة مقيدة بالشدة
والألم المستبد. كان الألم قد سلب قواها فلا تقوى على الوقوف
والمشي، لا يسند ضعفها وتد، لا يسعفها عضد، استقل السقم
فتجاوز الحد والجلد....

وهي في غيرة عقدها تشعر بعمرها السبعين أضحت دميمة،
كثمرة فاسدة معلقة في شجرة الزمن، أو شكت تنفث قروء صبرها
الأخير. الألم جلها لحالة العشي والغثيان، كعين حمرة أشد فيها
الرمد.

البؤس رسم لها ملامح عجز في وجهها، الوحدة عقرت ذهنها بدبابيس التجلي واليأس. حاولت في سعيها استعادة طاقتها فلم تفلح محاولاتها اليائسة، لم تجد قدرة على تجاوز سكرة أبنها جاسم، كأنَّ الحالة عبَّرت عن سوء طالعها، لا أحد يعينها على تجاوز جلدتها ووحدها ووضعها الصحي بظل تفاقم الأحداث في تلك الليلة المشؤومة.

بات العمر يتكئ على عكازة معوجة، وشلت طاقتها، غدت عاجزة عن إيصال صوتها ورغبتها لأبنها الجاثم كالثور أمامها وهو يجزل رغبتها بقرف شخيرته وخواره، غير قادرة على توعيته وتنبيهه... لا تستطيع تحريك جسدها الناحل من مكانه لتدركه، لتصحيه. حاولت أن تزحف نحوه، إلا أن الآلام قيدتها، منعتها عن الحركة، اشتدت عليها زفرات العجز فزادت من وتير يأسها، أضحت حواجز تمنعها من تجاوز حدود فرشتها، عرقلة سعيها رغم قصر المسافة التي تفصلها عن حدود فرشة أبنها.

لم تجد وسيلة غير أن تعتمد على سياط صوتها الأجش، المخنوق، الذي يعزف في قرينة مثقوبة، صارت تهف به على وسنه دون أن تكشف ذباب الكرى من فوق جفنيه، دون أن تربت طبلات أذنيه بذلك الرنين الخافت....

في سعيها كانت تحاول أن تنتشل من ذلك الكدر الذي أرهق كاهله وارهبها، ودت أن تنتشل ذاتها من قيد الفزع المحيط بها، عسى أن يعينها على جلدتها، أن تحرك ستائر مشاعره الساكنة بحجر صوتها الناعم. صارت تنادي عليه مرة تلو الأخرى بصوت مبحوح والحاح لا يرتقي إلى درجة الترهيب والتأنيب.

- جاسم ..جاسم....أجلس يا أبني...ساعدني... أشعر بالموت
يدور حولي من شدة المغص... جاسم بطني توجعني، الالم
فضيع.... جاسم...

لم تحرك ستائر أذنيه المغشية بثقل الوسن، لم تدرك احساسه
عصار جاءها الناعمة. غارق في سبات عميق، زعيق شخير
طوى على حفيف رجائها، تهجس به قطارٌ مجهد يزعق من طول
السفر.

هكذا بقي بعيدا عن حدود رغبتها الجانحة، بعيدا عن هنات التماسها
وتوقها الناهد. لم يرد على مناجاتها الملحة، المستميتة. نومه الثقيل
أناخ رجاءها بعيدا عن رغبتها وإسعافها.

الرعب في بغداد لم يستكين، مع الوقت زاد شدة وقلقا، أضحى
يبرز من ثنايا الصخب ولعلعة الانفجارات الدائرة في سماء بغداد،
بين لحظة وأخرى صار يرتج جدار الصمت بزخم موج الانفجار
وهديره، تلك التي صارت تتداخل مع بعضها فتوحي للسامع بأنَّ
القنابل طالت كل الشوارع والأحياء، تلك الحالة أرفقت الرعب
والمجانة في قلوب المساكين.

لم تبطل الأصوات زعيقها قط، حاول العدو بكل ما فيه من غل أن
يحرث تخوم بغداد عن بكرة أبيها؛ عجت الغبرة وناء الدخان سماء
الرحمة. رافق القصف صرصرة ريح شديدة، اشتد وتيرها مع شدة
القصف الذي لاح حدودها، تزامنت مع انبلاج وميض القذائف في
الأفق، كأنها حلَّت نتيجة عدم رضا رب السماء تدمير مجد بغداد،
هكذا تضاعفت المخاوف في النفوس وتعقدت المسائل في الأذهان..

رافقت تلك الأصوات المقيتة قرعة صفائح الألمنيوم والأبواب
والشبابيك المستكة التي باتت تصر مع زفيف الريح، تلك الأصوات

ضاعفت قرقرة الرعب في النفوس، أمست تنقل الوجل لأبعد نقطة في الذات، زاحفة ببرود إلى أعماق النفوس الخائرة.

تداخل الأصوات مع بعضها ولد تداخلا بين مجسات الرعب والجزع والفزع الكائنة والرغبة في القلوب، تلك الأصوات خلخلت اجواء السكون، انبثقت كأمواج هادرة مخترقة ثنايا الليل، تُرَجّ مع زعزعة الريح، لتبث مناشير الحذر والخوف في الأزقة والشوارع وبالذات على القاطنين في بغداد. أضحت ستائر الأجواء مهلهلة، رعدية، تنماز بقعقة الأسلحة المشتبكة وهدير الطائرات النفاثة ولعلعة المدافع الرشاشة للمقاومة. كم الانفجارات الرامة هنا وهناك إلى جانب الاطلاقات المنبثة مع زعيق عصف ريح سهجة وطقطقة صفائح الألمنيوم وقرقرة علب فارغة ترغى في الأزقة والشوارع، كلها اجتمعت في عقدة واحدة، لتبان بغداد بتظاهرة صاخبة أصابت الجميع بالشلل.

عادت تنادي على أبنها في محاولة يائسة منها....

- جاسم.. لك جاسم.. أصحى، دخت من قرفك وشخيرك المزعج، أجلس سأموت من شدة الألم.. أجلس، تبين ماذا يحصل في بغداد. جاسم....جاسم.. جاسم...

جاسم لم تهزه عصف بحبة الوالدة المريضة ولا هدير تلك الأصوات الصاخبة، نتيجة سطوة القلق واضطراب الفكر المحشو بالأخبار الزئمة، تلك التي ماجت لأسابيع تقرر طبول الحرب، حتى أشدت عليه الإرهاق النفسي والتعب الجسدي، فقال نحو السكينة والنسيان. لقد تلقى صفة قوية من سلطان النوم، قذفت به لسكرة الكرى، لوهدت الصمت، أثقلت جفونه وصكت منافذ أذنيه تماما..

كان قد توجس لهفة الحرب قبل وقوعها بأيام جراء صخب الإعلام المتداول في نشرات الأخبار العالمية. تلك الأنباء الموبوءة، رشقته بوابل من سهام اليأس والكدر والإرهاق النفسي والفكري، إضافة إلى مشقة العمل التي صبت غلها في بوتقة البدن، تمثل بارهاق فكري وجسدي وعناء نفسي، ناهيك عما شاقه من سهر الليالي وجلف الظرف والفاقة المتجذرة المتراكمة في زوايا الجيب والفكر. تلكم الحالة دعتَه يندب حظه وذاته بشخير مقرف كقرف خنزير نائم.

بعد كل انفجار باتت تكرر عليه مناداتها دون أن تستسلم:...

- جاسم.. أجلس يا أبني.. أجلس، المغص سوف يقتلني.

أخيرا أفلج جفونه بعد جهد وعناء، أجابها بلسانٍ متراخ، مثقل بالوسن، بكلام مبهم غير مفهوم صعب عليها تفسيره.

- دعيني يا أمي أنام لساعة زمن... أنا مرهق، متعب، أشعر بثقل في رأسي، أشعر به يود أن ينفجر نتيجة العناء.. أريد أن أنام...

- نومة أهل القبور... ألا تسمع أصوات الانفجارات في الخارج؟ ألا يهملك وطنك؟ ألا تهملك أمك المريضة؟ أصحى. (أجابته بقطب وحدة).

جاسم يجيئها برخاوة:

- أسمع يا يمه أسمع - لكنني متعب جدا....

بعد هنيهة جلس في فرشته غاضبا كردة فعل على إلحاح أمه المتكرر... رد عليها بشيء من العصبية....

تطرق أذنيها أصوات انفجارات لا تكل ولا تنقطع زوابعها المخيفة،
رافقها هدير طائرات معلقة في الجو كمظلات رعب ترهب
المساكين. اشتدت سهوج العاصفة مع اشتداد القصف براكين
هائجة تلفظ حممها، رياح مغتظة تعبت بمقدرات الناس
وحاجياتهم، أصوات انكسارات وطققة صفائح متداخلة تصيح
أذنيها، هلع يرفق صك أبواب وصرير شبابيك مفلجة، أمست
الاصوات تطفق فوق حواجز الرعب، كالزيت الذي لا يزيد النار
سوى شدة ورهبة، زادتها رعبا وهوانا.

باتت تهجس بأشباح قانطة هنا وهناك في دهاليز الذهن شغلت
تفكيرها، دقت مسامير ذعر في لوح عذاباتها. وميض باهت يخترق
نافذة البيت بين لحظة وأخرى، يشغل تفكيرها، يكاد لا ينتهي
جزعه، يشرح لها مدى شراسة القصف وكم الحمم الساقطة على
بغداد. كابوس من الرعب جثم على فؤادها...

ما انفكت صارت تردد دعائها...

- يا رب أجعلها بردا وسلاما على أهل بغداد، يا رب بردها،
يا رب أنصر العراقيين ..

تردد تلك العبارات والألم يكاد يمزق أحشائها. وبين هنة وأخرى
تنادي على أبنها جاسم المغشي في سباته: ...

- جاسم...أجلس، جاسم.. ساعدني.... جاسم سأموت من
الألم... لو كان أخوك قاسم هنا، لحملني على ظهره وطاف
بي في المستشفيات.

نتيجة لملحتها؛ صحن مرة ثانية من نومه مكتئبا، عبوسا، متربعا
في فرشته، منفوش الشعر، كث اللحى، بائس، تكاد صورته تحت
أشعة شعلة المصباح النفطي (اللالة) تخيف الناظر إليه، تهجس به

أشبه بغول جاثم في زاوية البيت يزيدها رعبا وألما بكائنا عينية
المحمرتين اللامعتين.

رد على إلحاحها بشيء من العصبية...

- والله يا يمه لقد أحرقت دمي، لِمَ لا تدعين أرتاح قليلا، ثم ماذا تودين أن أفعل لك في هذا اليوم المشؤوم، إلا تسمعي أصوات الانفجارات؟ إلا تسمعي جلجلة الموت في الخارج؟ إلا تسمعي هيع الريح وأزفه وأزيمه وصخبه وسهوجه المفتعل بحذق شديد؟ هل أنا طبيب أعالجك؟.... تكالبت على رؤوسنا المصائب من كل حذب وصوب- الريح، الانفجارات، الفقر، المرض، الإفلاس، الحرب.... أين أخذك بهذا الضجيج المرعب؟.
- بطني ح تنفجر، خذني للمشفى.

صار يضرب بكفيه على رأسه مرددا:....

- مشفى - مشفى....
- أي مشفى؟ أنت مجنونة؟... أتريدين أن نقتل ونحن في الطريق... القناصون يتصيدون الخيال والأشباح في الطرق.. سنكون هدفا سهلا أمام تسديداتهم الدقيقة التي يتبعون بها كل من هب ودب.
- أعطني أي شيء مر يسكن الألم ... أه لو كانت في يدي حظلة لعصرتها وشربت عصيرها، الألم قاتل.. أعطني أي شيء مر أو خذني للمشفى!....
- أية مشفى فاتحة أبوابها في هذا الليلة المقفرة؟ أي طبيب يتجرأ أن يخرج من بيته ويترك أهله وأطفاله عرضة للخطر؟.. لا حولة ولا قوة إلا بالله...

ثم هل تتوقعين هناك من بقي في بغداد غير سوانا؟ نحن وعدد قليل من المساكين أمثالنا من اللذين لا يملكون نقودا في جيوبهم ولا لهم أقارب في المحافظات الأخرى تأويهم .. الناس قبل الحرب بشهر هاجت وهربت، ذهبت للمحافظات الشمالية.. سلمت على أرواحها من صعقة الصواريخ الطائشة ونيرانها....

توقف قليلا عن الحديث، الحيرة كبلته، عصفت به خارج حدود الواقع، لا يعرف ماذا يفعل لها في ظل الفقر الجائر والخوف المفزع. ثم أكمل...

- حسنا؛ سأذهب لدار المضمّد سعد عسى أن أجده في بيته إذا لم يغادر بغداد، عسى أن يرحمنا ويساعدنا، ثم أني حتى لا أملك قرشا في جيبتي، لا أملك نقودا، لا أملك ما يسد رمقتنا في هذا الظرف المقيت، ما جنيته يوم أمس نفد كمصروف لما اقتنينا مع تقاوم الغلاء.....

قبل أن يخرج من البيت التفت إلى أمه معاتباً إياها بصوت حاد...

- لِمَ خلفتمونا؟... لم خلفتمونا أن كنتم غير قادرين على تحمل أعبائنا وتربيتنا؟... لِمَ تستطيعا تربيتنا كما يجب، لِمَ تستطيعا توفير مستلزماتنا الحياتية البسيطة، غارقين في الهم والفقر والفاقة. لِمَ جعلتمونا نقرف أنفسنا؟ نقرف الحياة، لا ندرك عتبة أمانينا حتى لو عشنا مائة عام أخرى. سيبقى قوامنا هش دون أساس..

- الظرف يا أبني، الظرف هو السبب، كانت البساطة سائدة والخير سائدا، لا ندري من أي نافذة دخلت علينا آفة الحروب والفاقة والحصار.

- ما ذنبنا نتحصر على كل شيء جميل، تجاوزت الثلاثين ولم أستطع أن أتزوج أو أن أعمل في عمل نزيه، طاهر، شريف، خالٍ من الهم والغم.. ها أنا الآن خالي الوفاض من كل شيء حتى من الاحاسيس والمشاعر. لا أملك شيء ذا قيمة، لا أملك قيمة الدواء الذي أود أن أجلبه لك... لم تُصلح ذواتنا وتربيتنا، لم تبينوا لنا الصالح من الطالح، لم تدخلونا المدارس، كل ذلك بسبب فقركم وجهلكم وإغواءكم الحيواني، لا تعرفون شيء في الحياة سوى السفه والتسافح.

ثم خرج وصك مصراع الباب بقوة خلفه، خرج إلى الجحيم الذي يغلي في الخارج، قاصدا بيت المضمّد سعد والذي لا يبعد عن دارهم سوى مسافة دقائق معدودة.

أمسى يدور بوجهه الطلس حول مصيره وهو يواجه رعبا حقيقيا ممزوجا بين الخيال والحقيقة في تلك الليلة المعتمدة، مشهرا سيفه بوجهها، دالفا جسمه في زحمة المحاولات وهو يجهد في زحمة مخالب الريح الشعواء عن جسده.

امسى يعاني من زنقة الريح وسدف الليل وجور الرهبة، أجواء مكلفة بالفواجع، اشباح تمسك بتلابيب قميصه، فيما هو يحاول أن ينسلت من قبضة الريح؛ هي تحاول أن تمنعه من الخروج، بات يدفع بجسده الأجذب جدارا هيواليا، بقوته يحاول خرق صفوفها.. الريح تشتد عليه بجيش من الاشباح، تلتف حوله، تردعه، يلتف عليها وتلتف عليه، تمنع مجازفته خلف نياته، تمنعه من أن يجازف بحياته في تلك اللحظة الحرجة المشمّنة، فيما يدور حولها بعزمه محترقا صفوفها كأسد ضرغام وفي عينيه صورة أمه المريضة.

رغم شدة عزمه وعناده؛ شعر بجبروت واقف أمامه، يعيق خطواته الوئيدة، يمنع تقدمه. كان قد بذل قصاري جهده وطاقته

حتى أنسل من قبضة الريح بمساعدة جدران الحيطان التي خفت من صخب الريح بوجهه، صار يدفع بها وهي تشذب ثيابه، تصفحه بكث من الرمل الناعم، بالكاد يستطيع فتح جفيه ليواصل سيره محتميا بالجدران البالية. فيما أزيز الرصاص وقعقة الأسلحة وطققة صفائح الألمنيوم توجل قلبه، الرصاص يتطاير فوق رأسه، يلاحقه، يزيده هلعا ورهقا، مثلما تعبت في خلخلة السكون جراء تضخم الأصوات في الليل نتيجة كثافة الأثير، تلك الاصوات صارت كأزيز الحشرات تعبت في فكره..

لكنه يجب أن يصل هدفه، هذه أمه عاجزة في دارها، يجب أن يصل مبتغاه، متخذا مسارا آمنا بمحاذات جدران الزقاق، خوفا من أي عارض مفاجئ يقحمه....

بعد أن عبر مفازة صغيره، وصل منهكا لدار المضمد سعد، خصم صراعه مع الريح والرعب الدائر في محيطه بنجاح، بعد مشقة دامت سبع دقائق من الكد والمنافسة والتحدي، استسلمت الريح لعناده، وصل أخيرا غايته.

بوصوله صار يطرق الباب بشدة، ظلّ يطرق في عناء الظلمة حتى كلّ متنه، حتى فلّ أمله دون أن يسمع من يجيبه ويرد عليه. وقبل أن يعود أدراجه خائبا، فتح الباب بتؤدة وحذر من قبل سعد، وهو يعتريه ذهول وحيرة بعد أن تجاوزت الساعة منتصف الليل. عرف الطارق من ملامح جسده وخشونة صوته، نادى عليه:..

- خيرا يا جاسم ماذا وراءك في هذه الليلة؟
- أمي...أمي تشعر بمغص شديد، لا تستطع تحمل آلامه.
- أنتظر لحظة.

شفق عليه، راف بحاله، أعطاه مسكنات روما ماكس RHEUMA-MAX مسكن ومضاد للالتهابات، دون أن يطالبه

بقيمة الدواء، فهو يدرك تماما ضعف حالته المادية. عاد للبيت بذات المشقة، عاد مسرعا، شاكرا المضمد سعد، وما أن أدرك الدار حتى أسعف والدته بقرص منه مع قدح من الماء...

- تفضلي يا يمه، هذه كبسولة دواء اسرطيهها..

سرطته مع قدح الماء، داعية له بالتوفيق.

- اطمأن يا أماه سيهدأ الألم خلال دقائق، صبرا قليلا.

- الله يحفظك يا أبني، أهتم بوضعك.

بعد أن أخذت القرص اوطف فكرها راحة نفسية، عندها جثت في فرشتها كالموتى، غلبها نوم سايط حتى فترة مساء اليوم التالي، غطت بعمق الفاجعة التي حلت على بغداد.. لقد فعل الدواء بها فعل السحر في الجسد، أمتص ذلك المغص من أمعائها بأعجوبة، أطبق على فاهها كشريط لاصق من الصمت والسكوت، جعل أوصالها المشدودة تتراخى وهي ممتدة على طولها بمحاذات البلاط فوق فرشتها البالية.

فجرٌ غريبٌ ذاك الذي أطلَّ على بغداد في 20 آذار/مارس 2003. السماء لم تكن زرقاء، بل رمادية مشوبة برائحة البارود. صوت القصف كان يسبق الضوء الفجر، يهزُّ الأرض قبل أن يوقظ الناس من نومهم. بدأت عمليات احتلال العراق بزج 295 ألف جندي أمريكي مع لفيف من قوات حلفائها إلى العراق، منطقة من أرض الكويت جحافلا كسيلٍ لا يتوقف، يتقدّمون نحو مدن العراق، نحو بغداد، نحو قلب وطنٍ أنهكتهم الحروب. وذلك بعد قصفٍ مركزٍ طال بغداد والمعسكرات المحيطة بها وبالذات مطار بغداد والقصر الرئاسي والحدود المتاخمة للكويت والسعودية..

بقيت قواتنا صامدة على الحدود تقاوم بشراسة. الأنباء الواردة من الجنوب والغير مؤكدة، والتي لا تصلنا من الحقائق الجارية على أرض الواقع سوى فتاقت من الاعلام العراقي بلسان وزير الاعلام السيد محمد سعيد الصحاف، الذي بالغ كثيرا في ثبات الدفاعات العراقية ومقاومة المحتل، معتمدا على التخمينات والتوقعات لتطمين الشعب وشد عزمه.

كانت قد سبقت الغزو بسويغات غارة جوية على القصر الرئاسي في بغداد، كانت إشارة إلى الرئيس بأن عهدك أنتهى. وفي اليوم التالي توغلت قوات العدو في محافظة البصرة من نقطة حشدها بالقرب من الحدود العراقية الكويتية. في حين شنت القوات الخاصة هجوما برمائيا من الخليج العربي لتأمين البصرة وحقلها النفطية المحيطة بها من التفجير.

انتقل جيش الغزو الرئيسي إلى جنوب العراق بمحورين، أحدها باتجاه الناصرية والأخرى باتجاه البصرة ميسان.. تمكنت من احتلال المناطق والاشتباك مع القوات المتواجدة في الناصرية في

23 آذار/مارس. كانت للضربات الجوية الكثيفة الحزم في تفتيت القوات العراقية في طرق تقدم قواتها البرية، زرعت الفوضى في صفوف الجيش المدافع عن النفس. في 26 آذار/مارس، تم إنزال اللواء 173 المحمول جوا بالقرب من مدينة كركوك الشمالية، حيث انضمت إلى قوات البيشمركة من الأكراد والتي يقدر عددها بـ 70 ألف مقاتل والتي ساندت القوات المحتلة، اشتركوا معا في عدة عمليات مشتركة ضد الجيش العراقي، لتأمين الجزء الشمالي من البلاد.

في بيتٍ صغيرٍ في أطراف بغداد، كانت أم جاسم تضع يدها على قلبها، تراقب الأخبار، وتنتظر صوت ابنها يطمئنها.

- جاسم، خبرني عن بغداد، ماذا جرى بها؟
- خربت، يا يمه.
- لا، لا تقل ذلك!
- هذه الحقيقة، الجيش انسحب من مواجهة العدو، والقصف في كل مكان، والشوارع أكوام زبل ومتاريس مقاومة.
- وأين صدام وجيشه؟
- الدبابة الأمريكية واقفة على جسر الجمهورية، تمنع العبور بين الكرخ والرصافة. الرئيس اختفى، دعينا نخلص من حكمه، خمسة وثلاثين سنة قضى معظمها حروب.

كانت أم جاسم تصغي، وعيناها تدمعان، بينما التلفاز يعرض الوزير محمد سعيد الصحاف وهو يتحدث بثقة عن إسقاط طائرات الأباتشي في الديوانية من قبل راعي غنم.

- لكن الصحاف يقول إن المقاومة قوية!

- يا يمه، المقاومة سلاحها بسيط، ما تقدر توقف طيارة ببندقية. الصحاف يبالغ، يريد يشد عزيمة الناس، بس الحقيقة غير.

في الجنوب، كانت الدبابات تمرّ من الناصرية والبصرة، تتجه نحو النجف والكويت، دون مقاومة تُذكر. الطرق خالية، الجنود انسحبوا، والشعب منهك من جراء الحصار يود تغيير الحكم، لا يريد حرباً استنزافية أخرى.

في 7 نيسان، كانت ليلة ليلاء. السماء احترقت، الأرض اهتزت، والمطار صار ساحة حرب. استخدمت القوات الغازية أسلحة محرمة، هيدروجينية ونيوترونية، لا ترحم. في تلك الليلة، قاوم العراقيون، رغم ضعف العدد والعتاد. كانت المقاومة شرسة، لكنها لا تكفي أمام جحيم الأسلحة المتطورة. استخدمت خلالها جميع صنوف الأسلحة الفتاكة من قبل الطرفين، الدبابات والمدافع والصواريخ وقاذفات الرشاشات والرباعيات المقاومة للطائرات والتي لم تجدي نفعا مع ارتفاع الطائرات، لقصر مدى الرباعيات وهي تحلق فوق الرؤوس كالعقاب الشاهقة، تنتشر الفرع في البقاع وفي القلوب البرينة، الضعيفة، الرهيفة من ابناء الشعب.

اخبار العراق تشير إلى عجز في تقدم العدو نحو بغداد، وأنه يتكبد خسائر جسيمة في المواقع التي تطنها قدمه، فيما أخبار الفضائيات والاقمار الصناعية كانت تمشي مع سرف الدبابات التي تجاوزت مدن الناصرية والبصرة بسلاسة وهي في طريقها زاحفة إلى النجف والكويت جنوبي بغداد دون مقاومة تذكر....

وفي 9 نيسان، سقط تمثال الرئيس في ساحة الفردوس التي امتلأت بالناس، بعضهم يبكي، بعضهم يصفق، وبعضهم لا يعرف كيف

يشعر. أما أم جاسم، فكانت تنظر إلى الشاشة، وتهمس: - "يا رب، احفظ العراق، وانصر أهله، واغفر لنا ما مضى."

بصراحة القوات المتقدمة لم تجد مقاومة تذكر في تقدمها، بل أن معظم القوات العراقية انسحبت من مواقعها لعدم التكافؤ من جهة وإصرار الغالبية العظمى من الشعب بالتخلي عن نظام البعث الذي أشكلها بحروب متتالية من جهة أخرى، لذا أخليت الطرق من المقاومة..

مقاومة شرسة على قتلها أبداها العراقيون في السابع من شهر نيسان من عام 2003، قابلت وجس طبول الحرب المرعبة بشيء من ذلك القبيل، بحيث استطاعت أن تخرس بعض أفواه الفلول المهاجمة على رغم من اختلال القوى لصالح سلاح العدو، وخاصة حين دخلت القوات الغازية حيز مطار بغداد الدولي بأسلحة هيدروجينية ونيوترونية حارقة، فتاكة، محرمة دولياً.

لذا عدّ يوم السابع من نيسان يوم أسود في تاريخ العراق، بسقوط مطار بغداد بيد القوات الغازية سقطت بغداد، لقد أحتفل العراقيون بذلك اليوم بشكل مغاير عما كانوا يحتفلون به في الأعوام السابقة، أبدلوا باقات الورود التي كانوا يتداولونها بذكرى تأسيس حزب البعث الحاكم بالرصاص والقنابل والمقاومة، لتبقى آثار قدم المحتل في ذاكرة الأطفال جيلاً بعد جيل كواقعة المغول عام 1258 حين سقطت بغداد سقطتها الأولى.

لم تتمكن القوات المهاجمة من السيطرة على الوطن؛ إلا بمساندة الخونة والأسلحة المحرمة دولياً من قذائف نيوترونية وهيدروجينية وفسفورية حارقة، والتي بسببها مالت كفة الحرب لصالح العدو، ناهيك عن الطائرات التي سيطرت على أجواء العراق من الوهلة الأولى لبدء الحرب، والتي تمكنت من تدمير كافة بؤر المقاومة

على مسار طرق تقدم جيش المشاة، وخاصة تلك التي تصدت لقوات العدو في محيط بغداد. هذا علاوة على استخدامها الحصار الجائر على الشعب مدة ثلاثة عشرة سنة والتي به انهكت قوة الشعب تماما... كأنَّ الرئيس صدام لم يهيئ جيشا للمقاومة من بعد الاحتلال أو أنه لم يتوقع خطة الاحتلال، فالمقاومة بزغت على وجه الساحة طواعية، ذاتية دون تخطيط مسبق أو دعم من قبل الدولة، حيث السلاح متواجد في كل بيت تقريبا.

دخلت قوات التحالف حدود الوطن من محورين، المحور الأول تقدمت به عبر الحدود الكويتية متخذة من خط الفاو طريقا لها، فيما استخدمت قوات أخرى محور حفر الباطن عرعر من السعودية باتجاه مدينة السماوة والناصرية بإسناد الطائرات المروحية (السمتية) كاستطلاع وتنظيف الممرات والطريق أمام الدروع والدبابات المتقدمة على سرفها؛ فيما دكت طائراتهم النفاذة المواقع المهمة الاستراتيجية والمعسكرات وتجمعات فلول الجيش والجسور المهمة والقصور الرئاسية ومصانع الأسلحة.

لذا تلك القوات خلال تقدمها لم تجد مقاومة حقيقية تذكر، وخاصة بعد أن تخلص معظم عناصر الجيش والشعب عن ولائهم للسلطة التي أجهدتهم بحروب وحصار طويل جله شقاء وعناء. لذا كان التقدم سريعا باتجاه بغداد العاصمة.

كان يوما قمطيريا، أسودا، سحنا، بانسا، عبوسا، يوم أن سقطت بغداد تحت وطأة قدم المحتل الأمريكي الغاشم في 09/04/2003، وذلك بعد سقوط تمثال الرئيس صدام في وسط بغداد. بسقوط التمثال تم التسليم باحتلال العراق رسميا.

ذلك اليوم الأشمر كان يومًا كالحًا، مغبرًا، اجتاحت فيه عاصفة ترابية هوجاء سماء العراق من مغربه إلى مشرقه، تصرخ بريح

شعواء تصهل في الفضاء، وتغمر بغداد بغبار أحمر كأنما لونته الدماء والنار. خيمت على المدينة كآبة ثقيلة، وارتسمت على وجوه أهلها ملامح الأسى والوجع، وانسكب السخط والوجل على صفحات التاريخ. فلن يشفع للغزاة شيء هؤلاء الذين دمروا وطن دون سبب.

لم تكن المسألة مجرد إسقاط نظام دكتاتوري كما زعموا، بل كانت تجريدًا ممنهجًا لقدرات العراق الفكرية والعلمية والتاريخية، استئصال الأصالة من عناصر قوته القومية والتاريخية، جزل علمه وثقافته، طحن تراثه الذي طالما أزعجهم بنكهته. إنها ذروة الحقد والتهميش، تحت راية عدالة الأمم المتحدة الزائفة، باسم حفنة العملاء التي تتحكم بها قوى الغرب واللوبي الصهيوني. قرار تدمير حضارة عمرها عشرة آلاف عام ألقى بظلاله على العالم بأسره، فجرّدوا العراق من كل ما هو جميل وأصيل حتى سرقوا كل آثاره التي باتت تركز في متاحف العالم.

أضحى تاريخ احتلال العراق وصمة عار في جبين الزمن، خاصة حين نعلم أن بعض "العاربة" ساهموا في تدمير وطن طالما كان سيفًا مسلولاً ونصلاً مقدماً في الدفاع عنهم. قدّموا التسهيلات، وساندوا العدو، وشاركوا في احتلاله. تكررت نكسة المغول الأولى، لكن هذه المرة على يد التتار الجدد: بوش وبلير، الذين ملأوا الشرق والغرب رعباً ودماراً، حتى تخلّت بغداد عن بهائها، كما فعل بها المغول من قبل.

كان يوماً من أيام سقر، يوماً من أيام الهلع والفارعة، حين غلبت الضغينة العقل وغابت النضارة عن وجه بغداد. سُجّي ثغرها الدامي بالحزن والشجن... ذلك اليوم الأدغم، كان قدر العراقيين البليغ، الموشوم بالحسرة، والمثقل بالحنين إلى ما كان.

تلبدت السماء بغمامة سوداء، كأنها كفن يلف جسد بغداد المنهك، بفعل سحب الدخان المتصاعدة من مواقع المحترقة العديدة التي غطت مساحة بغداد، أغبرة هائجة تزمجر مع اشتداد الريح في الأفق، تكورت كأجنحة طائر الفينيق وهو يحترق بسماء بغداد بحيث دخان سقم الفعل وسوء الظن تمددت مع الريح، تبرجت بغداد بحمرة الدم وسواد العار في زفافها الجديد الذي لا موسيقى فيه سوى صراخ الضحايا ودوي الانفجارات...

اصفرت الأجواء وكظمت الأنفاس تحت وطأة جنازير الدبابات العابثة في ميادين القتال، تصحبها عاصفة هوجاء مغتظة، حتى اختلط الحابل بالنابل، والغبرة بسخام القذائف، وسيل دماء الأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى انتمائهم لهذا الوطن الجريح بكافور التربة. أولئك الذين ذاقوا مرارة الحصار، ثم أضيف إليهم الفقر والجوع والقتل والتشريد، تحت وطأة حرب فرضت عليهم بالقوة دون ذنب.

طال القصف بيوتاتهم عشوائياً وتكتيكياً وتخطيطياً وترقيعاً، وبشتى أنواع الأسلحة، منها ما جُرب لأول مرة على رؤوس المساكين، لتُختبر فعاليتها على أجساد الأبرياء، صواريخ، قاذفات، مدافع ثقيلة، وحمم من شظايا الحديد انهمرت كالمطر وهي تجمل غازات هيدروجينية ونيوترونية محرمة دولياً، لتغمر رؤوس القناطين تحت مظلة الوطن، ولتدمر شواخص الحضارة، وحصاد أكبر عدد من الدور والمعامل والمتاحف والمصانع والشوارع والطير والشجر والبشر والحلم والأمل والتاريخ من الجذور.

وسط هذه الفوضى، طفت عمائم سود وبيض على السطح كقفاعات فكر دخيل، تفجرت على إرث العراق بغلٍ وطائفية، مستغلة الدين لتحقيق مصالحها. قادت المغرر بهم نحو مراكز الشرطة والوزارات والمؤسسات، لتنهب الأسلحة وتدمر الموجود كي يكون لها شأن في المستقبل على مصلحة الوطن؛ حتى جُرد الوطن من

كل مقوماته، وسادت الفوضى، واشتط العبث، تحت رعاية المحتل وتشجيعه.

معظم تلك الأفواج الدخيلة دخلت عبر الحدود المفتوحة من الكويت وإيران وتركيا، كانوا قد عاثوا فسادا في العراق. كانت مهمتهم ملاحقة من لهم تأثيرا على الوطن. جزوا الرؤوس البارزة من أصحاب المناصب والقامات وأصحاب العقول النيرة في مراكز الدولة، وخاصة العلماء منهم والضباط والطيارين ووجهاء البلد والمتفوقين في مجالاتهم، بتخطيط وتوجيه خارجي مدروس لتدمير البنية التحتية للبلد، كي لا تقم له قائمة في المستقبل القريب.

بسقوط تمثال الرئيس صدام حسين في ساحة الفردوس، ابتدأت مرحلة جديدة من العنف عجت بالفوضى والقتل والتأثر والسرقة، ليعم الصخب أرجاء العراق قاطبة من أقصاه لأقصاه.

قبل سقوط تمثال الرئيس، كانت مؤسسات الدولة قائمة، سليمة، معافاة، لم تشبها شائبة في العفة أو النظام. لكن بعد ذلك التاريخ، تحولت دوائر الدولة إلى فرجة للعالم، وصار أثارها يزحف في الشوارع كدبيب النمل المهاجر، بعد أن قُطع إربًا إربًا، ليسهل على فئة اللصوص (الحواسم) من حملها إلى جحورهم الخاوية.

في خضم تلك الفوضى التقى قاسم جاره ابو عادل ودار بينهم هذا الحديث:....

- يا أبو عادل، أين كنا وأين أصبحنا؟ نحن الآن نعيش في غابة، القوي يأكل الضعيف... لا يمكن أن تستمر هذه الحالة المزرية، وإلا سننتهي جميعًا.
- اصبر يا قاسم؛ الأوضاع ستتحسن، وإن لم تتحسن، سثُعب دول العالم أمريكا وبريطانيا، فقد وعدتا بالديمقراطية والحرية.

- قاسم (ساخرًا): عن أي ديمقراطية تتكلم؟ هههههه... نحن شعب طرطور، يصفق لهذا وذاك، لا نسير إلا بالعصا. بالأمس صفقوا للملك، ثم لعبد الكريم قاسم، ثم لعبد السلام وأخيه عبد الرحمن، ثم للبكر وصادم، والآن يبتهجون بالاحتلال! يصفقون لمن يعلق الحبل بأعناقهم!
- يجب أن نصبر يا أبو محمد، ربما هؤلاء تنفسوا الصعداء بعد أن كُمت أفواههم طويلاً، عاشوا تحت وطأة حكم دكتاتوري وحصار جائر.... أنسيت قسوة الحياة؟ كيف كنا نجهد ولا نستطيع تأمين علاقة البيت من الرزق اليومي؟
- لا، وكيف أنسى؟ لكن كانت هناك دولة ونظام يدير شؤون البلد، القانون سائد، والأمان حاضر. كنت تنام وباب الدار مفتوحاً. الآن أخاف من الغد ولا أأمن جاري، قد لا نجد ما نأكله!
- الفقر المدقع والظلم الجائر واستبداد الرأي والموت البطيء أيضاً كان موجوداً. هذا ما جعل الناس تفرح بزوال النظام الدكتاتوري.
- نعم، هؤلاء لم يتصرفوا بإمعان. جمعوا النقود من النفط والتقشف الذي فرضوه على الشعب، لتأتي العصابات وقوات المارينز تجهز عليها. لم يستفيدوا مما جمعوا. كان نظاماً عادلاً في عدله وظلمه. كان الأجدر بهم أن يراعوا حقوق الشعب وينقذوه من الفاقة. نحن أغنى دول المنطقة، ومع ذلك غالبية الشعب تحت خط الفقر، يعيش على مخلفات المزابل.
- صحيح، لم يراعوا حقوق الإنسان، وهي جزء من غرائزه التي وهبها الله له. حب التملك غريزة، والدول الرأسمالية احترمتها فتقدمت. نحن كنا نأكل ونشرب كالحوانات، دون أن نملك ما يعزز أحلامنا ويؤمن غدنا، رغم غنى العراق.

- يا قاسم: هل من المعقول أن يعيش الإنسان بمرتب يعادل ثلاثة دولارات في الشهر؟ إنها كارثة! بقيت المرتبات كما هي، بينما تدهورت قيمة الدينار أمام الدولار الأمريكي. أمريكا ذكية، أنهكت الشعب بالحصار لثلاث عشرة سنة، ثم احتلت الوطن بأبواب مفتوحة.
- يا أبو عادل: هل تعلم أن الدينار العراقي كان يعادل 3.20 دولارًا قبل حرب إيران؟ ثم صار يعادل دولارًا قبل دخول الكويت، وبعد الحصار صار الدولار يعادل 3000 دينار! ... أنها كارثة سهلت عليهم الاحتلال.
- هذا ما جعل الشعب يتخلى عن الدولة، ويرحب بالمحتل لينقذه من نظام أفقره. السبب ذاته وراء السلب والنهب. الشعب لم يتعود أن يعيش مذلولاً على الفاقة وإكمام الأفواه.
- بصراحة، لا أرى انبلاجًا في الأفق. نحن كمن خرج من حفرة ليقع في هوة. المصيبة أكبر من التحرر.
- ههههه، صدقت... تورط الشعب بالأحزاب والقوميات، وأخشى أن يتورط بالشعوذة والطائفية. الله يستر، الله يعيننا... وعسى ألا يزيد عدد القانتين على المزابل.

قاسم:....

- أستودعك يا أبو عادل، سامحني، يجب أن أرى عملي.

أبو عادل:....

- إذنك معك... مع السلامة يا قاسم.

بعد سقوط التمثال، خيم على الشعب خدرٌ عميق، كأن جذوة الحياة قد انطفأت في أعماق النفوس. حيث بالأمس القريب كان محروماً من كل شيء، كجمادٍ لا يسمع ولا يرى، لا يعرف من الألوان سوى أعلامٍ مفروضة عليه. كان قد حُرم من أبسط أدوات الترفيه والتواصل الحديثة: الساتلايت، الإنترنت، الحاسوب، الهاتف المحمول، وكل ما يمتّ للحياة بصلّةٍ إلى الخدمة الشخصية أو التعليم الجيد أو الترفيه.

حصارٌ خارجيٌّ خانق، وقبضةٌ داخلية من حديد، شدّت على عنقه حتى تجاوزت حدود الاحتمال. مُنع من الاطلاع على الإعلام الخارجي، ومن مواكبة تطورات الحياة والتكنولوجيا، لا شيء سوى خشية النظام من أن يتسلل إليه نور الحقيقة، أو رغبة الأعداء في تغذية جبهة المعارضة، أو رغبة الحلفاء في إبقاء العراق في عتمةٍ تسهّل تنفيذ مخططاتهم. فُرض عليه حصارٌ جائر دام ثلاثة عشر عاماً، هي ذاتها سنوات الطفرة التكنولوجية في العالم.

وهكذا، بعد سقوط التمثال، دخل العراق مرحلة حرجة، كأنّ الزمن توقف عند باب المدخل. البعض وجد في الانهيار متنفساً، والآخرين ظنوا أنها لعبة، فيما البقية ظلوا يتربصون المفاجآت التي أرهقتهم، كأنهم جميعاً يدرون في دوامةٍ لا قرار لها.

أما الوضع الأمني، فكان يلفه ضبابٌ كثيف لا يتخلله ضوء سوى تفجيرات خجولة تنفلق هنا وهناك من مقاومين متفرقين. القيادة تشتتت في ظلام الوطن، الوجوه التي كانت بالأمس رموزاً مقدسة، غابت في غياهب الجب، في دروب التيه والاندھاش، كأنها وقعت تحت تأثير صدمةٍ، فلم يُشَف لها طرف. الاخبار التي كانت تجمع بأسمائهم نستهم، تغالفت عنهم، وضعتهم في حقيبة النسيان، لا خبر

يُروى عنهم، ولا صوت يكشف عن حجم اليأس الذي نخر عقولهم. بعضهم أضحي كالمهووس لا يعرف وجهته ولا تعرف له وجهة، ولا كيف هو الرشد ليتصرف في مخصصة ضاع فيها رأس الخيط.

بدا النظام وكأنه لم يتهياً لمرحلة ما بعد السقوط، ولم يخطر في بال الرئيس صدام أن دولته ستنتهار، وينهار أركان حكمه بهذه السرعة المذهلة. لم يُعد عدته للمقاومة، ولم يوزع السلاح على الشعب، وكأن الحقيقة باغتته كالصاعقة، شلت حركته وجمدت تفكيره. كانت الضربة الأولى لقصره إشارة النهاية، في مساء التاسع عشر من آذار عام 2003 باغتته قذيفة، كانت بمثابة مقدمة السحب التي ستمطر ناراً على العراق، تلك القذيفة سحبت البساط من تحت قدميه دون سابق إنذار، لتضع النقاط على الحروف وتوضح حقيقة الأوضاع التي تدور من حوله.

لكن الشعب، حين رأى الجندي الأمريكي يتجول في مرافق الدولة ويعبث بمقدّراتها لم يعجبه ذلك العبث، انتفض بضراوة الاسد. بدأ ينظم نفسه في فرق وجماعات، يترصدون العدو ويوقعون به خسائر فادحة وبالذات في المناطق التي يقطنها سنة العراق... ومع مرور الزمن، تحوّلت لمقاومة منظمة وبقوة شرسة، أنهكت القوات الغازية، وأصبحت سماً في كأس النصر الذي شربوه وادّعوه، تلسع نواياهم وتشل أفكارهم.

منذ أن وطأ أقدام الاحتلال الأمريكي البريطاني أرض العراق، بدأ موسم الخريف والجراد. تساقطت أوراق النفوس الضعيفة كأوراق التوت، واحدة تلو الأخرى خلف نواياهم المريضة، حتى تعرّت أجساد الخونة من الوصوليين والانتهازيين واللصوص والمجرمين والقتلة أمام ذوي العزّة والشرف والرجولة في مقاومة المحتل. وكأنها كانت تنتظر الفرصة لتغرف من كأس الوطن دون حياء.

حين دتس المحتل تراب العراق، كانت تسود أعماق العراقيين صبغة البراءة والنخوة، تلوك ثيابهم نكهة العزة والكرامة، تعم وجوههم المنهكة من أثر الحصار سمة الإيباء وصفاء لون البشرة الحرة، ومسحة من الشعور بمحبة الوطن والمسؤولية. كان اللون الأبيض يطغي على القلوب النقية، الشفافة، كأيديهم البيضاء، لا تشوبها شائبة، معطرة بالثقافة والوطنية، وعزة النفس والدين والغيرة والشهامة. كانت النفوس لا تزال عذراء، لم تغتصب بعد من سيد الطمع و فرق الطائفية المتسللة تحت جنح الظلام.

هكذا عاش حقب الزمن، المحبة طاهرة، والطيبة سائدة، والروح خضراء طرية، لم تصفر أوراقها بعد، ولم تذبل جلودها من صبغة الكلوروفيل الطاغية في السلوك. كانت الناس صلبة، صلدة في مواقفهم تجاه الوحدة الوطنية، قوية لا تهتز أمام الريح الصفراء، لم تتلوث أيديهم بالخسة والنذالة، ولم تتسخ نفوسهم بغبرة الطقس أو بوباء الطمع والخنوع للمحتل، رغم أن الريح طالت أنوف الجميع، والنار لسعت جلود الكبرياء.

جاء الاحتلال بشكله المقيت، وظله الداكن المعبّق بالحق، يحمل نتن الصهيونية وخبث النوايا، يفوح منه عطن الغل، ويبذر القذارة والكراهية والطائفية والعنصرية بين الناس. هيّج جمر الفتنة بعصا بغضه، ورشّ سموم فكره في خزان الوطن، وجمع أطيايف الشعب على سفرة وليمة الأثم.

جاء الاحتلال متدنّراً بعباءة الأعور الدجال، محتالاً برداء الديمقراطية المزيفة، يخفي خلفه نوايا خبيثة ومخططات سرقات ممنهجة لخيرات البلاد، لتنتعش إسرائيل بأمانٍ ممتد لعقود من الزمن. لم يفرح ويهلل لقدومهم سوى شرذمة من الخونة واللصوص والعلماء والدجالين الذين استغلوا الظرف لتكون لأقدامهم وقع قدم في المشهد، ممن رأوا في الفوضى فرصة سانحة

لاقتناص الدرر وامتطاء صهوة الجواد نحو مصالحهم الشخصية الدنيئة.

عمت الفوضى أرجاء العراق قبل سقوط الدولة وبعدها، انفجر الشرر مع أول إطلاقه للقوات الغازية باتجاه الوطن، فاشتدت جذور الفوضى مع توالي القذائف. وفي اليوم التالي للاحتلال، استيقظ الشعب على موسمٍ غريب من مواسم الجراد، نهش البلاد بلا رحمة، اجتاحتها كسيل عارم، لم يبق ولم يذر.

لم يترك اللصوص حقلاً إلا دنسوه، إلا نهبوه. ولا خزينة إلا اقتحموها وجردوها من مؤنّها، حتى تحولت ساحات الوطن وبنوكه ومتاجره العامرة إلى أطلالٍ مقفرة، خاوية من زبد الحياة. امتدت أياديهم الأثمة إلى أمعاء البلاد، تماردوا بخبثٍ لا يُضاهى، فغاصت أظافرهم في جيوب المواطنين وفؤاده، جردوه من القيم والعاطفة، نهبوا مقومات الانسانية والانتماء وكل ما وقعت عليه أعينهم من أموالٍ وجواهر ثمينة.

كانوا كمن يسلب الروح من الجسد، بلا وجل، ولا أدنى شعورٍ بالذنب.

الأمريكان هم من صنعوا الفوضى، هم أول من بادر بإشعال الفتنة وبالسرقة؛ حين نهبوا خزائن البنك المركزي بذهبه ودولاراته والتحف المخزنة فيه. جاءوا بفوضى معلّبة، مصقولة، براقّة، ملونة كقوس قزح، وزعوها على أطراف الشعب بالتساوي، علب تتصف بالطائفية والقومية والمحسوبية والمصالح الذاتية والعريضة، مفخخة بالوبال، وهم يدركون سر الوبال مكنون في بوتقة أذهانهم، وأنهم هم أصل البلاء والخراب.

الأمريكان هم من نفضوا الغبار عن عقدٍ دفينّة مخفية تحت غبرة الزمن، كامنة في جوف وزوايا التاريخ، ليعيدوا تفعيل خبثها

وتوظيفها في مراحل التنكيل بين أبناء الشعب، فيسهل عليهم تمزيق نسيج الوطن بطوائفه المتعددة. هم من جَلّوا الصدا المتراكم على تلك العقد بدماء الأبرياء الزكية، حتى أشرقت صدفيتها تلمع أمام أعين الخونة والمأجورين الذين دنسوا تربة الوطن، كأنها كنزٌ طال انتظاره..... هم من أطلقوا السيل ليحرف الأزقة والبساتين الوارفة، كي يفتحوا الطريق أمام قطيعهم، لينهشوا ما تبقى من جمال الفتن والكرامة والإنسانية العالقة في ثيابنا. لقد جاءوا بما لا نتمنى ولا نريد، لا ليبنوا، بل ليهدموا. لا ليحرروا، بل ليقيدوا. لا ليزرعوا، بل ليحصدوا ما لم يزرعوه.

أما الطابور الخامس، فقد تحرّك كأفعى تتلوّى في الظلام، واضعًا نصب عينيه أهدافًا تختزل الحياة في غنائم ومكاسب، باحثًا عن خلايا النحل وقوارير الذهب في جحور النمل العميقة، منقبًا عن المؤن والمخازن واساسيات الثبات والطاقة، طارقًا أبواب البنوك والمراكز التجارية والمتاجر الأهلية والصوامع وبيوتات العزل من الناس، واضعًا يده على كل ما هو ظاهر ومخفي من قوت الشعب وخيراته، وما هو مدفون تحت الثرى أو بعيدٍ عن الأنظار من مخزون ومواقع كانت تركز عليها الدولة في تسيير أمورها.

تحرّك هذا الطابور مع سقوط تمثال الرئيس في ساحة الفردوس واختفائه من ساحة المشهد العام. لم يدركوا أن التمثال رغم رمزيته لدكتاتور العصر، كان يحمل في وجوده أثرًا عميقًا في حفظ كرامة الشعب، كان كالرمد في عين العدو، يمنع نواياه السود من أن تشتت بين أفراد الأمة. كان وجوده شاهداً على طمع الغرب وحسد الجيران... بسقوطه سقطت أقنعة الوجوه، وبأشترت بسرقة سلة الوطن ومسلة التاريخ العريق وثرواته المدفونة تحت التربة.

مع سقوط التمثال، انطلقت شرارة النهب، وتدشّنت مرحلة جديدة من الفوضى، حيث لم يعد الوطن وطنًا بمعنى الكرامة، بل ساحة

مفتوحة للغزاة واللصوص يتقاسمون خيراته كما تتقاسم الذئاب الفريسة. جاءوا يحملون قرباً خاوية وسلاًفاً فارغة وأخياش، حقّوا البلاد من كنوزها وتاريخها، من ذكرياتها ومسلاتها، من براءتها وضحكاتها وأملها وأحلامها. حتى لعب الأطفال لم تسلم من عبث أيديهم. لم ينجُ من خبثهم شيء؛ سرقوا الدواب والضأن، وانتزعوا النعل من أقدام المصلين والكهنة من الصوامع والكنائس، في محاولة لطمس شذرات الدين التي تقوّم أخلاق البشر.

صارت الفوضى الحارس الوحيد للبلاد، تهدد المارقين في شوارعها، وتلهب الأرض تحت أقدام الشعب. لم تهدأ نيرانها لحظة؛ إذ شبت الحرائق في الأسواق والحارات، في الوزارات والبنوك، في الصوامع والمراكز التجارية، بتخطيط محكم ودعم خارجي منسّق مع الحرامي الأول، الغاصب المحتل. وكما شبت نيران الغيرة في قلب كل عراقي شريف، تصاعد الدخان من كل حطب وصوب، كأنها بهرجة عرس، لكنها كانت مأتمًا، عزاءً لا يضاهاى، عزاء وطن بأكمله وقد لسعت النار جمجمته.

تتور لم يبرد جمره، ورائحة اللحم المقدد تفوح عن بعد من كل مكان، تتعالى في مرج الدخان الملتحم بالنجوم. أضحت بغداد غريبة، لا تشبه نفسها، لا صلة لها بالحاضر ولا الماضي. لبست أسمال التاريخ، وعادت إلى عهد التتر من جديد... أمست أشبه بالأثمة في زفتها الجديدة، يوم زُفت بالقصف في ظل يوم عاصفٍ مغبرٍ شائك. سقطت كسقوطها الأول، جثت على ركبتيها، باتت تزحف خلف التخلف والانحلال والانحطاط.

لم يكن النظام السابق سوى تجلٍ آخر للبخل السياسي، لا يختلف كثيرًا عن حكم المستعصم بالله، آخر خلفاء بني العباس، الذي بخل على شعبه بما خزنه من ذهب ومال، فتركها فريسة سهلة للمغول بعد أن اجتاحوا بغداد. كذلك فعل نظام صدام ذات الفعل، إذ راكم

ثرواته تحت غطاء الحصار والتقشف، من خلال بيع النفط بطرق غير مشروعة، متدنّثاً بعباءته السوداء، تاركاً تلك الكنوز هدية سقوطه للمحتل الأمريكي، وللصوص والخونة الذين انقضّوا على بغداد كالسيل الجارف، وهم يفتحون أبواب البنوك والوزارات والمتاجر والصوامع بالبندقة، تلك التي كانت مؤونة الشعب لسنوات قادمة.

ووفقاً لما ورد في الصحف آنذاك، فقد استولت القوات الأمريكية على شاحنات محمّلة بقناطر الذهب، ومبالغ تجاوزت ستة وعشرين مليار دولار. ولو أن النظام أنفق على شعبه مليارين فقط، لتحسّنت أحوالهم، ولربما دافعوا عن نظامه دفاعاً مستميتاً حتى الرمق الأخير.. ما كان ليسقط بهذه السرعة أمام المحتل، ولا في أعين الناس التي أرهقتها الفاقة.

تسابق اللصوص مع المحتل نحو مراكز الثروة يتبعهم شلة من المارقين والفضوليين، فما إن نهبت قوات المارينز البنك المركزي، حتى تحولت البنوك الأخرى في أحياء بغداد والمحافظات إلى أطلال متناثرة في ساحات النهب. ورغم فداحة المشهد، فإن وجود تلك الأموال في جيوب اللصوص بدا لي أهون من أن تكون في خزائن المحتل الغازي.

تفننت العصابات في اقتحام أهدافها، مستخدمة كل أدوات العنف: البنادق، السلاح الأبيض، الهراوات والعصي. حملوا ما استطاعوا من أكداش النقود، وسبائك الذهب والفضة، وصناديق محكمة الإغلاق، وأكياس ممتلئة بالدولارات والمستندات والعقود، تلك التي عجز النظام عن تحويلها إلى لقمة تسد رمق المحرومين من أبناء الوطن من الطبقة المسحوقة من العمال والموظفين والجنود، الذين طحنهم الحصار وتكرار الحروب، دون أن يجدوا من ينصفهم أو يمد لهم يد العون.

هكذا كانت النهاية: شعبٌ منهك، ونظامٌ متغطرس، ومحتلٌ جشع، ولصوصٌ جياع. وكلُّ نال نصيبه من الخراب، لكن بقي السؤال معلقاً في سماء بغداد: ماذا لو أن النظام أحسن بما فيه الكفاية إلى شعبه قبل أن ينهار الصرح؟ هل كانت بغداد تُتهب بهذا الشكل؟ وهل كان التاريخ ليكتب فصلاً أقل مرارة؟

لقد أشعل الأمريكيون فتيل الفوضى، لا بوصفهم غزاة فحسب، بل كمهندسين لانهيار الدولة. حملوا الجواهر في صناديق جاهزة، كدسوا سبائك الذهب في عربات "اللوري القلاب"، لينقلوها إلى خزائنهم البعيدة، وكأنهم في نزهة يفرغون خزائن بغداد ليملأوا خزائن واشنطن.

ثُركت تلك الثروة الهائلة كلقمة سائغة في أفواه عناصر المارينز، ممن لا يحملون من صفات الجندية سوى الزى الرسمي، كما وصفهم الغضب الشعبي، وإلى جانبهم حفاة وجياع الداخل من اللصوص وذوي النفوس الضعيفة، والقتلة والمأجورون وقطاع الطرق، أولئك الذين أطلق عليهم الناس لقب أصحاب "الحواسم"، تعبيراً عن فوضى النهب التي اجتاحت البلاد.

تحولت شوارع بغداد إلى مسرح مفتوح للنهب، حيث المقطورات وعجلات النقل من "البليك آب" والعربات المدفوعة والمجرورة حملت ما حملت من مؤون مخازن البنوك، ولوازم الوزارات، من أثاث وتحف وأجهزة إلكترونية، نُقلت إلى أماكن خفية مجهولة في دهاeliz بغداد وشمال الوطن، وكأنها تُخبأ لزمان آخر أو لصفقة أخرى قادمة.... وقد أفضت المنافسة على سرقة المال العام إلى صراع شرس بين تلك الفئات المتنازعة، بعضها مدعوم بقوى خارجية، تسندها بالسلاح والأفراد والدعم اللوجستي. تلكم الصراعات أفرجت عن صدامات عنيفة بين العصابات، دارت

رحاها في شوارع بغداد، بأثرها سقط قتلى وجرحى، تحولت المدينة إلى مدينة أشباح وساحة حرب بلا راية.

"إذا ضاع القانون، فافعل ما تشاء"- عبارة تنطبق تمامًا على تلك المرحلة، حيث تلاشى النظام، وتبخّر الحبر من على الورق، وانزوى القانون عن الساحة، تاركًا الشعب في مواجهة قدره، والعصابات في سباقها المحموم نحو الثروة، دون رادع أو ضمير.

تحول العراق إلى غابة لا يسودها إلا من يملك القوة، فيما باتت أحشاء الوزارات ومصارينها تُسحل في الطرقات، وتُنهب على مرأى من العامة. فقد سُرقَت أثاث الوزارات وقصور الدولة، ونُقلت إلى البيوت والمزادات العلنية، كُشِطت مخازنها حتى آخر قطعة، لا سيما الأجهزة الإلكترونية والكهربائية، والكنبات، والفرش، والكراسي، والقرطاسية، وكل ما له قيمة. حتى أسوار المباني وأبوابها وشبابيكها لم تسلم من العبث، تلك المباني جُرِدت من زينتها قبل أن تُحرق انتقامًا وحقدًا على يد عصابات مأجورة، مدفوعة من جهات خارجية وداخلية لها مصلحة في تدمير أساسيات الدولة ليسهل عليها إعادة ترتيب أوراقها للمرحلة القادمة.

وكان لليد الخفية المدعومة من بعض دول الجوار دورٌ خبيث في إحراق مؤسسات الدولة، خصوصًا دوائر النفوس والتجنيد، بهدف طمس الحقائق ومحو الأصول المدونة في سجلاتها. فبإتلاف تلك الوثائق، أُتيح المجال لزج الجواسيس والعملاء بأوراق مزورة، ليُمْنَحوا صفة المواطنة، ويُدفعوا إلى مواقع قيادية في المجتمع العراقي، يخدمون من وراء الستار مصالح أسيادهم في الخارج.

وهكذا، لم يكن الخراب وليد لحظة، بل نتيجة مؤامرة محكمة، استهدفت البنية الإدارية والهوية الوطنية، لتُفَرِّغ الدولة من مضمونها، وتُملأ بمسوخ لا تنتمي إلا لمن دفع بها إلى الواجهة.

ولدت الفوضى في العراق ولادةً عجيبة غريبة، كإحدى عجائب الكون الجديدة والتي لا تفسير لخلقها. خرجت إلى الدنيا بعين واحدة لا ترى سوى الطمع والجشع، وأنفٍ منتفخ مشروم يتنفس الدم والطائفية والقومية، ولها أفواه وأطراف لا تعد ولا تُحصى، تلتهم كل ما يعترض طريقها كالجراد: تلتهم البشر، القيم، الأحلام، وحتى التاريخ والمستقبل.

عاثت في الأرض فساداً، قتلت، جرّت الرقاب، سرقت الدرر، ورّعت الهموم، ونشرت الفتن كما تُنثر البذور في أرض عطشى. ترعرعت كطفلة رعاء على البغض، نغلة، لا أصل لها ولا نسب، حلت كقدرٍ أسود، ونسجت من خيش الظرف لباساً لها، فخدعت كل أطيان الشعب بخبثها وعبثها ونواياها.

رضعت من صدر أمريكي، وتشربت تعاليمها الصهيونية والمجوسية، ارتدت لباس الرجعية، تزينت بثقافة أعجمية لا صلة لها بالواقع. شرّعت السرقة، وأباحَت القتل والنكاح والتسافد، روّجت طرق الفتن والزنا، نبذت الدين، اباحت الشعوذة، وأشعلت نار الفتنة بلا هوادة.

استندت إلى مبدأ "عالم الغاب"، تمخضت بفكر مكياfli، حيث الغاية تبرر الوسيلة. باسم الديمقراطية، بثّت الطائفية، والشوفينية، والشعوبية، والشعوذة، حتى غدت الفوضى ديناً جديداً لا نبي لها، دينا لا يعرف الرحمة ولا يعترف بالحق.

فايروس الفوضى تسلل إلى أعماق النفس العراقية، شرع ببناء جداراً من العزلة في قلب كل فرد، مدعماً بوازع ديني وقومي وطائفي. استيقظت النفس الأمّارة بالسوء في داخل الضعيف

والعابث والمجنون والشريف والحازم، كلٌ حسب مرآته الأولى للأحداث، فتسارعت النفوس نحو زرع ألغام الفتن والمصائب في حقول الوطن، لتنفجر فجأة في كل بيت، وتقتل الألفة والمحبة والبراءة والوطنية بين أبناء الأسرة الواحدة والوطن الواحد.

هكذا أقعد الوطن لعقدين من الزمن وهو يستجدي الرحمة من الغادرين، بات يزحف على بطنه خلف مصير مجهول، متشخّاً بأسما الحزن واليأس، مكبلاً بعقد وألغام خرشت دستورهِ. صار العراقي يتحایل على نفسه وعقله ليظفر بلقمة تسد جوف جوعه، قبل أن يغرق في متاهة العيش الضنك، تنامي الفقر المقور كقصبٍ أجرد في كل زاوية من الحياة.

غايةً زرعها أعداء العراق في نفوس المساكين الذين دُبحوا على أرصفة الانتظار خلال مواسم الحصاد والفرح. اختلط الحابل بالنابل، ولم نعد نميز بين الصالح والطالح، حتى تشابهت الألوان والنيات والغايات كتشابه الغابات في البطحاء. لقد تلطخت الأيادي بالدم الفاسد إلا ما ندر، اشترك المواطن والدخيل في ذبح ناقدة الوطن قبل أن يجهز عليها العدو الذي وجد فرصته، ليعلن رئيسهم القذر بوش انتصاراً وهمياً عبر الإعلام المرئي والمقروء دون أن يدرك الحقيقة التي فجعتهُ.

تلك الفوضى لم تكن وليدة لحظة، بل نتيجة طبيعية لسنوات من الحروب والحصار والقحط والانحلال. فما إن تنتهي حرب حتى تُزج الدولة في أخرى، حتى غصّت النفوس في عنق الزجاجة، بحصار دام ثلاثة عشرة سنة من الجوع والفاقة. تلك السنين العجاف مهّدت الطرق لاحتلال العراق، بعد أن يبست جذور المواطن والوطن تماماً من النظارة. ثلاثون عاماً من العنف والتكبر والاستعلاء والمزامطة، أنهكت الشعب، ومهّدت السبل للمحتل الذي خطط لذلك مسبقاً، بمعونة أقزام من الخونة وخيانة العرب للعراق

الذي طالما دافع على سيادتها في المحافل الدولية، ليتسلط على رقاب العراقيين بعنجهية وغرور واستبداد.

كان الحصار أشبه بأفة جائعة درفتها الأمم المتحدة عبر تشرق قوانين ظالمة تزتها في حديقة العراق، لتتحش النفوس والشجر، ليمتد صخبها كل أرجاء العراق، اخطبوط أغرس أطبق فاهه ومجساته على المدن والقرى، عجز الفرد عن فك ذاته من أنشودة ذلك اللغز، كما عجزت الكلمات عن وصف شراسته.

تفجر الحصار دون هوادة كبركان غاضب لفظ قروءه في قلب الرعية، شلّ الوطن من أقصاه إلى أقصاه، ترك ندوباً غائرة في الوجوه والنفوس. جفّ الأرض وسرج السماء، سحق الفلاة تحت أقدام المساكين. بزغ بلون الدم، بحلّة الظلمة، بقوة الإعصار. ظهر بوحشية الذئب وشراسة النمر، مكفهر الوجه، عبوس، جلد، شرس، شائك، قبيح المنظر، حتى الوحوش كانت تفرّ من قبح هيئته.

زحف على الفكر والقيم، اجتاح المبادئ والأخلاق، عبث بالثقافة والعادات، وأحرق الأحلام والرغبات. جعل الحياة بركة أسنة بلا عمق، مستنقعا واسعا يفيض بالحشرات، هوة بلا منفذ. أجهز على كل جميل قبل أن يجهز على البدن ويفريه.

انهارت القيم التي كنا نستند إليها، ذابت كما تذوب الأملاح في المياه لا أثر لها. لتحل محلها قيم براقّة، مصطنعة، بلا نكهة ولا ذوق. غسّلت الأبدان، وشطبت النفوس من عفتها وعمقها. عقرت الأرحام، وبعثرت خرز الحياة في متاهات الظرف الجديد.

لم تقاوم الفئة الشبابية، فهجرت الوطن كالعصافير المهاجرة، مع أول إعصار عبث بمقدّرات الدولة والناس. انقلبت حالة الإنسان رأساً على عقب، ولم ينجُ إلا من باع ضميره وركب مركب العدو، أو من تدارك أمره قبل أن يفلت الزمام.

جار الحصار على الشعب، فقطع صلة العراق بالعالم الخارجي. لا استيراد ولا تصدير، لا بيع ولا شراء. طحنوا نخالة الخشب والنوى مع الدقيق، فتلّون الخبز بسواد الفحم والمنظر والنية التي أرادوها لنا. تقطعت صلة الرحم، وانتشرت الوشاية والرشوة كالوباء. طغت الأنانية، ونُذ التسامح، فولدت الكراهية في جحر كل فرد.

زمن مريض، عزف فيه الشباب عن الزواج، وترك الحليم حلمه حتى تعفن في الأدراج. انزوى الصبر، وصار العاقل يبحث عن صوت قلبه بين الفرص الضائعة لينجو بنفسه من طوق الشيطان إلى مسرح الأمان، فيما استعصى على البعض الهروب فمنح ذاته مضطراً فرصاً غير شرعية.

استغل السماسرة والتجار الوضع، فزادوا أرصدتهم بتجارة بلا رقابة. استعانت الدولة بهم، فغمرت السوق ببضائع بخسة، منتهية الصلاحية، بأسعار تفوق قدرة الشعب. تعاونوا مع إيران وتركيا، واستوردوا أسوأ ما فيها من مواد لسد النقص الحاصل في الأسواق، فيما انحدر الدينار منتكساً إلى الهاوية أمام الدولار الأمريكي.

هذا الحصار كان سبباً رئيسياً لتخلي الشعب عن السلطة الحاكمة، وهو أيضاً السبب الرئيسي في سقوط بغداد بالسرعة الغير معقولة أمام القوات الغازية، إحدى وعشرين يوماً فقط من بدأ معركة الاحتلال كانت كافية لتستسلم بغداد بأسف للمحتل..

مع بدأ الحصار وضع البيض الفاسد تحت رفاة الوطن، لتنفق تلك البيوض عن صيصان من اللصوص والقتلة والمأجورين والمتلصصين والحفاة وأحزاب وطائفية مقيتة، بحيث انتشرت في مرافق الدولة كالجنادب، بذلك تجرد الشعب من الحكومة التي أوصلته لمرحلة الذل والهوان، فرأى في الاحتلال فرصة التخلص

من نظام أنهك قوامه وبدنه وعس نظره، أبتلاه في حروب كان في غنى عنها.

فلولا الحروب لما وصلنا لحالة الدرك، لولا حرب الشمال عام 1975 مع الأكراد لما تنازل صدام حسين عن جزء من شط العرب لإيران، ولولا تنازله عن ذاك الجزء ما بدأت حرب الثمان سنوات العجاف مع إيران، لولا حرب إيران ما تجاوزت الكويت على حدود العراق ليدخلها العراق مجبرا، ولولا دخوله الكويت ما فرض الحصار على الوطن، ولولا الحصار الجائر ما سقطت بغداد واحتلت من قبل الزنادقة، ولولا الاحتلال ما فسدت نفوس الناس وجارت على بعضها في حرب الطائفية راح ضحيتها عشرات الألوف من الأبرياء، حين وصل الحال أن يقتل البشر على أسمه، ولولا تلك الأحقاب البائسة والتخطيط الفردي الغير مجدي، ما ولدت هذه الرواية.

عجز دهاقنة الساسة عن صياغة خطاب يقنع الشعب أو يفض النزاع، فبقيت العقد تلتف حول عنق العراق، تُضيّق عليه أنفاسه، وتُغرقه في فوضى عارمة. تلك الفوضى فرشت ظلالها على بعض المحظوظين الذين لم تكن لهم روح المنافسة، فيما عصفت بالبقية إلى سلال المهملات.

بعض المساكين الذين تمكنوا من غرف قمع من البحر المبدى، لم تكن لهم نية التخريب، ولكن جرفتهم الفوضى لحدود العاصفة، زحفت عليهم مخرجات العقد، لطخت أقدامهم بمخلفات السيل، جرفتهم لمستنقع الفوضى والرذيلة، فأصابوا ما أصابت النفوس الامارة بالسوء من ما تبدى من خير الوطن.

دخلوا الأبواب المفتوحة، يشمّون ما فيها من شياطين أدمعت أعينهم وأزكمت أنوفهم، عسى أن يجدوا مسلّكًا ينتشلهم من جلد الفاقة.

فانغمست أناملهم في زبد الوليمة التي أعدها المشعوذين والصوص والمأجورين، تلك الطبخة كانت قد تقددت داخل تلك البنايات من قبل راعي الفوضى، فدخلوها قانعين مستأنسين بعد أن كانت تلك الأماكن محرمة عليهم قبل الاحتلال، ليستمتعوا بلقمة سائغة غفلت عنهم فيما مضى. فتلذذوا بملقعة من هنا وأخرى من هناك، حتى أتخموا بطونهم. لم تكن إرادتهم حاضرة، إنما وسوس لهم الشيطان، فتلاعب بمقدراتهم وحرك مستشعرات هواجسهم كتحريك الريح أوراق الشجر.... تحركت أياديهم مع ريح الفوضى اسوة بالمارقين، وانيثقت في أفكارهم رغبة تبعت مجريات الأحداث، فوجدوا ذواتهم تتخبط بتلك المعمة البليدة دون أن تكون لهم نية مسبقة. وجدوا الفرصة سانحة مع أحشاء الدوائر المستباحة في الشوارع لتلقف جزءا منها.

حال هؤلاء المساكين هو حال المعدم الضائع المنهك، لكن عزة النفس والكرامة والغيرة على الوطن فرضت عليهم أن يتجنبوا المراهنات بعد سقوط التمثال، تأملوا وضعا جديدا يجعلهم في مقدمة الركب، ليجهزوا على تلك الولائم الجاهزة، صمتهم وشعورهم بالمسؤولية وقلبهم الرهيف منعهم من تخطي حاجز العفة والشرف، حتى وجدوا الفوضى قد فاضت بهم، عصرت السموم في أقداح مشاربهم، وجدوا أنفسهم أشبه بالمضطرين لخوض غمار تلك التجربة مع المتصارعين على العظمة، فجاءت مشاركتهم متأخرة كبلسم يخفف آلام تجذرت وليوقفوا نزفا زاد الجراح عمقا.

ما في اليد من حيلة، النفس لوامة والفوضى عارمة، قذفت بالمساكين في وسط المعمة، بحيث في نهاية الأمر تمكنوا من الحصول على كرسي خشبي أو من الأستيل، أو فرشاة قديمة أخذوها يسترزقون بها، ليمسحوا بقيمتها جزء من غبار الحصار الذي لاك وجوههم وقوض ظهورهم وجفف عروقهم.

حيث أثاث تلك الدوائر أضحت بأيدي الناس بشكل مفاجئ دون تفكير مسبق بها، لم تكن تغنيهم أنما كانوا بحاجة لها لترميم ما خربه الحصار بوجه ذواتهم، وذاك لما للحيوات من قساوة أفردت العقد في مسارات طرقهم.... أنه أرث دولة غنية تناثرت أمام مسالكهم كأوراق شجر الخريف، في مقابل شعب منهك مقيد بالفاقة- المعادلة غير متكافئة، شتان ما بين الجنة والنار.. " هذا عَذْبُ فُرَاتٍ سَائِعٍ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ " صدق الله العظيم.....

هذه هي الشعرة التي قصمت ظهر البعير، لم تكن هناك علاقة وثيقة تربط المواطن بالقيادة! سوى خيط واه من الاعتراف المبني على الوجود، سرعان ما قطع بعث الأجني وسعير الفقر وناره.

هذه الهوة بين السلطة والشعب حفرتها الدولة ذاتها بأيديها، فأنتبه عليها العدو، فأستغل ثُلُمَهَا الداجنة، فدخل من خلالها إلى حوض الشعب كخيوط دخان، كشیطان عرف من أين تأكل الكتف.. الدولة كانت قد تناسست أو استغنت عن تلك الفجوات بسبب كثرة الثغرات والعقد المحيطة بها، لم تأخذ تلك الهوة بعين الاعتبار، ذلك ما جعل البون شاسع بينها وبين الشعب، ما دع المحتل يفتن لذلك الخل، فأقحم ذاته بمداعبة مزاجها وتحريك مستشعراتها عن أصل موضعها، مستغلا حجم الفاقة التي وصل إليها الشعب كجسر للعبور إليه، حتى جعل من العقد المبرمة بين الدولة والشعب أشواكا تدمي أنامل الدولة النائمة.....

كلما ودت الدولة إرخاء خيوط تلك العقد؛ التفت على عنقها، وذلك باستخدام الضغط المتناوب عليها، تارة تنال من الشعب، وتارة أخرى تخلخل أركان الدولة، فتقتت أسسها..

لم يكن قاسم سوى رجل بسيط، يعيش حياته بالكفاف معتمداً في رزقه على محل صغير لبيع باللات الألبسة المستعملة في قلب بغداد، تحديداً في ساحة الميدان قرب مقهى أم كلثوم الشهيرة. كانت علاقاته الاجتماعية محدودة، لا تتجاوز أفراد أسرته وبعض الجيران والمعارف المقربين، مثل أبو عادل جاره في منطقة البتاوين، وأبو عصام جاره في المحل، وزوج شقيقته العقيد صفاء (أبو عامر) المقيم في حي الأعظمية، بالإضافة إلى أهل زوجته في مدينة الثورة، وأخيه جاسم وأمه اللذين يقطنان في منطقة الفضل، وشلة صغيرة من الأصدقاء لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد.

قاسم هو الابن الأكبر في الأسرة، تليه شقيقته هدى التي تصغره بخمس سنوات، والتي تزوجت من الضابط صفاء، ثم يليها أخوها جاسم الذي يصغرها بخمس سنوات أخرى، - أي بين قاسم وجاسم عشرة سنوات من العمر والفكر والتزين والاطلاع والتحمل.

لم يحقق قاسم نجاحاً يُذكر في مرحلة شبابه، سوى عمله كأجير في مكتبة لبيع الكتب والقرطاسية في شارع المتنبي، قبل أن يتزوج ويفتح دكانه الخاص بمساعدة عمه والد زوجته. كانت أجوره اليومية بالكاد تكفي حاجاته، لكن الفرصة منحتة نافذة جديدة على العالم، فقرأ في المكتبة كتب التاريخ والدين والفلسفة، واطلع على روايات عالمية لتولستوي، فكتور هيغو، وديكنز، وارانست همنغواي كما نهل الأدب والفلسفة من أعمال ديكارت وسارتر وابن سينا، مما جعله يختلف جذرياً عن أخيه جاسم الذي انغمس في حياة الشارع، باحثاً عن غرائزه ولقمة العيش بأي وسيلة.

بعد وفاة والده، لم يرث قاسم من مخلفاته سوى الهم والشقاء والفاقة. اضطر للعمل في وظائف سطحية بسيطة، ساعدته على الاستمرار

لمواصلة دراسته حتى أنهى المرحلة الثانوية بشق الأنفس. عندها توقفت الحياة عند حدود جيبه الخاوي، فلم يتمكن من إكمال دراسته الجامعية بسبب تكاليفها الباهظة، في وقت كانت فيه أمه وأخوته بأمس الحاجة إلى جهوده اليومية لتجاوز أزمات الحياة المتقلبة، من حروب وفاقة وعجز وفقر وظلم وقسوة.

زواج هدى من الضابط صفاء أثناء حرب الخليج الأولى مع الجارة إيران خفف بعض العبء عن كاهله، فلم يبقَ على عاتقه سوى أمه الفنوعة وأخوه جاسم المتمرد والمجرد نفسه من المسؤولية والمنصهر في عقد الشارع بالكيفية التي يراها، ذلك الذي اختار الأعمال الحرة كمسرب لملاحقة عجزه المالي وغرائزه الجسدية، فعمل كنادل في المطاعم والمقاهي، كما عمل في البناء والصباغة، إلى أن أستقر كحمال أجير في سوق الشورجة المزدهم. في ثورة الشغب وجد نفسه متحرراً من القيود والالتزامات التي طالما أثقلت همه.

قبل أن تمضي سنتان من زواج أخته كان قد تزوج قاسم هو الآخر من فتاة طيبة المنبت من مدينة الثورة أسمها رقية، ليكون والدها سنداً له قبل وخلال فترة الحصار، شدة على أزره حتى تمكن من إسناده بما يملك ليقف على قدميه بين زحمة العيون وذلك بفتح محل بالات ألبسة مستعملة في منطقة الميدان مع بداية فترة الحصار من عام 1990، ليرتزق منه وليعين عائلته ووالدته بالممكن.

مع دخول المحتل الغاصب العراق، شاعت الصدفة أن تبتسم لقاسم دون غيره ليكون واحد من الذين شاعت الصدفة أن تنقله لمصاف المستفيدين من فوضى الحرب، في خضم تلك الفوضى التي اجتاحت الوطن وعفست على الأخضر واليابس. تلك العبثية التي ولدها الاحتلال بقصد السيطرة على البلد، كأنها غازلت حظ بعض

المتزمتين والمنهكين من أمثاله، فانعطفت الفرصة نحو قاسم دون أن يسعى إليه. لم يتعقب أثرها، بل هي من بحثت عنه وتعبته، فأدارت دفعة النعم نحوه.. فلم يصدق ذاته وهي تركب موجة التغيير، فاستغل الموقف بذكاء فطري وتماشى مع الظرف. تلك الفرصة التفت حوله كوشاح من نور، ارتدته، أضاءت وجهه بخير النعم، لم يكن ليحلم بها حتى في أحلامه.

في الوقت الذي كانت الفاقة تشتد على أبناء الشعب، انتشله الحظ من ظلمة العسر دون سابق إنذار، وكأن مارداً خرج له من حيث لا يحتسب، قال له: "شبيبك لبيك، أنا العبد بين يديك، اطلب ما تشاء." فوجد نفسه فجأة في واجهة التحدي مغادرا واقعه المزري، عندها بدأت ترسم على ملامحه السرور أشبه بالوردة المغشية بالظل، تزهو حياته بقطايف الازدهار، تلك الهالة أثارت في نفوس عذاله موجة من الحسد والغيط، بعدما سطا بروحه على مساحة ظنونهم، وخرق سقف التوقعات التي أوقعت بهم.

في سنوات الحصار، كان دخل محله ضئيلاً مقارنة بواقع السوق والمعيشة، لا يكاد يكفي قوت يومه، خاصة مع انهيار قيمة الدينار العراقي أمام الدولار. لم يكن يجني سوى ما يُعرف في لغة الشارع بـ "علاقة البيت"؛ أي مصروفه اليومي والذي بالكاد يسد ثقب الرمق. كانت بضاعته متواضعة، لا تجذب الزبائن، لانشغال الناس بتأمين لقمة العيش، فغابت الأرباح في جحور الفاقة، وتلاشت الآمال تحت شمس الظرف المحرقة.

رغم ذلك، ظل قاسم قنوعاً، يرضى بالقليل طالما كان حلالاً، يأنف من الاستجداء، ويترفع عن الحرام. لُقِّبَ أصدقائه بـ "الرجل الأبيض الفتوح"، لصفاء قلبه، وببياض شعره، وكياسته التي لم تلوثها الطمع والغيرة أو الحسد. كان يرتدي أطماراً قديمة تزيد وقاراً، لا يلبس جديداً إلا نادراً، متعففاً بما لديه، كأنَّ الفقر زاده هيبه و وقارا.

قاسم، في الحادية والأربعين من عمره، رجل حنطي اللون، متوسط الطول، نحيف البدن، الفاقة أكلت من عافيته حبات. يرتدي نظارات طبية، وتعلو رأسه صلعة نصفية تحفها ذوائب فضية، يخالطها سواد خفيف، فيبدو شعره رماديًا كالحشائش المتجلدة. فيما ملامحه توحى بعمر أكبر من عمره، بفعل التعب والشقاء المقرن به، حيث تحت محجر عينيه يسكن إرث من السهر والكّد المغشاة بالسواد.

لكن الأقدار شاءت أن تلطف بحاله مع بداية الفوضى، تلك الفوضى التي أطلقها المحتل، كانت قد شغلت الناس وأضحت ستارا عبثيا أرخى سدول الرحمة على بعض من لم يكن لهم يد في بعثرة العبث والسرقة أو النصب أو القتل. مع اشتداد الفوضى؛ جاءت الرياح بما تشتهي سفنه، دون تخطيط أو تدبير، فشمسته القسمة بنعمة التغيير.

الصدفة لعبت دورًا بارزًا، بزغت كورقة النصيب الراحلة في حياته، لترسم البهجة على وجه نسي طعم البسمة والفرح، بعد سنوات هزيمة من الظلم والقهر والدم المسفوك. لم يكن من اصحاب "الحواسم" ولا من عصابات النهب، بل كان من أولئك الذين عطف الرحمة عليهم بالصدفة المرادة، انتشلتهم من حندس الليل وعسعسته، ليعيشوا في ظل نعمة خفية، خلف ستار لا يراه إلا من تعامل معه بالشكل المباشر.

تلك الصدفة التي صنعتها الفوضى، أصبحت واقعًا في حياته، دحرجها الظرف ككرة في طريقه، حتى استقرت في حجره دون أن يسعى إليها. التقطها كقطعة مراوغة، تنط على حجر السكون فالتمعت صدفيتها بعينه، فابتسم لها دون أن يفكر بمحتواها، وكأنها كانت تنتظره منذ زمن لتبتسم له.

كانت الصدفة أشبه ببنت بتول، عذراء، سمراء، شابة، جذابة لحد الهوس، لم تخطر على بال أحد وهي مغشية في دربه، ولم يفكر بها

هو بذاته، ولم تكن ضمن حساباته، لكنها كانت قدره أو تمثل له قدره الضائع، لتتوس بين حدقات عينيه كي تعين صبره، فتدحرجت أمامه ليتعثر بها ولتتعثر به، فانفلجت أمامه صرة النعم... حينها أنبته لها، تبع أثرها، ثم التقطها قبل أن تلتقطه الظنون الخائبة. كأن زرا إلهيا أنتبذ أمامه فضغط عليه بسبابته، فتفتحت أمامه أبواب الفرج والسعد على مصراعيها، لتحتضنه تلك النعم دون غيره برحمتها ويحتضنها بانبهاره وسعاده.

هذه الصدفة التي تدحرجت أمامه ككرة الثلج، نقلته من واقع عسر لواقع يسر ومن صبر مزري لواقع آخر جذاب، مغري، متجدد، فيروزي، يتصف بالثناء والصفاء والرقى. الصدفة غيرت لون حياته ومستقبله الباهت للون براق بهيج، لقد تلون حظه بعكس ما تلون به حظ الوطن الملبد بسخام وسواد وسوء طالع. أنبرى ذلك بشكل واضح في واقعه المؤلم.... الصدفة كانت بمثابة مصباح علاء الدين السحري، ما أن تعثر بها حتى بان له المارد شاخصا بين يديه، ينتظر أوامره تملأ عليه...

هذه الصدفة ولدت من رحم السماء، من عمق الجفاء، مع طقطقة العلب الفارغة وصرير الريح العابثة بشوارع الوطن، فالتمست رحمتها نظرات عينيه الغضيبين، المنكسرين. باختيارها له هدأ فكره، خفت اضطرابات قلبه، جفت دموعه بعد أن أمن مستقبله في وسط المهاترات والمرافعات والمماحكات والتناقضات الدائرة في أرجاء الوطن، وذاك الشؤم البليد السائد في بغداد بعد أن تغير شكلها.

هذه الصدفة غازلته بقزحية عينيها الملونتين، ارتدت قميص حلمه الفضفاض، تقمصت حظه الذي ترنح بين ثنانيا الفقر والتبجح، برّجته بالبسمة الشفافة الخلقة، المعجونة بحمرة أزاهير الجُنانر الداكنة، ليكون ذا جاذبية تسر الناظرين، كفتى يافع بسن العشرين.

قدره المسير قاده في طريق سعيه، قدره الذي ألح عليه ليتدحرج أمامه بسلاسة، لينتشله من واقعه المزري، لقد لعبت الصدفة بمكعبات الذهن، هيأت له أحرف المستقبل، لتوافق معانيها مع لمعان صدفتها، في الوقت الذي به لم يكن يجرئ أن يحلم بالرفاهية إطلاقاً أمام الكارثة التي حلت بالبلد، لكنه منذ تلك اللحظة تبدل الحال، صار يخطط لحل أحجية لغزه بهدوء تام وراحة بال، صار يحلم بأحلام المرفهين والمغامرين والتجار.

لقد عاش حياته المنصرمة بهدوء تام دون أحلام، كان مسالماً، يكره الأفعال المججلة، الصاخبة التي يمارسها البعض جراء الأنانية والطمع المبالغ به.. أما بعد انصهاره بنتيجة الصدفة، تقبل الضجيج الذي دخل حياته من أوسع باب، بل صار يتسلى بذلك الضجيج ليبعد عن ذهنه مرافعات العجز والكسل، بات يدخل من مسامات الحلم للغز الحياة، بات يكتشف الميرة التي حرم منها بين طيات الرغبات.

كان عادلاً، لا يحب اللون القاتم الذي يتلون به البعض من ذوات النفوس الضعيفة، وخاصة أصحاب الطبقات المتسلطة الذين غالوا بطمعهم وبتعسفهم تجاه الشعب، فهرست أفعالهم أفكارهم المسمومة، لذا ظلت أعينهم تموج في دروب الشر، فلم تبصر إلا ما تحت القدم. لقد عاش قاسم في ظل تيار مضطرب يعاكس الاتجاه المتقلب الجديد، ضمن فلسفة البقاء نظيفاً بثوب ناصع البياض، ليبقى تنمازه مختلفاً عن زملائه وأنظار وحسابات الآخرين.

آلة الجز التي يستخدمها ضعاف النفوس لا تروق للسيد قاسم. أولئك الذين يعيشون كالبكتيريا العفنة على أجساد الآخرين، هم شرذمة أشاعت الفوضى والخوف والعدوانية في صفوف الطبقات الفقيرة والمهمشة، لا شيء؛ سوى لتوجيه سهامهم نحو الطبقات الثرية

المتحصنة خلف أسوار السلطة، بهدف ابتزازها ومص دمائها عنوة ليرتبك الباقون، لتمتد سلطاتهم نحو مستنقع المجتمع.

هؤلاء، في نظر قاسم، لا يختلفون عن بعوضة الأنوفيليس، يمتصون دماء الفقراء لترسيخ مواقفهم أمام الأغنياء والجبارة، يعتدون على الضعفاء لترهيب الأقوياء، في لعبة خبيثة مقرونة بالاستنزاف والضغط النفسي الجائر.

ولا تتقاطع هذه الشرذمة مع تلك الفئة المغيبة، فئة العمائم التي تستغل الدين كغطاء لتمرير غاياتها، ترتقي بخبث إلى منصات النفوذ دون أن تبذل جهداً مكافئاً من العلم أو الحكمة، غير عابئة بقيمة العمامة التي ترتديها، فتسيء للدين كما تسيء لرموزه، حتى بات الناس عاجزين عن التمييز بين النزيه المتدين الحقيقي والنصاب والسارق والمستغل للظرف، وسط هذا الخليط المتشابك.

الصدفة التي ساقها القدر أمام السيد قاسم، هي ذاتها التي جعلته يتعثر بها أمام دكانه. تلك الصدفة انتزعت صرة النعم من بين أيدي العصابات الغاشمة واللصوص الذين لا تعرف لهم جذور، الذين اقتحموا البنوك والوزارات والقصور، سرقوا ما طاب لهم من الأموال المكنزة والجواهر المكدسة، تلك العملات والدولارات المعبئة بأكياس خاصة تحافظ عليها، والأثاث الفاخر، والسجلات السرية والذهب... وكل ما كان يمثل أسرار الدولة وكنوزها.

هؤلاء الشرذمة العفنة الذين لا دين لهم سوى السرقة، الذين تهادوا في غيهم حتى أدخلتهم الفوضى في نفق المنافسة فيما بينهم. كانت لحظة طيش ما تلك التي جزلتهم عن أهدافهم، عندها فتحو أبواب التنافس فيما بينهم وبين أفراد عصابات أخرى متنافسة، ليتسلقوا جدران الخيبة دون أن يدركوا، هؤلاء كانت دوافعهم أصدق من نياتهم، غير أن استسلموا لنفوسهم الأمارة بالسوء... هؤلاء تعقبتهم

الصدفة، بل ترصدهم الحظ، فسرق من جعبهم شيء بسيط مما لم ينتبهوا عليه، ليكون من نصيب قاسم فيما بعد.. كانت الأحداث قد اجتمعت في ذلك اليوم الذي ذهب به قاسم إلى دكانه ليتفقد من السرقة. عندها ابتسم حظ قاسم، لا لأنه خطط أو تأمر، بل لأنه كان في المكان الصح وفي الوقت الصح الذي شاءت فيه الأقدار أن تمنحه ما لم يكن يتوقعه.

هؤلاء الذين توجسوا من المواجهة مع غرمائهم نتيجة أعمالهم الخبيثة، كانوا قد هربوا من دائرة الصراع نتيجة الملاحقة النفسية والكيدية المثارة بين تلك المجموعات المتنافسة على السرقة، بعد أن استولوا على جزء من الهبرة الدسمة، ليفلتوا بما وقعت عليه أياديهم النتننة من المكان الموبوء، هربوا ليتجنبوا الخسارة وليحتفظوا بالنزعة الدائرة في داخل ذواتهم المهزوزة قدر الامكان. ذلك الحرص الزائد لم يحفظ لهم قدرهم، ونتيجة السرعة في الهرب والخوف الكامن في نفوسهم من أن يفسدوا عليهم ما سرقوا، سقط منهم جزءا من الغنيمة في نقطة التقاء الحظ بالصدفة، أمام دكان قاسم المعزول.

نتيجة للعنف المستعر، والمتوقع، والمقترن بعمليات السرقة التي تنفذها مجموعات تنافسية، أو خوفاً من التصادم مع فرق المارينز التي تجوب الشوارع بلا رادع، وفي ظل العبثية التي تحكم سرعة الإنجاز والفرار بما غنموا من غنائم الصراع، كانت المجموعات تعيش حالة من الجزع والفرع، مرتعبة من وقع مفاجآت الطرق المربكة، ومن مواجهات غير محسومة قد تقلب الطاولة عليهم في لحظة غفلة، وتودي بأرواحهم وبما يحملونه من كنوز على يد المنافسين الشرسين أو على يد عصابات استقرازية تقطع الطرق بمفارز وهمية تجهز عليهم وتنهب كل ما غنموا.

في خضم هذه الفوضى، وتحت وطأة التوقعات المربكة، والعجلة التي أربكتهم، لم يتمكنوا من إحكام ضبط الأكياس والأكداش المسروقة في عجلتهم. فالفوضى الداخلية انعكست على الخارج، وشلت قدرتهم على التركيز، حتى فاض الخوف بأذهانهم من ضياع الكنز بلحظة غفلة، فأزاح جزءاً من المسروقات خارج الصحن، قبل أن يحتدم الصدام مع أصحاب الأواني المستطرقة، هؤلاء المختبئين في مزاغل الأزقة ومنافذ الطرق الفرعية، وفي مفاوز السيطرات الوهمية.

وبسبب تلك العجلة والارتباك الذي أنهكهم، وسلبهم القدرة على التركيز والتقدير السليم، سقط أحد أكياس الدولارات أمام دكان السيد قاسم دون أن ينتبهوا. وإن علموا، فلن يجروا على العودة إليه، فثقل ما يحملون كان أكبر بكثير مما سقط، خوفهم من خسارة كل شيء في مواجهة غير متكافئة، دفعهم للمضي قدماً دون أن ينظروا للخلف. وكان ما حملوه من غنائم أضعاف ما فقدوه، لذلك تجاهلوا ما سقط منهم ومضوا في طريقهم. وربما لم ينتبهوا لما سقط، فمرت الفقرة دون أن تجذب الأنظار والتعليق عليها.

كان ذلك مساء يوم 11 نيسان 2003، بعد ساعات معدودة من سقوط بغداد في قبضة الاحتلال، وبعد نهب البنك المركزي في شارع الرشيد من قبل الأمريكان. في تلك اللحظات، كانت المدينة تعيش حالة من الرعب والوجس. الناس لا تجرؤ على الخروج أو المجازفة بحياتها، فالأمان مفقود رغم سيطرة المحتل على بعض النقاط، وأصوات إطلاق النار لم تنقطع بين المقاومين والمحتلين والمهالين للفوضى.

تلك الأجواء كسرت الثقة، وأضعفت الإحساس بالأمان، فصار شبح الموت يزحف بهدوء على الأماكن العامة، متخفياً بين الطرق والأزقة والأرصفة، في مشهد عبثي لا يُحتمل. وهكذا بقي الكيس

مموهًا، مدفونًا بين أكوام متاريس المقاومة والنفايات التي انتشرت في شوارع بغداد، نتيجة تحصن المقاومين بها، وتوقف أعمال البلدية لها خلال الحرب وما قبلها.

كان كيس الدولارات في مأمن عن أعين اللصوص، لم يجلب الانتباه ولا الإمعان له، لجلجلة الخوف والرعب المنتشرة في قلوب الناس، ذلك الوهم صار غطاء واق له، كفه عن الأعين المتلصصة. بصمة آثار الحرب كانت واضحة للعيان على شوارع بغداد وأماكنها العامة، صدت نفوس الناس وأفكارهم عن الحركة والمجازفة، لاستحالة ذلك التوقع الخيالي.... ثم إن شكل كيس الدولارات لا يختلف كثيرًا عن شكل أكדاس المتاريس المبعثرة في الشوارع وعلى الأرصفة بشيء، لذا موهت صورته بظل تلك الأكداس، أضحت غطاء إضافيًا له، إضافة لأكوام الزبل والكارتونيات وأكياس النايلون المتطايرة وقوارير المياه المعدنية والغازية الفارغة المبعثرة في الطرق والتي امتلأت بها الشوارع بعد أن عجزت البلدية من ممارسة عملها جراء اشتداد القتال..

كل ذلك موه شكل كيس الدولارات بين أكداس المقاومة المبعثرة.

٤٤٤٤٤٤٤٤

في يوم 4/11 وبعد أن شاعت الفوضى وأخبار السرقات عبر الإذاعات ووكالات الأنباء وشاشات التلفزة الفضائية عبر الأقمار الصناعية من سرقة البنوك والمتاجر الغنية والوزارات ودوائر الدولة التي باتت أثاثها تزحف في الطرق؛ هجس السيد قاسم بخيفة على مصدر رزقه الوحيد - دكان البالات- بقي يعيش حالة قلق في ظل تفكير مشؤوم قابل لكل الاحتمالات الممكنة والمتوقعة. فالفقير ليس لديه ما يعتمد عليه غير دكة يتكى عليها، وتلك الدكة هي محل البالات.

شغل باله محله ومصدر رزقه، خوفا من احتمال تعرضه للسرقة والعبث على وقع طقطقة الفوضى التي صار يسمع صوتها في كل مكان، مع دخول شلة اللصوص والوجوه الغريبة التي غزت بغداد كالجراد، قادمة عبر الحدود المفتوحة من قبل دول الجوار.

لذا قلقه صار يغزل الفكرة في فكره، والذي من خلاله شط ضميره خارج توقعات التفاؤل، تلك الأوضاع ضيقت عليه مسار الأمان، لذا فكر في زيارة محله على الرغم من أنه لا يحتوي سوى بالات ملابس مستعملة لا قيمة لها. لكنها كانت كل شيء بالنسبة له. حيث غايات الناس لا تُدرك وخاصة مع تلك الشلة التي زجت بها الدول المجاورة لتفعيل الفوضى واستغلال الفرص المتاحة لفض حقدّها وغلها في الوسط العراقي، في ظل حماية المحتل لتلك الفوضى من أجل تسهيل عملية السيطرة على منافذ الدولة. مجموعات غريبة خرقت المألوف، لبدت في بغداد لخدمة ذاتها والمحتل، عبث بصدفية المجتمع وبأي شيء يصادفها من أجل أدامة بقائها.

قلق قاسم هذا نابع من أنّ أصل ماله مال حلال، وهو الينبوع الوحيد الذي يستسقى منه، فلا بد من الاطمئنان عليه قبل أن يجف على أيدي المارقين به. الفقير لا يملك كنز قارون ليتغاضى عن أسمال معروضة في دكانه. لذا نازعه الشك في نفسه، ربما الله فتن ظنه وألهمه وشرّع قلقته، فأودع الوجل كشوكة تغز قلبه وفكره.

أخذ تفكيره المشؤوم يسيطر عليه، بات يشحذ همته ويدفع به نحو تخطي القلق دون جدوى، هناك شيء في داخله لا يستقر، كفارة الكومبيوتر تحثه على السعي والاستطلاع عن مصدر رزقه، تدفعه لعمل شيء يوازي تلك الفوضى ليتطمأن على غده، لا بد له من أن يتحرك خطوة للأمام، لا بد من أن يتحرى سلامة مصدر رزقه من أيادي العابثين الغاشمة، تلك التي لا تعرف صيغ الرحمة، فهي معدة سلفا لجز الرقاب ونهب الهباب وما يقع تحت اليد وما فوق

السحاب، سواء كان الشخص فقيراً أم غنيا خلف الأسوار أو قناط تحت القباب.

قد تطل الأيادي الأثمة محله... صار يردد تلك العبارة مع نفسه في ظل شك لا مهرب منه، وبالتالي يفقد مصدر رزقه الوحيد، فيضيع في متاهات المشقة والتفكير السلبي.

ذلك النصيب الذي تحمل أزره طوال سنين الحصار الجائرة، ذلك العصب الذي رفده بالممكن والذي أعتمد عليه كوسيلة قبول فيما سبق في مجارة متطلبات الحياة دون أن يعرج، لا بد من مراعاة نبعه، فأن جف نعيمه جفت فرص المستقبل.

ذلك ما دعاه أن يجازف في صبيحة يوم 12 / 4 / 2003 من أن يعجل في أمر تفقد محله وتقضي سلامته، ليتطمأن على ديمومة رزقه ولينام قرير عين، وسط تلك المعمة الدائرة في أجواء بغداد والتي حتما سيطول أمد بقائها وعقدها..

جازف رغم خطورة الطرق. الخوف من المجهول رافق ظله في دأبه، في ذهابه وإيابه، قد يصاب بمكروه دون أن يفكر به أحد، قد يقتل في منتصف الطريق قبل أن يصل مبتغاه. كثرة المفاجآت تولد احتمالية القدر، والمفاجئات لم تعد مفاجئات، بل أضحت واقع حال، لكثرتها باتت لا تُعد ولا تُحصى في مثل تلك الظروف المتجددة والمتقلبة، ربما يسفك دمه ويذهب سدى في مهب الريح.

الداخلون للبلد مع المحتل كثر، تشعر بأشكالهم غير مألوفة، غريبة، تلفهم الغرابة في اللبس وفي تقاسيم الوجه، تغلفهم شكوك في النظرة والسلوك والتصرف. غرابة في كل شيء، في الغاية والنية... تشعر بهم كأنهم أدوات مبرمجة كالإنسان الآلي، يتحركون بريموت كونترول عن بعد وتوجيه مبرمج من قبل المحتل أو من خارج الحدود، تابعون لقوى مجهولة متنفذة تتحكم بمقدرات البلد...

وجوه كالحة لا تدل على أنهم عراقيون مطلقا، ملامحها مختلفة،
تمتاز بالدجل والخبت، تتصف بالوحشية والأجرام، مدربة، متهينة
لاقتناص اهداف مرسومة لهم، لن يترددوا في قنص من يعترض
طرقهم أو من يصادفهم في طرقهم.. لأنهم أدوات دون أحاسيس،
يهجسون بالخطر يحيط بهم، يهدد كيانه، وهم يدركون جيدا ركاكة
تواجههم في بقعة محرمة عليهم، كونهم دخلاء على وسط مجهول
بالنسبة لهم.

هؤلاء يبحثون عن الفرص المتاحة لانتهازها، يبحثون عن اللحمة،
عن المصلحة الذاتية الصرفة، مستندين في تحركاتهم على قوة
سلاحهم وعلى القوى المجهولة التي تسندهم وتحميهم. لذا يجب أن
يتوقع الشخص المارق في الشوارع من أن هناك من يود أن يجرب
سلاحه به أو بأي عارض يصادفه وسط تلك الفوضى، قد يكون من
باب المتعة أو من باب الحق والانتقام. قد يكون من باب الخوف
والحذر والتجربة، قد يكون السيد قاسم هو العارض المناسب
لهؤلاء الحاقدين والمنافقين، هدف سهل المنال لأي معنوه يتعثر
بحظه، أصبح الميدان غابة لا تأمين أفاقه - ناهيك عن مقاومة
ضارية نامية من قبل أعضاء حزب البعث والوطنيين ممن
يرفضون شكل الاحتلال.

تلك المقاومة لم تهدأ قط، هؤلاء الذين خسروا كل شيء بيوم وليلة،
خسروا السلطة والجاه والكرامة والشرف والوطن، لم يبق أمامهم
سوى المقاومة التي شهدت على وجودهم. هؤلاء يعلمون بأن
الموت يلاحقهم في أعماق تفكيرهم وفي بيوتاتهم من قبل قوات
المارينز وفرق المليشيا والأحزاب المستحدثة المؤيدة للاحتلال،
وذلك لفرض تواجدها على الساحة. لذا وجدوا في المقاومة مسلك
لأثبتات هوياتهم وأنفسهم حفاظا على ماء الوجه أمام الهزيمة والذل
والهوان الملحق بهم.

ذهب قاسم لكانه باكرا بوجه صاحب أسيان دون أن يبالي بالخطر المحيط به، على الرغم من أنه يدرك ذلك البجع يتجول في الطرق، فالخطر قد يأتيه بغتة، حتما سيجرده حياته، يجرده تفكيره وصيرورته، ربما يتعثر به صدفة دون تخطيط مسبق عبر الإطلاقات الطائشة النافرة في الأجواء، تلك التي تدور كأسراب العصافير الهاربة. ربما يتعرض لمداهمة ما من قبل العصابات الدائرة في الشوارع، تلك المرتعبة والخائفة من ظلها.

تلك المفاجئات تولد من لا شيء، قد تحط هنا وهناك دون تخطيط، تتبع السكون السائد لتتفلق كفرقة في الوسط الذي يطرده. حيث لأزيز الإطلاقات الدائرة في الاجواء وقع على النفوس الضعيفة، لذا تكون تلك النفوس غير مهيئة لتحمل هزيم ضعفها، وقد تكون إطلاقات طائشة ترمي بفألها في مسالك حظ المساكين كيفما القدر يشاء... ففي العراق أصبح الموت سلعة رخيصة الثمن، الكل ممكن أن يعثر عليه أو يتاجر به، وخاصة من يخونه حظه وضميره أو العايب في الطرقات، صار يوزع بعشوائية على الناس كحصص التموين، تغص به الشوارع والأزقة والمنازل، أو تمطر به عقاب العدو من السماء لتزيد الوضع نكالا وبؤسا بين صفوف الشعب.

رغم المخاطر من حوله فلم يبالي، لقد ركب مركب القدر وقرر المجازفة، هم بالذهاب لكانه ليتطمأن على سلامته وسلامة بضاعته من السرقة وسلامة رزقه في توالي الأيام... الإنسان يفتقد الأمان إذا ما أخطرت حياته الفاقة، الحياة تحتاج لمساند وثيرة يتكأ عليها في نهاية العمر، سواء كانت تلك من صنيعه أو من صنيع القدر، المهم أن يجد وسادة فراء يضع رأسه عليها لتتجمل أحلامه..

في الظروف المتقلبة وخاصة إذا ما كانت مبطنة بالفوضى؛ يكون لا بد من وجود القلق في حياة الفرد، حتى لو حصن ذاته بقلاع مشيدة.. حينها كان قاسم رجلا مؤمنا بالله وبكتابه، قارئ لما يدور

حوله " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون " صدق الله العظيم... لذا كان قد توكل على الله، همّ بالذهاب لتفقد محله، تحت وقع الحرص والخوف من المفاجئات...

الوضع الجديد شغل باله وفكره بأمور جمة، خاصة وعامة، حيث وجد الوطن ينحدر نحو واطئة الهاوية دون أن يجد من يسنده أو من يشد أزره، وبالتالي حالة الوضع العام الاقتصادي المنهك سينهكه أكثر وأكثر تحت غلغلة اللصوص وافتقاده القيادة والأمان في ظل نزف حاصل في جسد الوطن مع فقس بيوض اللصوص والخونة. أضحت نظراته للمستقبل نظرة بائسة، وهو المهووس باستتباب الأمان وسعة الرزق. العين مرهقة كأنها افتقدت قدرتها على التمييز بين الصواب والخطأ، تعطلت مستشعراتها، غطت بوشاح الحزن، لا تأبى أن تخلد للنوم وتلك الأحداث تبتهج بنشر النار هنا وهناك وعلى مساحة الوطن. ترى متى ستنتهي مسرحية الاحتلال، وكيف ستكون النتائج. ذاك ما كان يقلقه، وهو يعلم كل الذين خانوا الوطن لو دقت بأنسابهم ستجلدهم لا ينتمون للوطن بصلة.

الظرف المجن جعله يشعر بذاته المتعبة كمكينة الحصاد؛ تحش صفوة العمر وتشد عناء الزمن، لا يجد من الظرف سوى زوان خوف يتراكم في دروبه كبيادر قلق... الظن الذي أرشده إلى التحري عن حالة دكانه، مرق في ذهنه كسهم صياد أخطأ هدفه، نبهه على ما يحيط به من ظرف كالح أجرد، حرَّ ساقيه بالوجع، لا بد من وقفة قصاد الحالة ليتماسك صبره، لينقذ ذاته من هوام الغروب الممتد بكل الاتجاهات، والتي تجزل عنه الأمان، عسى أن يؤمن له ولعائلته صيغ حياة مقبولة، كأن تلك الإرهاصات المشاعة في ذهنه ركبت مركب فكره، صارت له الدليل ليتجاوز بها عاقبة الزمن.

هكذا تدحرج مع الريح ككرة تبين يذر صدى خوفه وهوسه في مسرى الطريق، ينثر وجله وهوانه في خط سيره، تشهد عليه سيقانه المرتجفة، ولكن لا بد من المجازفة، وهو يعلم بأن مقولة فاز باللذات من كان جسورا ليس شعارا، بل هي واقع حال كل المغامرين في الحياة.. إذا كان لا بد من أن يتحرك قبل أن تفترسه الوحوش، قبل أن يعريه الزمن من مخزونه، لا بد من شاخص يعينه على الصمود. الوقت بات شرسا، يسحق كل مَنْ يتأبط الكسل، كل مَنْ يتباطأ أو يخذل عزمه. مضى دون أن يلتفت للخلف، دون أن يعير أهمية للظن السيء، ولا لعلكة الوجل الملتصقة بكعب حذائه.

الظن بالناس يُقرن بسلوك النظام، وبقوة السلطة الحاكمة، وبالعدالة النافذة، ذلك ما أفتقده البلد منذ أن شرعت حقب الدكتاتورية فرض نفسها على الشعب بعد أن كرس النظام الظروف لخدمة نفسه والكرسي على حساب تطور الشعب، فالنتائج على أرض الواقع لا تبشر بالخير، العناوين المطروحة على ساحة السياسية مأساوية، البعض يتفوه بأحكام نيابة عن أسياده، الحياة قيدت بسلاسل الظرف الشائك بعد أن تقلصت الفرص أمام الشباب في مجارة الحياة المتقلبة؛ ومع ذلك لا بد الحياة أن تستمر، فلا مناص من التجرد وتجريد الذات من المسؤولية..... لا بد أن تستمر وفق نظام الشخص بعد أن أفل نور نظام الحكم. لا بد أن تتجدد في عين الفرد بصيغ جديدة توائم جدلية الحالة بعد أن أسدل الستار على شرعية حكم النظام السابق. ها هي نوافذ المجتمع أضحت مفلجة، تكسر زجاجها بفعل القسوة المباحة، وعسى أن يخرج من هذا المعمة والقمقم الذي ادخل نفسه فيه سالما معافى.

الحياة غدت تطفوا في عيون الناس بأشكال مختلفة، كبالونات سوداء وحمراء وصفراء وقلّة من الناس من يراها خضراء وبيضاء، كل يرسم أفاقها وفق تصوراته ومبتغاه وبعده وقربه من

السلطة، لذا كان لابد من شحذها بطاقة جديدة، حافزة، لتستعيد نضارتها... هذه الصبغة الغير مرغوب بها للبعض وربما ستبقى جاثمة في عيون المساكين لأجل طويل الأمد، ستأخذ مداها قبل أن يبهت طلائها بفعل الزمن، قبل أن تعود الأوضاع لسابق عهدها، ناعمة، كريمة، معطرة بالطيب وبياض النية وعشق الوطن.

لن تكون للحياة مذاق تستشعر به الناس، ولا رائحة تنتشي بها الأنوف قبل أن تعود (شكعة، وريم، وسعدة) للطرق يفترشن بضاعتهم من القيمر والروبة (الخاثر) والزبدة دون اعتداء خارجي عليهم، دون خوف ووجل من اللصوص والمارقين، دون اختطاف وسرقة واعتداء جسدي وجنسي عليهن من قبل الوجوه الغريبة...

لن تكون للحياة نبض قبل أن تعود المرأة لسابق عهدها تجوب الطرقات والوظائف بوجه مكشوف دون المساس بمشاعرها وأمنها وجسدها. قبل أن يئم الحاج رشيد، وحسين هادي، ومصطفى بزاز، وصبري من ترك دكاكينهم مفتوحة على مصاريحها دون رقيب، لحظة توجههم للمسجد لإداء فريضة الصلاة.

ما أفسده الدهر لن يعود كما كان إلا بتكاتف المجتمع، فسواد العبث طال جميع مرافق الدولة ونال قسطا كبيرا من الحياة، بما في ذلك المرافق الصحية من المستشفيات والصيدليات والمستوصفات ودوائر النفوس والتجانيذ والوزارات و... الخ، بذلك شلت أقدام الدولة على الحركة عن بكرة أبيها.

المجموعات التي دخلت العراق برفقة القوات المحتلة أو بالتزامن مع دخولها، حشت كل شيء من أجل بقائها، دخلت كلصوص وجواسيس وميليشيا مدججة بأنواع الأسلحة الفتاكة. جاءت برغبة جلية أو مدفونة أو مدفوعة من قبل قوى خارجية أو مسندة من قبل

المحتل وغيره، كلفت بالتخريب والانتقام وجز رأس كل من كان له علاقة بالنظام السابق أو له باع في مجالات العلم والسياسة والثقافة.

عبثت تلك الشرذمة بشرايين الوطن إلى جانب عبث المحتل بأوردها، هم الذين زرعوا بذرة الفوضى في وسط الشعب، ثم ركبوا على منتهى. جاءوا بأيديولوجيات مختلفة لتقسيم الشعب، إضافة لما فيه من عقد من قوميات وطوائف وأديان ومصالح، كل لها ثقلها وثقافتها ومبادئها وكياناتها، كل يود أن يتسلق المناصب المباحة على حساب الآخر.

هذا الخليط الغير متجانس، يصعب التوفيق بينها على هدف يتراءى للجميع كنجمة في عمق السماء، لما للبعض من خوف مسبق من الكيانات الأخرى نتيجة ظلم لاحها مسبقا، مع احتمال أن يتجدد ذلك الظلم من قبل الأطراف المتنافسة على الكرسي وبأسلوب جديد. مثلما همش ذلك الكيان في السابق، قد يهمش مرة أخرى بخبث تطرف السلطة..... لذا البعض من هذه الاطراف والطوائف هيأت لذاتها ميليشيا لتستند عليها وتعيد أحزابها وكياناتها، رُجتها في الوسط مع دخول المحتل..

ضمن تلك المعمة فكر السيد قاسم المنشئت ذهنه، مثلما طال القلق فكر زوجته رقية بما ستؤول إليه الأقدار بشأن الوطن والمصير بشأن الدكان والبضاعة من البالات التي لا يملكون غيرها كمصدر رزق لهم كما أشرنا مسبقا.

هذا القلق دفعه لأخذ خطوة المجازفة والإصرار بالذهاب إلى الدكان من أجل الاطمئنان على سلامته تحت دراية وقلق زوجته عليه.

خرج قاسم من بيته المتواضع في منطقة البتاوين، ذلك الوكر الذي يشبه كوخًا مهترئًا، مع أولى خيوط الفجر ليوم 12 نيسان 2003، متأبطًا ظنه وعزيمته، في وقفة يكسوها قلق ظاهر على ملامحه وأطرافه المرتجفة. كان القلق ينهش تفكيره، يثقل خطاه، ويعكر رجاءه، فسلك الطرق الملتوية والأزقة الضيقة التي تشتهر بها بغداد القديمة، متجنبًا الشوارع العامة المفتوحة، تلك التي تجوبها عصابات ومفارز بلباس مدني وعسكري تتحكم بأمور البلد، والتي لا تميز بين بريء ومذنب، فالكل في نظرها هدف محتمل ضمن قاعدة فوضى لا تعترف بعقيدة أو منطق.

رغم أن المسافة بين بيته ودكانه لا تتجاوز أربعة كيلومترات، إلا أن الطريق كان محفوفًا بالمخاطر، مرهقًا للبدن والروح. وبعد معاناة الطريق، وصل قاسم إلى منطقة الميدان حيث يقع دكانه. ما إن وطئت قدماه المكان حتى استوقفه مشهد القمامة المنثورة في الطرقات، مخلفات متاريس جيش النظام دفاعًا عن الرئيس، وقوارير المياه والمشروبات الغازية المرمية على جانبي الأرصفة. كانت بغداد التي تغنى بها الشعراء، والتي أحبها كل من رآها أو سمع بأسمها، لا تشبه ذاتها؛ تحولت إلى أطلال خاوية حزينة، تكسوها الخراب وتغلفها الحسرة.

وبينما كان يسير نحو دكانه، محاطًا بتلك المناظر الكئيبة، لفت انتباهه كيس مطروح قرب المحل، بدا غريبًا في هيئته، نظيفًا على غير عادة أكياس المتاريس الدفاعية الملطخة بالأتربة، ومختلفًا في خيوطه وحجمه وتصميمه، عليه ختم لا يشبه ما اعتادت عليه عينيه.....

اقترب منه بحذر، شك في أن يكون لغماً أو شركاً..... لكن الكيس كان محكم الإغلاق بقيد فولاذي، يبدو أنه يحتوي شيئاً مختلفاً غير التراب أو المعدن.

تغلب على توجسه، فك القيد بحذر، ما إن أفلج فوهته حتى صدم، ما أن فتح الكيس حتى ارتسمت على وجهه ابتسامة ذهول وتعجب، انفرج فاهه لشدة المفاجأة والصدمة، غير مصدق عينيه... لقد كان الكيس معبأً بحزم من الدولارات! نعم، مملوء بالدولارات المرصوصة بعناية، مضبة بحزم وخيوط ذهبية، مربوطة، محكمة كشدة مُعدّة للنقل، مرتبة ومسللة الأرقام والتنظيم.

تلفت يمينا ويسارا، لا أحد من البشر في الشارع الخالي يترصده، أنه خال تماما حتى من الطيور والقطط، في ذلك الصباح المربك. كأنما الحرب قضت على صيغة الحياة في بغداد قاطبة، وعلى كل شيء حي وجميل يكحل عينيه....

ودون أن ينتظر طويلا الهمة إحساسه بفتح كبنك دكانه (باب الدكان) ومن ثم سحب الكيس وادرجه في محله.. ثم أعاد غلق كبنك دكانه بأقفاله الفولاذية المتينة، ثم عاد أدراجه ينحدر للبيت بسيقان مرتبكة، بعجالة غير طبيعية، مبتعدا قدر الإمكان عن المكان المشبوه دون أن يراه أحدا أو يلتقي بأحد في طريقه.

إذا اطمأن على دكانه سليما معافى مثلما اطمأن على مستقبله يتفصح في بقية عمره، والذي كان غافيا في وكر الصدفة عبر تلك اللحظة. لقد وجد الرحمة تطرق بابيه دون إذن، بعد أن لمست الرحمة جمره قلقه، افأقت حرارة حرصه على حاله، أوقدت نار صبره، فزجت به في وهج الحيرة، ثم زخت عليه من سحبها ماء باردا، غسلت به كدره وقدره، ليكون انسانا مختلفا عما كان سابقا، أنها العناية الالهية..

كانت الناس لازالت مصدومة، مصدوعة مما حل بالعراق، مرتعدة في مكنها، لا تجرأ أن تخرج إلا لأمر طارئ وملح، لضرورة قصوى، حيث في الشوارع تتساوى حصص الموت والحياة، ثم أن معظم أهل بغداد كانوا قد هجروها قبل نشوب الحرب بأسابيع؛ خوفا على حياتهم من القصف الصاروخي وقاذفات الطائرات، خوفا أن تصيب بيوتاتهم وهم محتمون تحت سقوفها، فلم يبق فيها سوى هؤلاء الذين تقطعت بهم السبل من العجزة والمساكين والفقراء والذين لا حوله لهم وقوة الا بالله.

عاد للدار مسرعا والارباك يشحذ قدميه، عاد وهو غير مصدق لما آل إليه قدره، ونفسه المشتتة تخفق بين الحلال والحرام، بين العفة والانحلال، هجس بذاته كأنه ألتيس في فخ الظرف، ود أن ينسلت من قيده قبل أن تعثر عليه الفئة الباغية صاحبة الشأن، تلك التي افترقت كيس الدولارات، كي لا يصطدم بها، شعر بأن يديه قد تلطخت بفعل آثم، مخل، كأنه قد أشرت في ذبح الوطن دون أن يرمي حجرا عليه...

صار يمشي ويتلفت خلفه، تكاد خطوات قدميه تأكل الطريق لسرعتها، أصبح يرتطم الساق بالساق، مبتعدا عن موقع الحدث قدر الإمكان، كي لا يشتبه به أحدا من الذين يجوبون الطرق خلف النية والغاية، أو إذا ما فطنت على ما افترقت من كنز. قد تعود أدرجها ثانية تبحث عنه، تبحث عن ما فقدته من النصيب المستولى عليه، قد تشك به إذا ما لمحتة مدججا بارتبأك.

شت ظنه وشغل فكره وسواسه، صار يشتبه في خياله وكأن هناك فعلا شبح ما يتبعه، لذا أضحى يسرع في خطواته ليمسك بطرف رصيف النجاة...

صار يسأل نفسه ويرد عليها:.....

- يا ترى: هل رأني شخص ما وأنا أجر الكنز لداخل المحل؟
هل هو رزق حلال أم هو أثم وحرام؟...

صار يحاسب ظنه ويدقق في نتاج فكره، كأنَّ هناك من يقلقه دون أن يعلم بأنَّ الأنا وهاجسه المرتعب يتبعانه، يكمدانه، كسلطان حق وعدالة يحاسبانه. ربما ارتبأكه يفضحه إذا ما صادف فئة اللصوص، حيث هاجس الضمير صار يغلي في أحشائه كبركان، نتيجة صفة القلق التي أصابته بنزف ممزوج بالغبطة والفرح وتأنيب الضمير...

صار يشحذ ذاته، يزيد من سرعته وطول خطواته، المسافة تكاد لا تنتهي تحت قدميه، كأنها طالَت عن حدها المعتاد. صار يكلم نفسه ويوسوس لها كشیطان يرهق ذاته طوال الطريق خلال عودته للبيت...

- رباه أعني على الصبر، هدي من روعي، هذا هو نصيبي مما اقترفت الأيادي الأثمة المجرمة، أكيد أنهم سرقوا البنوك وقد تبعهم الحظ والنصيب، ثم باغتهم على حين غفلة، ليفرز نصيبي مما جنت أياديهم، البخت قال كلمته مما اقترفت أياديهم الأثمة.

يجب أن أختفي عن الانظار ومن منطقة الخطر بأقصى سرعة قبل أن يعودوا أدراجهم بحثاً عما افتقدوه، ومن ثم يعثروا عليَّ متلبساً بارتبائي، يجب أن أنزوي بين الأزقة قبل أن يجدوني أتخور في الطرق الخالية. أكيد ستنصب شكوكهم على شخصي.. إذا ما التقت أعينهم بعيني، حتما سيتعرفوا عليَّ من النظرة الأولى؛ حينها لن أستطيع أن أقاوم شزر غلهم وانتقامهم، سأنفض صرة الاسرار في جعبهم، حينها لن يرحموا حالي إطلاقاً، فالجرم يسري في عروقهم الفاسدة كالدماء.

يسكت لحظة ويعود بخشفة هواجسه وهلوسة ذاته، ثم يهدأ لحظات، ثم يدمدم مع نفسه مرددا:....

- ترى هل هذا هو رزق أم رزء، أم ضرر أم نكاية؟ أكيد أنه رزق سقط سهوا في لحظة غفلة من عجلة اللصوص وهي مارقة من أمام الدكان، هؤلاء الذين أفرغوا البنوك من أحشائها ومحتوياتها. وقد شاء الحظ أن يترصد خبث المجرمين، أن يجلس من غفوته، أن يتلصص على هؤلاء السُّراق كي يستلَب النصيب من بين أيديهم عنوة ويرميهِ قبالة دكاني. أكيد بعد ذلك وسوس الشيطان لي، حيث شحذ عزمي ودلني على فعلته....

لا لا أبدا لم تكن وسوسة شيطان، أنها وسوسة الرحمن. بعد أن غر الشيطان ذواتهم الطامعة؛ أيقظ الرحمن الحظ في ذاتي الرضية، ثم سخر لي فكرة التحري عن ما اصاب قلبي وعقلي من قلق...

ربما صحى الحظ من سباته بعد أن ملّ سكرة الغفوة وطول سباته، حينها لا عبهم بخبث أفعالهم، شاكسهم بقبح نياتهم قبل أن يفروا من دائرة الجريمة، تحفى خلفهم بقناع مظلّل، ثم خطف النصيب من بين ما جمعوا دون أن يشعروا به أو ينتبهوا على فعلته.

ربما أفتعلها أحدهم ليعود إليه بعد حين ويفوز به لوحده، بعد أن يشارك جماعته النصيب الأكبر، لذا ود الله أن أفلح به قبل أن يفتن على ذاته ويعود للمكان، كأني قطعت عليه خيوط ظنه..

ربما دحرجه القدر أمام دكاني ليكون من حظي ونصيبى بشكل حاف دون تخطيط مسبق، دائما القدر يتلون بلون الظرف، لكنه في هذا المرة تنكر للقاعدة السائدة، فانبرى

ضاحكا مرتديا بياض الظن في الوقت الذي به أرتدى
الوطن جلبابا أسودا.

كل شيء جائز من تلك الاحتمالات، المهم أستيقظ الحظ
أخيرا من غفوته، المهم دلف قدري بمحض صدفة بين
مخرجات الرزق، فألتصق بالنصيب ولبد فيه.

أوشكت زوجته تقلق عليه، خوفا من أن تعترضه عجلة همر للعدو
أو شلة من المخربين من هؤلاء المرتزقة المأجورين في طريقه، أو
قد تختاره إطلاقا تائهة من بين المارة.. فذوات الحظ السيء دائما
ما تعتر بهم الأقدار وهم قابعون في منازلهم، فما بالك بالذي يمشي
في الشوارع في يومٍ دامٍ مكلل بالخطر؟ المساكين مكبلين بالأقدار،
تخضعهم الكوابيس وتخرج لهم من بين أظفارهم.....

تقول إحدى الصحف في نشرها لحادثة مريعة أودت بصاحبها
والتي تحدثت عنها وكالات الأنباء بإسهاب، عن قصة صياد سمك
في جنوب بغداد، والذي ما أن خرج من نهر دجلة وهو معني بصيد
ثمين، حتى أستقبله الجندي الأمريكي برصاصة في جبهته، ليحمل
عن كاهله وزر حملة الثقيل من الأسماك، متجها بها لوحده، وكأنه
قتل كلبا أو دجاجة.

قلق اعترى فكرها، لم يدعها في مأمن من الحدث، لم يدع الظن من
أن يتخلّى عن شطط الشر، المثل الشعبي يقول " الفقير فوق البعير
وعضه الكلب" فما بالك بالذي يمشي على قدميه في شوارع
الموت؟

فيما قاسم كان في طريقه قد أقرب من مؤسسة حكومية، تفاجأ
بديبب النمل يخرج من المؤسسة حاملا أثاثها إلى جهة مجهولة،
عربات وعجلات البيك أب تنقل الأثاث، لقد جردوا المؤسسة من
محتوياتها تماما رغم الوقت المبكر من ذلك اليوم، اشترك في

الجريمة جمع غفيرٍ من النساء والصبيان والشباب والشيوخ، كأنه بهرجة عرس وحصاد حل قبل موسمه.

- لالالا.. هذا غير جائز، الأمور تمضي إلى نفق مظلم. الله المستعان، لم يبق شيء نافع، أين اختفت الشرطة؟ أين ذهب الأمن العام المرعب؟ أين القوات المحتلة مما يجري؟ لم كل هذا التخريب للبنى التحتية؟ حيث بعد السلب والنهب يأتي دور الحرق والتدمير.. يا ترى؛ هل هذه هي الحرية التي وعدنا بها المجرم بوش الصغير (رئيس أمريكا)؟؟.

بالمناسبة؛ كانت قوات الاحتلال ترعى هذا التخريب، تشجع عليه، كانت ترى التخريب بأمر عينها دون أن تمنع ذلك، بل أنها شجعت المغرر بهم على فعل الجريمة!.... هناك من جند لغرض السرقة وحرق المؤسسات، وآخرون جندوا لغرض جز الرؤوس، وهناك من أنيطت لهم مهمة ملاحقة عناصر النظام السابق وقتلهم..... إذا العملية برمتها ليس تغيير حكم بل انتقام، تجريد هذا البلد من كل مقوماته العلمية والإنسانية والأخلاقية والدينية، ليبقى قابعا في ذيل الترتيب، خلف الرجاء إلى الأبد.

تلك الصور الغثيثة أقنعت السيد قاسم بحلال الرزق الذي عثر عليه، بعد أن شاهد عملية السلب والنهب قائمة على قدم وساق، وطالما يستحرم ذلك؛ فقد ساقه القدر لحد الرزق دون عناء، أنها مشيئة الله.

تَجَهَّم وجهه بما رأى على الرغم ما حظي به من وافر النصيب، حيث المنظر لا يسر العدو فكيف بأبن البلد العفيف؟... كتم خبر النقود في داخل نفسه، عاد للبيت وأخبر زوجته بما شاهد من عصف التغيير الجاري في طريقه، كما أخبرها عن سلامة محله، شاكرًا الله بأنه خارج حدود الخطر..

لكن للزوجة فراسة في حال زوجها، لاحظت ارتبائه خلال حديثه وغموض ما لفه وأكتنف كلامه، وذلك حين خاله الارتباك لحظة دخوله البيت، كما لاحظت صفرة اللون تطفح على وجنتيه! فسألته باستهجان:....

- ما بك يا أبو محمد، لِمَ لون وجهك شاحب ومصفر؟ كأنك أصبت بمكروه؟ ماذا هناك؟....

لا يسعفه لسانه قول الحقيقة، لازال الارتباك يقيد لسانه، معضلة الحالة تجبره على كتمان السر، لازال لم يجد مخرجاً من سور القلق الذي غص فيه، هاجس الشك أعقب فكره خوفاً من أن تشل زوجته إذا ما عرفت بيقين خبر الكنز...

- لا لا تقلقي، لا شيء مهم! ربما رجعت مسرعا خوفاً من خطورة الطريق، الخوف شبح قابع في كل ركن من أركان بغداد، لا أمان في الشوارع. بغداد مهجورة تماماً، إلا من أبواب المؤسسات الحكومية المعرضة للتخريب.. عدت أدراجي مسرعا، قد يكون للتعب أثر على أوصالي، إضافة لبشاعة منظر السلب والنهب والسرقة التي تجري على قدم وساق من قبل جمهرة من الناس (أصحاب الحواسم) لمؤسسات الحكومية. ذلك ما ألم بي وأثر بحالي، التخريب كبير جداً، جارٍ على مرافق الدولة، ربما سيطول بيوتات الناس الأمانة إذا ما بقي الحال على هذه الشاكلة.

- الله يكفينا شر العدو ويلهمنا العافية، لا تقل ذلك، أقهرتني، عصرت قلبي.

- المتاريس وأكداس القمامة في كل مكان من بغداد. كأن الناس أصيبت بعدوى التخريب..

تصوري؛ صارت السرقات تطال مراكز الشرطة لسرقة السلاح منها دون أن تدرك مصائب غدها، دون أن تعرف

اتجاهها. الوجوه تبكي، والموت يزحف على أجساد الأبرياء، والناس تتكلم عن وجوه غريبة تطوف شوارع البلد وكأنهم ليسوا بعراقيين!!.

- لم كل هذا الدمار يحصل، ما ذنب الشعب؟ ما ذنب البلد؟ ما دور المحتل في ذلك؟ هل هذا نتيجة عجرفة رئيس أغبر أم أطماع عدو صلف بخيرات البلد؟

- والله لا أعرف أين تكمن الحقيقة، ولكن حسب ظني عجرفة هذا قد أوقدت شمعة الطمع في عين ذاك، وقد ابتلينا نحن بين هذا وذاك دون أن تكون لنا ناقة فيها أو جمل.

الفصل الثاني

\

1

لم يكن جاسم يوماً الأخ المثالي لقاسم، ولا مصدر فخر لأخته هدى زوجة السيد صفاء، الضابط في سلك المدفعية. جاسم يصغر قاسم بعشر سنوات، أعزب، متمرد بطبعه، غريب الأطوار، اكتسب خشونة طبعه وسلوكه من بيئة قاسية، وتركات زمن مرير من فقر وقهر، عاش فيها كصعلوك بين البشر. عاندته الحياة، فتخلف عن أقرانه في الدراسة وأهمل المظهر و الثقافة واللباقة، فلم يحظى بقدرة مالية تعينه على جلدته ولا بتعامل اجتماعي مرموق يحفظ كرامته.

لم يُتم دراسته الابتدائية، إذ أثقلت كاهله ظروف الفقر والحاجة إلى نبذ الحلم الذي كان يتأمله مع نفسه. اشتدت عليه الفاقة بعد أن وطأة ذاته جوف الحصار الجائر، الذي ضرب البلاد عرضاً وطولاً. لم يحظَ برزق يعينه على الصبر ليقوم به عظام جسده وفكره ومستقبله، فقد توفي والده الأجير وهو لازال صغيراً، فيما لم يكن حال قاسم أفضل من حاله ليعينه، إذ قوضه الفقر ليعمل في مكتبة لبيع الكتب في شارع السعدون، قبل أن يتزوج من رقية ويشغل في بيع بالات الملابس.

هذه الصورة القاتمة صاغت طباع جاسم فصبت في حوض فكره نقمة الوجود، حيث تحطمت تطلعاته وهو بعد في مقتبل العمر، فانجرف مع أهوائه في دروب العبث والرذيلة دون إرادته، باحثاً عن رزق يتسكع في الشوارع كأجير في المطاعم والمخابز، أو عامل في مهن شاقة كالبناء والجمالة. علمته الحياة القسوة فصار مشاكساً شريداً، يجوب الطرقات كضبع جائع، يقتنص فرص العيش ليستمد منها طاقة تعينه على البقاء حياً بين العيون النافقة هو لازال لم يبلغ رشده.

وما إن أنهى خدمته العسكرية الإلزامية، حتى أصبح ربيب الشوارع مرة أخرى، تائهاً بين المباغي والحانات بلا عمل يشغله أو هدف يوجهه. كثرت مشاكله، نتيجة عجزته وفقره، في زمنٍ تتطلب فيه ثورة الشباب مالاً لبناء الذات والفكر لاستكمال مشوار الحياة. توالى عليه المحن من حصار واحتلال وفاقة، فغرق في عقدٍ نفسية جعلته منبوذاً من الأهل وأرباب العمل. لم يعرف استقراراً قط، اتخذ من طيشه سراطاً يتبع ظله دون أن يدرك يقينا لمواجهة تقلبات الحياة.

تحمل الحصار على مضض، بمرارة ونكد وهوان، أضاع خلالها زهرة شبابه. لم يرتق بأحلامه إلى مستوى القناعة التي بلغها أقرانه، بل تبع خط غرائزه النفسية والجسدية دون تفكير في متطلبات الحياة المتزايدة، فمال مع ميل انكساره نحو الهاوية، فبقي في مكانه مشتت الذهن والروح، منزوٍ خلف ذات تعسة، متعبة، يسلك مسالك غير قنوعة، لا يطررها إلا من أمثاله، يلهث خلف رغباته وتهويّاته، غارقاً في فضلات الإغراءات والنزوات التي تلوك عقله بدخانها دون أن يظفر بها.

في الحقيقة، الإنسان يتكئ على ثلاثة أعمدة تشكّل شخصيته أمام الملائكة: الفكر، والصحة البدنية، والمال الذي يحفظ كرامته. وجاسم لا يملك منها شيء إلا الصحة الناقصة.. الفكر مهمل نتيجة انقطاعه عن الدراسة، فتجده مشتت الذهن، يفتقر إلى الثقافة والدين والسلوك القويم، وقد تربى يتيمًا كما اسلفنا بعد وفاة والده، ورُجّ به للعمل في الأسواق وهو لا زال برعم لم ينضج ذهنه.

لم يتغذى كما يجب، لضعف قدرته الشرائية، حاله حال معظم العراقيين الذين تحملوا عبثية الحروب والحصار على مضض، تلك التي أنهكتهم قبل أن تكسره سنوات الحصار التي عصفت بالأخضر واليابس، وزادت فقره المتأصل.

لقد شملت الفاقة الجميع، خاصة الطبقات المتدنية والوسطى، ممن لا سند لهم يتكئون عليه، لا أساس مادي يرتكزون عليه، ولا فكر يعينهم ويوجههم لبلوغ القمر، ولا ميراث يقنهم شر الظروف المتقلبة... عاش جاسم شحيح الحال، رزقه شحيح، وحلمه أضيق من أن يتسع لأمل يترنح في سواقي الاحلام.

كان قدره مقسوم على أجره اليومي الذي خاصم تطلعاته ومتطلباته في مواقع كثيرة. بسبب سلوكه الأرعن الماجن الذي يحيله إلى حالة من اليأس والتصرم في التعامل مع الناس؛ كان قد ازكم سلوكه كشاب بسبب نزواته العاطفية التي جعلته يطرق دروب التسكع بحثاً عن الموبقات ولغز النساء دون أن يتمكن من السيطرة على غرائزه الجسدية. تلك المَلَاوُذُ تبعته وتبعته تطلعاته أو هو الذي كان يرنوا إليها باستمرار مع شلة الفسادين من امثاله التي لا تفكر إلا في دفن ذاتها في بحر الملذات.

تلك الأوضاع دلقت في هوة المباغي ليكون أحد مرادتيها، جعلته يمضي خلف مغريات الحياة والغريزة الجنسية دون فكر، بحثاً عن المومسات والباغيات من اللاتي سلوكهن يطابق شاكلته، واللاتي لم يجدن فرص حياة ترتقي بهن لدرجة التعفف والإيباء.

على مر فترة شبابه كان قد تعلق رغبته بخيط واهٍ من أمل غائر في جوف أحلام سادرة، ظل يتبع ذلك الخيط برجاء حتى تماها سره في العدم، جراء استمرار الحصار المجحف وقلة واردات الرزق. خلال عمره الثلاثين لم يرفق بعمل مناسب له، أو بالأحرى لم يثبت على عمل يعينه على إدارة حياته، كان ينتقل بين الحرف من عمل لآخر لعدم وفاق المردود مع متطلباته الشخصية أو لعدم توافق سلوكه العام مع متطلبات العمل. لم يثبت على عمل يقنه شبح الفاقة، يعين ذاته المأسورة بالغرائز والمكسوة بجملة رغبات وتطلعات ليكون اسوة بالآخرين.

دائما ما يجد نفسه متخلفا عن ركب أحلامه، بعيدا عن واقع زملائه، يدور في حلقة مفرغة من الثقة بالنفس واليقين، في مخصصة العقد والمشاكل التي يفتعلها دون قصد أو بقصد، أو التي هي تدور حوله من واقع الصدف أو قسوة الظرف. نتيجة عواصف الشك التي تجتاح ذاته المتعبة، والتي تدعم سلوكه المشين أمام عناء إمكاناته المادية والقدرية. أضحى طريد شجونه، عنيدا، جحفا، أما لضعف ما شل تفكيره الهش، أو لشعوذة ما يسلكها دون وعي، أو فيض ما حرك غرائزه ولدائنه الخبيثة فتنعكس الآثار عليه، وتلك هي لدانة النفس متبعا غاية ما في نفس يعقوب.

لم يواكب تعليمه، صبغة الفقر طغت على بدنه وروحه، أضحى أسير ظرفها؛ لذا لم ينفك يوما عن نزاعه الدائم مع نفسه القاصرة أمام غرائزه المتبجحة ورغباته الجنسية. تلك الأوضاع غيرت مسار حياته، حيدته عن دروب العفة والدين والشرف. دائما ما كان يحاول أن يتحايل على الفرص المتاحة أمامه، لبلوغ مآربه الغريزية والروحية وال نفسية، دون أن يدرك أيا منها سوى القشور المعقوفة التي تدحرجها الريح أمامه.. ما أن يجمع مبلغا من المال؛ حتى يكلل سعيه برضا النفس بعد أن ينثر ما في جيبه على مجالسة الغوان وكؤوس الخمر في شعب الملاهي الليلية، أو في حانات مبعثرة في زوايا المدينة، حيث يبيح لذاته الفرص لتذوب غاياته كالشمع في صحن عذابات، يسطل بها وطأة الغريزة ولعنة الخمر مع شلة السوء من رفاقه دون التفكير بالغد. عكس ما كان يفعله أخوه الأكبر قاسم والذي لا يتقاطع مع سلوك جاسم بنقطة، ذلك الذي لا تفارقه فريضة ولا صلاة ابداً.

يكاد جاسم يكون أشبه بالوطواط الذي يستهل الليل في البحث عن مبتغاه بين الأزقة والشوارع المسمومة، متبعا ظنه خلف الطيور الضالة، متأملا أن يحظى بنديم تحت جناح الظلمة أو في صفحات

التسكع في زوايا الشوارع ودور المياغي التي صار يرتادها باستمرار منذ أن جلدته الغريزة دون أن يتمكن من كف جماحها، ليقضي أشواط سعيه مترنحا في هجيع الليل ودماسة الفكر الناطس، بعيد عن هاجس البيت والعيون المراقبة، دون أن يراعي توصلات أمه المسكينة.

راقت له تصرفاته وأسلوب عيشه المنكد، لم يجد أنيس ولا سليل رقة يعدل ميله بعد أن تزوجت أخته هدى وتزوج أخوه قاسم، حينها صار لكل منهما شأن وكيان ينشغل به. عندها وجد ذاته حرة طليقة ترتع في حرية دون مراقبة، ثم أن الوحدة اللعينة دكت فكره وصبره في ظل مراقة التصقت به، صورت له جسد المرأة مفتاح لأبواب الجنة، الحاجة والغريزة جردتاه من واقعه المتذبذب نحو شجونها، تركته يعت في سعيه وصبره عت الهميم في حلمه، وهو يتأمل ومضة نافذة تحرق زغب رغباته، تجيله للوفاق بالعثور على ذلك المفتاح بين أرصفة الشك وبيوتات الدعارة.

كان يهجس بذاته الحائرة، تتدحرج ككرة التب من هم ووجس إلى هم وعناء، بين أشواك الرغبة ودبابيس الغريزة، فتنتثر سعيه بين العيون المراقبة. لم يتغن بعزفها ولا انغمس في سحرها، ولم تعنه على جلد فؤاده لينفض غبار الغيظ ونبض القلب في حضن فاتنة تحمل وزره. كل محاولاته كانت تحوم حول واحة التمني والتي منيت بالفشل، إما لفقره المدقع، أو لسلوك جلف سنه دون وعي.

لا ليلي استجابت لبوحه، ولا سلمى سلمت من جنونه، ولا هيا الوثنية اغترت به، ولا من وجدت في هيئته ما يجذبها. ليلي، ابنة الزقاق الذي يسكنه، كانت تدرك جذوره جيذاً، فلم تلتفت إليه حين أسر لها برغبته، تجاهلت طلبه حتى تزوجت وابتعدت عن إلحاحه... أما سلمى، التي تعرف عليها في أسواق الشورجة، فكانت تقتات من تجارة بسيطة، تشتري الحاجات بالجملة من الداخل

لتبقيها بالمفرد في الخارج أو في منطقة الشعب مقابل ربح زهيد، لكنها كانت عفيفة النفس لم تغرها المباح، تخلّت عنه حين اكتشفت سقمه وقبح عمله في الشورجة كنصاب وكأجير يتباهى بالغنى، وهي التي لم ترَ في قيافته ما يثير اهتمامها.

سعى مرارًا لتعديل ميل شؤونه دون جدوى، فعمل بالأجر اليومي في متاجر الشورجة، ثم انتقل إلى عمل البناء يحمل الأجر، ثم عمل في المطاعم كنادل وغاسل صحن.... لكن في كل مرة كان يُطرد من العمل، إما لخشونة طباعه، أو لسوء سلوكه، أو لجنحة تزله دون أن يزن ذاته، أو لطمع يجرّه إلى الهاوية.

تكرار الطرد والاستغناء عنه جعله ينفر من تلك الأعمال التي أدلّته، فلم يحتمل نسق الأوامر ولا سياقات العمل... وأدرك أخيرًا أن العقدة تكمن في سلوكه وهشاشة تفكيره. وجد نفسه تتآكل في أسواق الشورجة، حتى صار له جذرا فيها، أصبح من عناصرها الدائمين، انزلق إلى العمل الحر كحمال أجير، بأجرة زهيدة ومن ثم سعى إلى الاستقلالية.. راق له ذلك دون شوشرة تعيق حياته.

ومع تفاقم الفاقة وصعوبة مجريات الحياة، بات يكره اليوم الذي ولد فيه، لم يهنأ في طفولته كباقي أولاد المحلة التي تربى بها، الفاقة كشفت الغطاء عن الرمق الذي يسقى منه والذي جف ينبوعه، لم تعينه الدنيا على مبتغاه على تجاوز أزماته، دائما ما كانت ترافق نظراته حسرة تشرخ صدره أمام إلحاح الحاجة، تزيد من تأفّفه، ولد في بيئة مسحوقة، في زقاق قديم قدم بغداد من أبوين قتييرين، يخر من أبدانها صمغ الفقر؛ الفتاة التي تأملها في حياته نبذته، تركته يتدحرج خلف ريح انوثتها كقشة تافهة تلعب بها ريح صرصره، بعد أن لاح أنفها عفن فقره وعطن خمرة جسده.

حاله لا يختلف عن حال المساكين والمتسكعين في الشوارع والذين تخلى عنهم الزمن، في وسط معمعة تكالبت عليهم أقدار خارجية وداخلية، تمثلت بقسوة الظرف وفاقة وموروثة وفكر هزيل، يكاد ثقافته لا تنتح ضوع يلتفت إليه الآخرين، حيث استقى سلوكه من عقد الشوارع ومن دروب النصب والاحتيال بحرفية.

تلك الحالة غرست فيه شعور النقص والهزيمة، لا سيما العقد عقت ظله كخضم عششت في داخله، تذكره بواقعه. بات يرى نفسه في المرأة مثلما يراه الآخرين سميحٌ لميخ. أنها الهاوية التي تمنى أن يتجنبها فالتصقت به وبظنه كسمة القذارة التي لونت سلوكه. الغلاء الفاحش وظلف الحصار المر جعلاه ينفر من الفقر لتلتصق به علكة الفاقة، لتقبع بذاكرته وجسده كوشم لا يستطيع التخلص منها، تذكره بقدره المتدني كلما نظر إلى وجهه بالمرأة.

تلك الحالة لازمته، تركت في نفسه ضعفا وانكسارا، أرهقت كاهله، بات لا يعير أهمية لشأنه، أحيانا يشبه نفسه بعود الثقاب لا ينفع إلا بحرق محيطه، أو بعود القصب الأجوف، خال من كل شيء ذو قيمة يعنيه على الصبر، خال من المادة والثقافة والعلم والعلاقات الاجتماعية والأدب ووو... الخ ومن الكثير الذي لا يجد له في واقعه المريض أساس له، خال من الأحلام والتأملات الوردية التي تتشوق لها رؤياه، تلك العالقة في قمم الاحلام البعيدة كل البعد عن واقعه المريع التي لا يمكن ارتقاؤها ولا أن يشم عبقها بأنفه المزكوم.

خترفة الأحلام التي سعى خلفها، كورت رغباته وهو بمقتبل العمر، جرفته لجوف زمن أغبر. مع مرور الوقت أضحت كلون الشفق؛ كلما تأمل طيفه أبتلعه الغروب بلحظة غفلة. ما أن تميس كفاف فكره فكرة؛ حتى تغور في سدم الفاقة، لائذة في جحر النسيان. ترهق ذاته، تختنق أحداقه بصمت الوان البنفسج الحزين.

هكذا عاش وحيدا، منزويا في قفار بؤسه، لا زوجة، لا أطفال، لا جاه، لا وظيفة أو مصدر رزق ينتشله من وهدة الفاقة التي شطفت البسمة عن وجهه، أفقدته نعم الحياة، أضحى في تعاملاته غضيف، أجوف، شائك، مؤلم، عنيد..

لقد عدَّ نفسه من اللذين يستحقون الرأفة والشفقة؛ لكن لعربدته والعدوانية المختمرة في دمه؛ تخلت عنه هلال النعم، بقي يعاني تصحرا في وحدته، وجفافا بغربته داخل مجتمعه. أنه مجرد من الحركة، مجرد من الروح، يشعر بحاله كحجر صوان، جلد، يابس، لا نفع فيه سوى أن يفسد سكون البحيرة إذا ما سقط فيها، يجرح مشاعر الآخرين بقصد أو دون قصد. أضحت حياته لفائف عقد، ما أن يفك إحداها حتى ينشغل بأخرى بذات اللحظة. ما أن شبَّ؛ حتى أدركت مسامعه كلمات ثقيلة مبهمة، كالحرب والشهداء والقتل والموت والصواريخ والدمار... الخ، ما أن انطوت تلك الصفحة؛ حتى أحيط بلغم الفاقة والحصار والفقر والعوز والبطالة والجوع والرجاء، فأثقلت عليه حياته. ما أن انتهت تلك الحقبة؛ حتى وجد ذاته محاصرا في مخمصة حرب احتلال الوطن. هجس بذات تقلصت رغباتها، افتقدت حلقات العمر دون أن يستمتع بها.

تلك الحُقب أكلت لب شبابه وسحقت ذروة أفكاره وتطلعاته، طوت آمانياته. طوال تلك الحقب بقي واقف على جانب الرصيف دون أن تمر به عجلة الراحة، قابع في مكانه لا يستطيع عبور نفق الظلام لجهة الأمان، لا يعرف طريق للخلاص من كمامشة اليأس التي تعلقت به، أنتظر قطار الحلم ينقله لمحطته القادمة دون أن ينم ذلك القطار محطات فكره ورغباته، بقي ذلك الجلد يهبط به بسوط الوجمل والفاقة.

في فترة من فترات حياته أضطر إلى بيع المياه والساكر وعلب السجائر ومناديل الورقية في مواقف السيارات العابرة ونقاط

التقاطع. مضت تلك الأيام متراخية وخيمة، تبعثها أيام أكثر سوءاً ولخمة من ما مضت بعد أن حل كابوس الحصار ولعنة الطائفية، أصبحت الحياة بالنسبة له مجموعة عقد مرمية في طرقة يتعثر بها ولا يفقه حل أحجيتها، كلما مر بواحدة منها تفجرت عليه قروؤها، أضى ككرة الصولجان تشتط به مضارب الزمن دون أن يستقر.

الروتين الممل شخصنه، كور عزمه، جعله يعيد تكرار نفسه في المحافل والمواقف باستمرار دون تجديد والتماس وجه النور... كثيرة هي الأعمال التي سنحت له، لكنه لواقع نظرتة السوداء تجاهلها، فانسلت تلك الفرص من قبضة يديه كوغف الصابون دون أن يستفاد منها، دون أن يبني كيانه، حيث الثبات في العمل يجلب الرزق ويكور الشخصية.

هكذا بقي يترنح في مكانه، لم يجن من كنز الحياة سوى التعب والشقاء إلا ما ندر، لم يمرح بين أوساط الترف أو يشعر بسعادة تزيج عنه همومه إلا ما ندر، بقي يلحق بإناء الحظ وسراب الظن وعزاء الآخرين حتى ضم.

لقد عاش حياته يلهث خلف التأمل باحثاً عن ثقب في نافذة العمر لينسلت منه إلى عالم الرجاء، عسى أن تبتهج فراشات أحلامه تحت إنارة فوانيس عيش مقبولة. خلال سيرته تعثر بالنزر اليسير من الصدف، حلت عليه أشبه بزخ رذاذ الصيف، انسابت على جسده كرحمة، سريعاً ما تبخرت مع شدة حر أجوائه، لحظات جادت بها الحياة وسط سبات الحظ وزحمة العقد والأقدار.

تلك الأوضاع تركت في نفسه جلجلة من الصخب والعنف والشدّة، قارع بها عذابات الصبر الطويلة، عصرت أهوائه، فلم يتقطر منها سوى تلك المتاعب التي بات يصبها في إناء الآخرين لينفخه عن نفسه ويريق شخصيته في عيون غرائه... لذا ترى تعامله جليداً مع

الآخرين حاد الطباع، أشبه بشوكة الصبير، تألم رغم رقتها وصغر حجمها.

تلك الصفات السيئة صار يستغلها لأغراض دنيئة. بات يستبد العامة من الناس ويسرق ما تطاله يده، بل أنه بات يخربش الوجوه بشيء من العبث من أجل إرضاء غرائزه.. حيث بقي شبح الجوع وحش كاسر يرافق ظنه وأن امتلئ جيبه بهلل ما.

حقيقة الجوع جوع العين والنفس، قبل أن يكون جوع البطن والبدن، مثله جوع العاطفة والجنس، تلك التي باتت تبتطش بتفكيره كلما لان فكره نحو فتاة أعجبتة هيأتها، تلك الحالات صارت تعنفه، تهزه، شرعت تقيد بصفه الإدمان والتسكع في طرق الرذيلة، أحالته إلى وشق كاسر ينتظر الفريسة خلف حاجز الفرص، أسير هواه في حقول الليل باحثاً عن ضالته، خانس تحت وقع سوط الرغبة، متبعاً رزئه ووزر شبابه، خوفاً من أن يحل به العجز والعنوسة.

الذات مرتعشة، خائفة من سلطان الغد، لا تركز على مساند وثيرة تعيله على مواجهة مشوار الحياة. في واقعها مريضة، مهزوزة، تعتمد في وارداتها على تعاسة الآخرين. أنها ملبكة، ملوثة بخميرة مؤذية. أنها الشر بعينه بعد أن رسمت له الحياة مأساة شخصه في بانوراما غامضة. فلن يفلح في مسعاه إلا إذا بصم في سجل الحيل الملتوية والعنف الجائر أو النصب على الآخرين. أحياناً يلجأ للسرقة والنصب والاحتيال على البسطاء من الناس في سوق الشورجة، كونها وسط صالح لذلك المبتغى لما تفيض به من زحمة، حيث في اللحظة الواحدة تتغير الوجوه المارقة أمامه..

النصب والاحتيال في لغة الفقير تمثل دهاء وحذق ومراوغة، وقلب الحقائق وتلوين الأمور، والقدرة على التصرف والإيقاع

بالآخرين في الفخ.. أما عند أهل القانون تمثل استيلاء على مقتنيات الآخرين وسرقة أملاكهم بطرق غير مشروعة يحاسب عليها القانون. فإذا كان النصاب في نظر الشرع مذنباً وآثماً، وفي نظر القانون مجرماً يجب محاسبته ومعاقبته؛ فإنه من الناحية الاجتماعية يعد انحرافاً سلوكياً واجتماعياً، ينبغي معالجته بالنصح والتلقين والرافة، ينبغي تعديل محور السلوك والتصرف.

أظن القياس الاجتماعي هو أكثر أنصافاً به وبغيره حسب تكاليف الظروف الخارجية، ومن المفروض أن يعاقب بدلاً عنه رجال الدولة التي عصرت الفرص وأحرقت الأحلام أمام الطفولة والشباب، هذا إذا كانت هناك عدالة وإنصاف في المجتمع.

كان جاسم يستخدم عمليات النصب بأشكال بسيطة، مستغلاً موقعه من العمل في سوق الشورجة كحمال أو كأجير. كان يتصيد في المياه العكرة، حيث يترقب فرائسه والذين هم في غالب الأمر يكونوا وافدين جدد من خارج بغداد، جاءوا يتبضعوا من أسواقها كون سوق الشورجة يعتبر مزاراً لتنوع الحاجات ومركزاً لبيع الجملة، فهو أكبر سوق تجاري في العراق.

نتيجة الزحمة التي تنميه والفروع المتشعبة والمتداخلة فيه، يعتبر السوق أشبه بالمتاهة، سوق قديم قدم بغداد، لذا تجد الغريب يتيه فيها ولن يصل مبتغاه بسهولة، وخاصة هؤلاء الذين يزورون المكان أول مرة. كل يود أن يلبي طلبه قبل فوات الأوان.... لذا تجده يستغل القادمين الجدد بحجة تقديم المساعدة لهم، أحياناً يطلب من الشخص قيمة البضاعة لجلبها له.. وما أن يستلم المبلغ حتى يغص في دهايز السوق، ليترك ضحيته متسماً في مكانه يناجي ربه. أو يأتيه بالبضاعة بضعف قيمتها، أو يكون سمساراً بين البائع والمشتري مقابل مبلغ يضيفه على سعر البضاعة وهكذا دواليك يسلك أمره كيفما يجد فرصته.

وبذلك كثيرا ما كان يلام ويحاسب ولكنه لن ير عوى وكأنه قربة
مثقوبة تفقد محتواها بالفرص، هكذا تجده عقيم لا يشم عطن جسده.
وفي نهاية اليوم، يخرج بمبلغ يصرفه على نفسه في المباغي ودور
العهر، وما يتبقى منه يدعم به أمه الكهلة.

ظل الخوف يتراقص في عيون الناس، يتماهی في أذهانهم مع كل رعدة إطلاقه تخترق أجواء الصمت، لم تهدأ دوي الانفجارات ولا زعيق صخب المدافع لحظة واحدة؛ حتى بعد أن هوى تمثال الرئيس في فناء الزمن في ساحة الفردوس. بقي ذاك الوجع ينبع من تربة الأرض، من مشاعر الناس المحتدة، تلك اللاتي أصيبت بشرخ وانكسارٍ وذهولٍ، تهجس بها مخنوقة، ينبجس الدم في وجهها، كأنها مصابة بجائحة ما، يشيع من عيونها تساؤلات جمّة دون إجابات تشفي غليلها، يا ترى ماذا بعد ذلك؟...

أصيبت الناس بالخمول والسهو والصداع والعشو والإسهال، أضحت تعيش على وقع الصمت والارتباك، تجفل لكل خبر، الذات مهزوزة، تائهة، مكتوفة الأيدي، تهجس بها تدور كالرحلة حول نفسها، كحجر مصد قابع بين سحر وألق أمس وذل وعنفوان اليوم، لا تتزحزح عن مكانها، هكذا ترى النفوس جلودها تتقشر وهي تبحث عن قدرها بين انقراض الزمن...

ذلك التيه نقل الفرد الرصين بين عالمين مختلفين، عالم يدور في فلك الصمت الداخلي، وآخر ركب موج الفوضى الخارجية دون أن يحسن التقدير.. هكذا تجلى القدر، مزق وجه الزمن، فمحي فسحة خمسة وثلاثين سنة من الوجود والاحداث والشعارات الوطنية ليستبدلها ببانوراما جديدة وبشعارات أخرى تكاد لا تختلف عن سابقتها سوى باختلاف الوجوه والأشكال والانتماء والنية والتطبيق.

....ما أن حل الاحتلال حتى حلت الغرابة في صفوف المجتمع العراقي، وكأن صرة المشاكل فتقت بطانتها، فانتشرت عقد الصراعات كالوباء بين صفوف الشعب... يغله المعهود؛ أولد

المحتل تلك الصراعات ثم غذّاها بخبث وغل، جعل أمور الحياة معقدة، كجمرة متقدة، لا توصف سوى بالغرابة لشدة لهيبها..

قبل أن تطأ قدمه القذرة أرض الأنبياء؛ كان المجتمع العراقي يعد من أنظف مجتمعات المنطقة. مع دخوله ظهرت العناكب والعقارب، انتشرت حالات الوباء التي ما كنا نشهد أمثالها على الساحة قط – جاش الكفر بها ومن أوسع معتقداتها وابوابها، تلك الصور المرعبة من عمليات خطف وقتل وتكيل وسطو ونصب واحتيال وسرقة وخيانة وطائفية توزعت على كاهل الشعب المسكين كحصص يومية، بيعت ذمم وبيحت شاعت بين صفوف الشعب وكأنّ الشعب ليس هو ذات الشعب الورع الأصيل، وكأنّ تلك الممارسات التي كنّا لا نعرفها ولا نمارسها لها جذور متأصلة فينا قدم الحياة والوجود، أو أن الناس تلبسها الجن فسرقت موروث المحتل والدول الناقمة لتجربها على ذاتها وبين صفوفها، كأنها أضافتها إلى قيمنا..

لكثرة ما طفح من غل في الوسط؛ عجزت النفوس التأقلم معها، كأنّ النظام السابق كان أشبه بالغطاء الواقي لبرميل الخسة والنذالة، ما أن رُفِعَ الغطاء عن فوهته؛ حتى انتشرت تلك القذارة والتفاهة والمجانة في المجتمع، أنكشف المحذور، أنتشى نتن العُقد في الوسط، بنتنا نشم النَمَسَة العفنة وقرف النية من على بعد أميال، بدت تطفح العاهات في المجتمع وتشيع النواميس على السطح كطفح الجدري على البشرة، تحركت ديدان الأحزاب وعناكب الميلشيات وما شابه ذلك من عقارب وخنافس عن مواضعها لتمزق اوصال المجتمع الواحد إربا إربا دون رحمة.

علما لم يهدأ العنف الطائفي إطلاقا وأن خفت حدته قليلا، بقيت الغصة لابدة في قلوب الكثير كقطعة حذقة تود الانتقام، تتبع جدول المراهنات والمماحكات والمقارنات والمناكفات والقوارع الدائر

بين صفوف الناس في المقاهي والشارع، إضافة للإعلام الأصفر المسير والمعرض.

بقيت النفوس الوجلة مربكة، تتبع قرعة العلب الفارغة والمتداول منهاجها بين الأنفس الضعيفة مع احتدام القذائف الساقطة هنا وهناك، تلك التي جزت الرؤوس والنفوس، جرشت خلايا المخ والبدن، خلخلت أوضاع الوطن وأجواء المدن بعد أن شسعت الظلمة في داخل الأنفس العفيفة وفي الوسط العام، فتفشيت هوام الشؤم بين العقول والرؤى، شعت البأس واليأس في دوامة العصف الزاحف على المساكين والأبرياء. الاحداث المؤسفة وقرف النتائج وقنوط الوضع؛ دفعت بالفرد إلى التجرد، إلى وهدة الجنون والانتحار والهرب من الواقع، أن يحتط بالممكن.

باتت الناس تشعر بالخوف، تهجس بالوحش يتسكع في الشوارع والطرق، يتربص بها هنا وهناك، عاكف على بوابة الفكر وبين جحور الظن ونار التوقع، يقينا أضحى الحال مهلهل كحالة روتينية لا جديد فيها، صار الفرع يتبع سكون الفرد وهو قابع في بيته أو ساه في أحلامه..

بتنا نرى الوجوه الغريبة التي دخلت مع المحتل بمثابة وحوش تود اقتراسنا، ترتدي قفاطين الشر والعناء، الأسى يتماها في وجوه الناس وفي أجواء بغداد الغائمة. بتنا نتنفس دخان الخوف ونسمع أصداء الرعب مع ساعات الفجر، مع شواظ النار والأدخنة المرتفعة داخل الزمن ومن منافذ الأزقة والشوارع. فالدم أضحى مباح والهم طين لازب في جلود المساكين.

بان ذلك بعد أن تعددت أشكال العدو وكثرت صور الموهة في الطرق مع تنوع جرمه وأمثاله، صار يتكاثر بشكل رهيب فسيولوجيا وكيميائيا وبيولوجيا، ثنائيا وأحاديا ومن تلقاء نفسه

وبالانشطار. بات يظهر لنا في الساحات العامة بوجوه متعددة وغريبة كالأعمدة والأشجار المزروعة في بغداد، يتمثل كغاصب ومحتال ولص وطائفي وقومي وعبثي وحاقد، ونماذج أخرى لا وصف لها ولا كلمات تصفها، ملثمين ومقنعين ومتنكرين، بارعين في الغش والتمويه، مرتدين لباس الشياطين، متظاهرين بأقنعة العفة والدين، لبس غريب ملغم بالسواد والبياض والعمائم، صار الشخص لا يأمن على نفسه حتى من صاحبه وجاره.

مع دخول المحتل تحطمت أقفال الحدود، مع دخوله دخلت الوطن شرذمة من الكلاب المسعورة والوحوش الجائعة، بحيث باتت تبحث عن الهبرة في الصحون، تسرق وتقتل وتبتطش وتنهش كل من دب وهب في طرقها، كأنها دربت مسبقا على هذه الأفعال قبل أن تدخل الوطن وتتبع الغاية، لتدب الفوضى والرعب بين صفوف المجتمع..

على أثر ذلك طافت جثث مجهولة في شوارع الوطن والطرق الخارجية، صار الموت تعرف سماته وهو يتسكع في الأزقة والطرقات. هؤلاء القتلة أشبههم بياجوج ومأجوج، بتنا نلتمس أعمال تلك الشرذمة من الوجوه الكالحة الغريبة وهي تجوب المرافق دون أن نعرف لها انتماء قط.

أحد جنود المارينز أعترف نادما على قتله شابا كان يسير على دراجته الهوائية دون سبب، وآخر أعترف على قطف أعمار عائلة كامله فقط لأنها صادفته في طريقه في محافظة الانبار. هذه الأعمال التي كانوا يكافئون عليها من قبل قوادهم بحسب اعترافاتهم، بثت الرعب في صفوف المجمع العراقي...

هكذا تفشت جائحة الحقد والرعب في آفاق الوطن من أجل السيطرة ونهب خيرات الوطن ووضع اليد على المراكز الحساسة.

فرق موت مدربة دخلت مع الدبابة الأمريكية، عاثت فسادا في أرجاء الوطن، أشبه الوضع بموسم الجراد، بحيث دخلت من كل حذب وصوب من منافذ الحدود المفلجة، فلم يبقَ حقلا ولا زرعاً إلا ذرتُه ودرسته حوافرها. أختلط الحابل بالنابل، لم نعد نميز بين الدخلاء والأصلاء من أبناء البلد. تساوت فرص التقويم والتقدير بين هؤلاء الذين اجتمعوا على مائدة واحدة، تشابه نصيب الشريف العفيف بنصيب الحاقد المجرم الجائع، الجانح، الماكر. مع مرور الزمن تغير الحال من سيئ لأسوء، تلونت النفوس بلون الظرف، اسدلت المنافذ على أبناء الوطن، اسودت صحف الأيام، شُلَّت تماماً قدرات أبْن البلد، نفدت طاقته وكبلت أياديه إلا من بعض المقاومين في بعض المدن.

على وقع الفوضى وحالة الجمود توقف نبض حياة الوطن، بات يأْن من الجرح الذي أصابه أو من الخجل الذي لدغ مشاعره والهم الذي طاف بصحنه. كأنه نزع ثوب العفة حين انثَرَعَت منه إرادته، أضْحى دائِرا في المشهد كالعاهرة، مفلج الساقين أمام الغرباء. وطن هش أستمع بخيراته كل من هب ودب.

شلل تام أصاب قطاعات الدولة كافة، توقفت المصانع ومراكز الترفيه الفنية والتجارية والعلمية والزراعية، أغلقت أبواب العمل ودور السينما، لم تعد هناك حياة تبرق في ذهن المواطن، لم تعد هناك صورة واضحة تمثل شكل وطن قائم سوي، سوى هيكل جسد خائر يتنفس عبق تاريخه.

خلت الشوارع من العباد إلا ما ندر، خلت حتى من الطيور والعصافير البريئة التي سئمت قرقرة الجوع والقتل، بتنا لا نسمع لها زقرقة وهديل عند الصباح ولا نسمع نغمة الكروان ولا صدح البلبل، تواجد الطيور في المكان دليل سلام المكان وأمانه.. فإذا ما وجدتُ في بقعة ما؛ فاعلم بأنَّ ذلك موطن أمن صالح للعيش...

ما عادت الحقائق حدائقاً نستمتع بها ولا المنتزهات آمنة، تحولت لأدغال ومستوطنات حشرات والحيوانات السائبة، إلى أماكن رمي الزبل أو متاريس الصد. أكداس رمل وأكياس مصفوفة معبئة بالتراب تستند عليها رشاشات مقاومة الطائرات تتراءى سبطانيتها للمشاهد بالعين المجردة منتشرة فوق أسطح المباني الحكومية ومنصات الحدائق والشوارع العامة هنا وهناك، ناهيك عن الدخان المتصاعد من البنايات المتفحمة والحرائق المشتعلة في كل زاوية من زوايا بغداد.

صار الموت شبح يتخفى خلف الهاجس، يدخل البيوتات من الأبواب والشبابيك، ينزل من السطوح دون استئذان، بل وأكثر من ذلك، تماهى في الهواء الذي نتنفس، راج مع أرائج البارود المشبع بالفسفور وعصف النثرونيين المشع، صار الموت يعوم في الشوارع والأزقة كما يشاء العدو، بل أنه وجد مرتعا ومتنفسا له في الحافلات الناقلة للركاب وفي المناطق المزدحمة المكتظة بالسكان من خلال التفجيرات الملعمة. أدميت المناطق الشعبية، تلك التي يقطنها الغالبية الفقيرة من أبناء الشعب البريء، كالشعلة ومدينة الثورة وبغداد الجديدة، والكرادة والأعظمية وحي العدل والدورة والعامرية وحي الجهاد، ناهيك عن المحافظات السنية التي شلت هي الأخرى بتفجيرات العجلات المفخخة والعبوات الناسفة والأحزمة الناسفة بعد أن تركزت فيها المقاومة ضد المحتل.

لم يتحلى المحتل بالأخلاق ولا برفيف رافة، وحوش حلت ببطون خاوية وعيون جائعة، سرقوا كل ما وقع تحت أيديهم وأعينهم من جواهر وأموال وتحف، جردوا البنوك والمتاحف من مكنوناتها. داهموا بيوتات المساكين بحجة التفقيش على السلاح وفي الحقيقة كانوا يفتشوا عن ما يغنيهم من الجواهر الثمينة والأموال المرصودة. صار الشعب يدرك ألا عيبهم ويستهزئ بهم، حتى وجد

المطرب حسام الرسام ضالته في أغنية يقول فيها (بنص القوري عالصاروخ صاروا يدورون) هههههههه – أي يبحثون عن الصاروخ في أبريق الشاي.

في أمس القريب نشرت إحدى الفضائيات صورة لجندي أمريكي قتل طفلين في سيارة بيك آب ومن ثم تصور بصورة تذكارية مع القتيلين وهو مبتسم. نعم مبتسم! لأنه أنهى حياة طفلين بعمر الزهور، الأخ الأكبر بعمر خمسة عشرة سنة والأصغر بعمر اثنتا عشرة سنة. أنه يفخر لأنه تمكن من قتل طفلين عربيين، وحين تسأل مسؤوليهم عن نوع الجريمة التي حصلت؟ يبرروا فعلته الشنيعة بحجة الدفاع عن النفس.

نعم ... دفاعا عن النفس..... لانهم يدركون وجودهم باطل، فشبح الموت صار يلاحقهم، والخوف من المجهول يعصف بكياناتهم.. ما برحوا أنهم صاروا يتساقطوا أشبه بأوراق الشجر في موسم الخريف، يتساقطون واحدا تلو الآخر جراء اشتداد المقاومة التي باتت تنظم نفسها في جماعات وتبطش بهم وتلاحق كياناتهم في مظاهرات الشوارع والازقة.

من جهة أخرى تأزم الوضع بين صفوف العراقيين، لذا تجد صفة الشجار صار سمة الفرد والعصا التي يتكئ عليها في تعامله مع الآخرين لإنجاز هدف ما يرومه، أو غاية ما تمناها، أو نية ما رغب بتحقيقها، المسألة باتت لاتقف أمامه كحاجز..... على سبيل المثال؛ الذي رُفِضَ كزوج في ما سبق، صار ينتقم من أهل حبيبته، أو يتزوج أبنتهم عنوة، حيث بعد أن تعطل قانون الدولة أفعَل ما تشاء، خاصة إذا ما كان منتميا لأحدى الفصائل المستحدثة من الميليشيات أو لحزب مستحدث من الأحزاب المتعلقة بذيّل المحتل. هناك من أنتقم من من لم يسد له خدمة ما في ما سبق، أو أنتقم حقدا من الذوات الثرية المغتنية دون حجة أو سبب.

انقسمت الناس إلى صنف متنافسة، البعض أنتمى لفصائل المقاومة، وهناك من أيد الاحتلال وأصطفى تحت أرائه بحجة نبذ سلوك النظام السابق البغيض. كما تعددت الغايات، هناك من همه تحرير الوطن وهناك من ود بسط نفوذه والسيطرة على مواقع السلطة بدعم من القوى الخارجية. وآخرون وجدوا متنفسا لهم من ظلم نالوه سابقا لرفع سقف مطالبهم في إدارة مصالحهم تحت وقع الاحتلال، وخاصة المنزرون تحت مسميات طائفية وقومية وجدوا ضالتهم في قلب الأحداث..

عمت الفوضى في أرجاء الوطن مما جعلت القيادة تكون جزء من المشهد بعد أن وجدت منفذا لها في جحور الوطن، اختفت خلف حواجز المواجهات المباشرة، بين دراق المصالح الشخصية البحتة، فيما عبثت الميليشيا المتنفة بمقدرات الدولة الأمنية، ولكثرة أعدادها ومسمياتها الغريبة؛ بتنا نتوه في تشخيصها وحفظ أساميتها، تصوروا أكثر من ثمانين مسمى بين أحزاب وكتل طائفية وقومية وفصائل ميليشيا، كل يود فرض نفسه على الشعب المسكين.

البتول التي كان يعشقها الجميع؛ غدت قبيحة المنظر، مومس، أنثى جسدتها، نُزع حجابها وسرقت جواهرها... ذلك هو العراق الأبى، الكل ود سرقة حتى الدول التي تبعد عنا آلاف الأميال تهافتت على خيراته من أجل لقمة سائغة، وقد سرقت أمريكا مكنون البنك المركزي من ذهب وفضة وجواهر ودولارات من البنك المركزي الذي خزنها النظام السابق بالقتل بعد أن خنق الشعب تحت ظل الحصار، بالإضافة لما جمع فيه من تحف فنية ومقتنيات أثرية عمرها آلاف من السنين. البنك الذي وضع فيه الرئيس صدام أهم آثار العراق وممتلكاته القيمة والمهمة والثرينة من مصوغات ذهبية نادرة قبل احتلال العراق، والتي ترجع لإرثها إلى عهد السومريين والبابليين وحقب الحضارات التي مرت على العراق،

بالإضافة للقناطر المقنطرة من سبائك الذهب والفضة التي كانت مخزنة في البنك.

بنفض خزين البنك المركزي، لم يبق فيه شيء قد يذكر. على أثر تلك السرقة التي شاعت في بغداد؛ فضت البنوك الأخرى خزائنها من قبل العصابات المستحدثة واللصوص المارقين وجند علي بابا الذين دخلوا من الحدود من عرب وعجم وفرق هيات نفسها مسبقا للحدث كانت قد سطت عليها وأفرغتها من مؤنها قبل أن تصلها قوات المارينز الامريكية... كذلك فعلت بريطانيا فعلتها في البصرة، فهم في واقعهم وتكوينهم لصوص وقتلة، وقد نشرت ملكة بريطانيا إليزابيث حينها صورة لها في القصر الملكي وخلفها يبدو بوضوح بيانو الرئيس صدام حسين المصنوع من الذهب الخالص....

إن كانت الملكة تفتخر بما سرقوا جنودها؛ فلا تلوم الجيش الذي فتر أخلاقه وتطبع بأخلاق الملكة، هكذا افتخروا. نهبوا الغالي والثمين مما وجدوه في العراق، تلك هي أخلاقهم الخسيصة وما بدلوا تبديلا. توافقت رؤاهم برؤى أمريكا بما رانوا إليه من عار وما كسبوا من خسة. هذا هو ديدنهم على مر التاريخ، تشهد عليهم الاحداث وآثارنا وريع ما سرقوا. يتباهون بما فعلت اياديهم القذرة كأنهم بدماء المساكين والأبرياء والشرفاء قد سکروا.

وسط تلك المعمرة استمر قاسم في مراجعة محله ومعاينة الدولارات التي دفنها في كيس من أكياس بالات الملابس، ليبعد الشك عن أنظار عداله ومنافسيه في العمل، وخاصة عن جاريه أبو عصام وحاتم الجرو، و.. الخ.

لم يكثرث بما أحاطته من مآسي وفقر وعجز مادي، فالله عوضه مبلغ لا ينضب، يغيثه في فترة القحط والعوز إذا ما أصابته فاقة، كما يستطيع أن يتصدق منه على المساكين والفقراء من الذين لا يعرفون أساسه المادي من الذين يمكثون في أماكن بعيدة عن حيه، تجنبا لافتنصاح أمره وإفشاء سره.

ذلك ما كتمه وأخفاه عن انظار الجميع، دفن سره بصندوق مقفل بأقفال فولاذية من الصمت والسكوت والحذر والتأمل، أبقى الأمر سرا حتى على زوجته المسكينة التي وافقته طوال حياتهم الزوجية دون أن تعترض على القتر الذي كان يصيبهم. الحذر جعله لا يثق بأي شخص، تجنبا للمفاجئات الغير سارة وأشواك الشك التي تدور في أذهان المقربين منه. مع توالي الأيام واشتداد العقد الخارجية بات يشعر بالقلق وبثقل حمل الأمانة دون شريك. بل الحرج صار يشغل باله ويزيد قلقه مع تقلبات الظرف وارتفاع الاسعار وبالذات ما يخص العقارات التي باتت تنتفض على ما سبق من تقييم بعد أن تغيرت السبل وتبدلت قواعد اللعبة والقوانين التي كان معمول بها.

الأجواء المتقلبة والفوضى سلكته في طريقها، فلم يخطط لما بعد الهدوء، كان قد تمرّد على ذاته مع تمرّد الظرف على الواقع، لذا سلك سلوك المتجيب الحذر، كل همه كان كتم السر.. ولكن الأمر طال عن حده مع المنغصات التي تتقلب داخل المجتمع، لذا وجد ذاته تتخبط في تفكيره، لا يعرف كيف يبدأ مشواره القادم وهو

القابع في مستنقع الفوضى والأحلام بذات القدر، مع أمل المستقبل بتخطي تلك الأحلام التي بدأت تكبر في داخله مع الأيام، بدأت تصرخ في داخله لينتشل ذاته من المستنقع قبل الغرق، تلك التي تحجرت تحت ظل الفاقة والزمن الرتيب المنحدر، في الوقت الذي به بات يجد صعوبة التحرر من قيد الظرف المحيط به وتقلبات الاسعار، اضحى وتير الشك يشتد عليه، يشد الخناق أمنيا..

مع مرور الايام صار يدرك ضعفه ويلتمس نار صبره وجمرة الغلاء التي باتت تحرق دولاراته ومخططاته المستقبلية. كما أن قسوة الاحتلال شفت الحلول بين يديه، أبيضت المساعي الفردية التي ود القيام بها، ظرف حرج يحتاج لموازنة، لتكاتف الأفكار، لأكثر من يد وفكرة كي يتجاوز محنة الظرف، بسبب فقدان الأمن وتفاقم الغلاء....

من خلال تتبعه لحالة السوق، أدرك أن كل شيء قد تضاعف سعره، وبالأخص العقارات. فالدار التي كانت تُقَدَّر بدفتر واحد (عشرة آلاف دولار) أصبحت بدفترين وثلاثة وأكثر، والعجلة التي كانت بخمسة آلاف دولار صارت تُباع بعشرة آلاف أو حتى وعشرين ألف. هذا الارتفاع الجنوني في الأسعار أربكه، قلص قيمة دولاراته، زاد من قلقه وأرهق تفكيره، فالغلاء لا يعرف سقفاً محدداً يتكأ عليه.

عادةً ما ترتبط أسعار السلع بالأمن السائد؛ فحين يسود الاستقرار، ترتفع قيمة الأشياء. لكن بغداد سارت باتجاه معاكس تماماً للقواعد. فأسعار العقارات اشتعلت رغم تدهور الأمن وتزايد أعمال القتل وتوالي التفجيرات التي تطال معظم المناطق الشعبية وحتى تلك التي تتبع جنود الاحتلال اينما تواجدوا.

ارتفعت الأسعار بشكل غير مسبق بعد إلغاء شرط التملك
الحصري لأبناء بغداد، ذلك الشرط الذي كان يلزم أن يكون
صاحب العقار مسجلاً على نفوس بغداد حسب إحصائية 1957.
هذا الإلغاء فتح الباب أمام أبناء المحافظات الأخرى وبالذات
الجنوبية التفكير بامتلاك عقار في العاصمة، لما توفره من فرص
عمل وخدمات ومرافق، كونها واجهة الدولة.

تلك التحولات أرهقت أحلامه، تسلمت إلى صدارة تفكيره دون
استئذان، وأصابته بحالة من الشلل الذهني. لم يعد يدري كيف يقتحم
جدار الصمت والزمن القادم ليحقق حلمه بامتلاك دار في أحد أحياء
بغداد الراقية. احتمالات تحقيق الحلم بدأت تتلاشى أمام آفة الغلاء،
التي أخذت تلتهم مدخراته وتسحق طموحاته.

مضت الأيام تتقلب، وتكشف عن صور جديدة لا تتوافق مع
أحلامه. رغم اختفاء صوت النظام السابق وانكسار عصا السلطة،
ورغم تدهور الأمن، بقيت أسعار العقارات تتكلم في نبرة عالية
متخذة من سلم الغلاء طريقاً لها، بقيت في تصاعد مستمر، بينما
ارتفعت أسعار السلع الأخرى بشكل طفيف. هذا التناقض جعله
يرى المستقبل بضبابية عقيمة، لا تتسجم مع تطلعاته الشخصية.

بعد أن كانت الأحلام قاب قوسين أو أدنى من التحقق، بدأ يشك في
إمكانية الوصول إليها وسط عتمة تلف أجواء الوطن. فقد ثقته
بالمستقبل وبنفسه، وأضحى يتخبط في سره، تاركاً أحلامه على
غارب الزمن، متأملاً منفذاً ينفذ منه لو هذة الرجاء. يا ترى؛ متى
ستستتب الأمور؟ هل يمكنه أن يعيش حياة طبيعية تفضي إلى
الراحة؟

كأنما أصابته إغماءة التغيير، كحال عامة الناس الذين تأملوا عودة
المياه لمجاريها بعد سقوط النظام السابق. البعض وجد في الوضع

الجديد متنفساً للتححرر، بينما بقي آخرون غارقين في عنق الزجاجة دون أمل. وكان قاسم من بين هؤلاء الذين خف وطأة القيد عنهم، متأملًا فرجًا قريبًا يقنّه حر الصيف وزمهرير الشتاء.

صار يفضض مع نفسه ويقول:

- "حتمًا ستهدأ الأمور، ستخف غبرة الفوضى، وتتضح جليًا الحقائق. سينجلي الهم وتعود المياه لمجاريها. حينها سأبدأ من حيث يستقر الوضع."

هكذا يطمأن حاله كي يكتسب الراحة التي تغلي على نار في داخله. لكن تسيب الأوضاع، وفقدان النظام، وازدياد الجرائم حال دون فسح المجال أمامه للعمل والتفكير بمنهج التطور التجاري. انفلات الأمن أوقف الحياة، وانقلبت الأوضاع نحو الأسوأ. صار يشعر أن الحياة تبخرت من أجواء بغداد، وأن العنف والحقْد والطائفية باتت هي اللغة السائدة.

أيادٍ خفية أججت الجمر، ولعبت لعبتها الخبيثة، لا مصلحة لها في استقرار العراق. أججت نيران الطائفية، وأدارت دفتها من خلف الكواليس، ليتمكن المحتل من فرض سيطرته دون مقاومة. همّها الأول أن يبقى الوطن في دوامة الفوضى، ليستمر النهب، وتُسلب المناصب، وتُغتال الأحلام.

تضاعفت أسعار العقارات بشكل غير مسبوق، ففي عهد النظام السابق كانت أقل بكثير من معدلاتها الحالية. ومع سقوط النظام، تأمل الناس خيرًا، فاندفعت خلف توقعاتها، تشتري العقارات في بغداد، وتبني أمالًا عريضة على مجريات التغيير. غير أن العقد المتجذرة في المجتمع لم تسمح لتلك الأحلام أن تنمو، بل حققت الواقع بالسم، وانتفضت في مكانها، لتدفع بالفوضى نحو تعكير المزاج العام.

خرجت الأمور عن السيطرة، وزادت الحياة قرفًا وإهمالًا في مساراتها. الناس باتت تركز إلى الزوايا، تحتفظ بما تملك من مؤن ونقود لأيام القحط القادمة، حسب تقديراتها المتشائمة. توقعت مستقبلًا أكثر سوءًا من ماضيها. كثيرون هاجروا، بحثًا عن سبل عيش كريمة خارج حدود الوطن، بينما بقيت الغالبية تعاني من انعدام الأمن والغلاء، خصوصًا الفقراء والمغيبين من الضباط العسكريين الذين جُردوا من مناصبهم على يد المحتل الغاصب. هؤلاء بقوا تحت رحمة الزمن، يأملون عودة الحياة إلى سابق عهدها، رغم الانحدار الملحوظ في منسوب الأمن.

وسط هذا المشهد القاتم، أوحى الأوضاع لقاسم أن يتحرك، أن يخرج من قوقعة الجمود قبل أن تضيق الفرص من بين يديه. قرر أن يرفق ذاته بمعين يعينه على التفكير، ويخرجه من قمقم العقد التي دفن نفسه فيها. أراد أن يسبق الزمن، ويدق أسفين أحلامه في لوح القدر.

بادر بشراء طقم ذهب خالص – 24 قيراط – لزوجته رُقيّة، تلك الصابرة القنوعة، التي لم تذق طعم الفرح الحقيقي منذ زواجهما قبل عشر سنوات. امرأة رضيت بالرزق الحلال، واقتنعت بالعيش تحت ظل زوجها، وتحملت تقلبات الظروف والفاقة دون أن تشكو يومًا. أراد أن يشركها في همومه، وفي تخطيطه لقادم الأيام.

في صباح هادئ، انحدر إلى سوق الذهب في الكاظمية، ذلك السوق الذي لم يعد يعمل إلا لساعتين أو ثلاث في اليوم، من العاشرة صباحًا حتى الثانية ظهرًا في أحسن الأحوال. تجول فيه، ثم اقتنى قلادة ذهبية 24 قيراط، تأملها بذوقه، وتخليلها ترفل على صدر رُقيّة، تلك التي شافت مع شقائه، وأراد أن يضفي بسمه على شفتيها، ويمنحها لحظة صفاء وسط ضباب المستقبل.

عاد إلى البيت وهو مسرور، حبور بإسعاد زوجته، لكنه كان وجلاً من وقع المفاجأة التي ستدوي في أرجاء البيت. تقلبت أفكاره وهو يرسم صوراً جلية في مخيلته: كيف ستستقبلها؟ لا شك أنها ستفرح، ستشكره، وستسأل عن مصدرها. حينها، سيكشف لها صرة المفاجأة، سيشاركها في همه وحلمه، سيجعلها جدار صد وأمان يحتمي به، لتعينه على جلد الأيام ومواجهة القدر القادم في التفكير والتصرف.

لا بد له من وكر يأوي إليه في أوقات الضيق والشدة، وسيجعلها ذلك الوكر الدائم، كما كانت دائماً ملجأ أمان وبيت حنان له، وصرة أسرارها، وبحر شجونه.

دخل البيت والبسمة تكسو وجهه، استقبلته حبيبته رقية بالأحضان، طبع على خدها قبلة طويلة. استغربت سلوكه وهي تبتسم فقالت له:....

- أراك على غير عوائدك؟ يا ترى ما الذي غير سلوكك؟
- لا شيء، لكنني اسألك يا حبيبتي... ترى كم سنة مرت على زواجنا؟
- غريبة أن تسأل هذا السؤال وتذكرني بحبيبتي مضت فترة عشرة سنوات تقريبا، خير ما الذي ذكرك في ذلك؟ أتود أن نجدد زفافنا، أن نعيد عهدنا ومحبتنا؟
- بالضبط، أحلم بذلك، الزمن أنسانا مشاعرنا، (حينها حضنها وقبلها قبلة أخرى ثم وشوش في أذنها بعاطفة جياشة). منذ عشرة سنوات وانت صابرة على فاقتي وهواني وقدري، خلالها لم أقدم لك هدية تفرحك. متحملة مشقة الحياة معي...
- المهم أنت في حياتي، وحالنا لا يختلف عن احوال الناس، الظلم عام ولم يخص أحد. ولكن أراك اليوم مختلفا عما أنت عليه في سالف الأيام، يا ترى... ما ورائك؟؟؟

- كل خير، وددت أن أفرحك وأن أعبر لك عما يجيش به قلبي تجاهك، لذا اقتنيت لك هدية بسيطة، أحزري ما هي؟....
- ساعة يدوية...
- أكيد لا....
- قميص نوم....
- أكيد لا..
- حذاء....
- ههههههههههههه، لا وألف لا..
- ألم تقل انها بسيطة، إذا تنورة....
- أكيد لا لا لا لا لا....
- حيرتني قلها وأرفع التكلفة عني.....

حينها أخرج كيس القلادة من جيبه دون أن يريها، قال لها:...

- ممكن أن تتلمسيها..
- أنها صلبة... ترى ما بها؟ أأكون معدن تضحك به عليّ لم أعرفك مهازحاً من قبل!!!!...
- ليست مزحة، تأملوها...
- قلادة فضية..
- هي كذلك مبروك عليك..
- نعم، ماذا تقول... دعني أراها؟؟؟؟ أنها ذهب خالص يا لحمالها....

أخرج القلادة من الكيس، ومدَّ يده ليحلقها في عنقها. لمع بريقها على صدرها، فصُعقت من جمالها، وانبهرت من وهجها، حتى اتكأت على صدر زوجها مذهولة. كانت المفاجأة أكبر من قدرتها على الاستيعاب، لكن السؤال تسلسل إلى ذهنها كهمسٍ غامض: من أين لك هذا؟

رغم الغبطة التي غمرتها، إلا أن خيطاً شفيفاً من الحزن والشك قيد فرحتها، عكس نيرتها. لعب الشك بذيله، ورفّ خيوط الذهن، وخلخل جوف القلب بصعقة ثمنها. إنها غالية، أكثر مما اعتادت أن ترى، أكثر مما تسمح به ظروفهما. من أين له ذلك؟

رفضت أن تتقبل الهدية دون أن تعرف مصدرها. لم يدفعها ضعفها للتنازل عن مبادئها، عن قيمها وكرامتها. كانت الرغبة تنزف حيرة في داخلها، ترغبها وترغمها على تقبلها، تدفعها لترتيبها، كما يقول المثل: "العين بصيرة واليد قصيرة."

دمعت عينها حزناً أمام لمعة ذلك العقد الثمين، لكن عبء الكرامة والتربية أثقل عليها الأمر. لم يكن بإمكانها أن تتقبل شيئاً دون معرفة حقيقته. إيمانها منعها من الانحراف خلف نزوة عابرة، وعزة النفس والعفة التي تربت عليهما منذ الصغر لوت رغبتها، حتى بدا الأمر سيئاً، لا قيمة له إن خالف مبادئها.

لم تسمح لنفسها أن تشجع زوجها على الانحراف عن الطريق الذي اختطه لنفسه. هكذا تربت، وشرأبت فيها العفة والنزاهة والشرف. تعلمت أصول الدين، وعاشت على ضوء القناعة. طوال خمسة وثلاثين عاماً من عمرها، لم تبتهج بحلي، ولم تعانق جيدها قلادة، رغم أنها كثيراً ما تمنّت امتلاك واحدة.

فالذهب بطبعه يضيء وجه المرأة، ويزح عنها شبح الخوف والفاقة، ويمنحها ثقة بنفسها وبمستقبلها. إنها مسألة نفسية بحتة، لكن النفس التي تعودت على الطهر لا تساوم على المبادئ، حتى لو لمع الذهب في عينيها كحلٍ مؤجل.

لكن تقبلها يعني اشتراكها بجريمة تلطخ بها جبين زوجها، كمن يمهّد السبل له لفعل جرائم أخرى، أو يمهّد الطريق له لمصير مجهول. يعز عليها أن تكبل يدي زوجها بقيود المآثم، أو تشجعه

على الموبقات وهي التي تعرف أصله وفصله ونزاهته. ذلك العفيف، الشريف، النظيف، الطاهر على ما تعرفه عنه عبر تلك العشرة الطويلة والالفة الحميمة.

الوضع لا يسمح لها تخطي المثل التي تغنت بها، فهي مكسورة الجناح. الظرف المهلهل عفس بمقدراتهم ولم تشكو زوجها.. أتنكسها قلادة؟؟؟!... ولكن من أين له كل هذا المال؟ لابد من أن أتعرف عن أصلها ومصدرها..

صارت تتسائل والشك يفرد جنونها ويغز شرودها، في واقع حال جعلها عصبية المزاج، مضطربة، ضاربة الأخماس بالأسداس دون أن تصل لنتيجة ويقين...

ذلك ما دفعها أن تسأل زوجها وهي مقتضبة الجبين، الحزن يلف بصيرتها، قالت له:....

- ترى ما السر الذي تخفيه عني وأنا عبر كل تلك السنين بمثابة ذراعك اليمين؟ أتعرف لي عما يكمن في داخلك ولا تعكر مزاجي وضوء العلاقة الحميمة بيننا ساطع؟.
- الحب كده.. الله ما أجملك حين تغضبين.
- من أين لك هذا؟ من أين جئت بالمال؟ قللي الحقيقة فلا أسرار بيننا. أعرفك طوال عمرك حافي القدمين وخالي الجيوب....

لم يعد بمقدوره كتمان السر طويلاً. كان بحاجة إلى طرف يشاركه حيثيات قصة الكنز، يعينه على اتخاذ القرار السليم، ويهديه إلى التصرف والتفكير المناسب في المرحلة المقبلة. فالنفس لا تستقر وسط اضطراب الوحدة، خاصة مع اقتراب عواصف العقد التي تهدد الوطن، رغم الهدوء الظاهري الذي يسود البيت.

ولعل ذلك ما دفعه إلى شراء العقد الثمين لزوجته؛ محاولة منه لخصم جزء من صراعه الداخلي، ولإيجاد توازن نفسي في خضم التوترات المتراكمة. إنها قضية ظرف، فالمجتمع بدأ يتغير، والناس باتت تبحث عن خصوم لها، العيون متربصة به، والحسد يرقص في النفوس كهوام تتغذى على الفرص. التلصص أصبح عادة لدى البعض، متعة يتسلون بها في مراقبة الآخرين، حتى طرق الجيوب تحولت إلى هواية يتقنون بها لإرضاء ذواتهم الأمارة بالسوء.

المشاكل النفسية التي استوطنت نفوس البعض تعمقت وتضخمت عقوقها، صارت تحدد مساراتهم نحو المادة والمصلحة الشخصية. فانعكست على المجتمع بقسوة، وأفرزت قطيع لا يرحم وقطيعة دون مبالاة، حتى باتت العقد لا تنسجم مع الواقع، بعد أن تبخرت الرحمة تحت وطأة الظروف المجحفة. لم يعد الناس يتغاضون عما يرونه أو يسمعون، وكلّ يبحث عن "الهبة" من زاويته الخاصة.

لذا، لا مفر من مصارحة زوجته بالحقيقة. فالوحدة قد تلتهمه، والآخرين قد يصطادونه في لحظة ضعف. يحتاج إلى من يسنده، من يشاركه التفكير والتخطيط، من يعينه على مواجهة تقلبات الأيام القادمة. وزوجته أقرب شريك له في الحياة، هي الأجدر بأن يضع ثقته فيها، خاصة بعد اضطراب الأسعار وارتفاع قيمة العقارات مقارنة بما كانت عليه قبل سقوط النظام السابق. المصارحة لم تعد خيارًا، بل ضرورة... وهو موجهها كلامه لزوجته:...

- لا تسيئي الظن بزواجك يا جميلة، أنت قد عشتِ معي سنينًا طويلة دون أن أنحرف قيد شعرة، كل ما في الأمر بأنني أعتز بك كزوجة، فلم تطالبيني بشيء فيما سبق، وأنني وددت أن أكافئك بهذه الهدية.

- تعرفني وأعرفك، ونعرف البير وغطاءه، أنت لا تملك شيء والعيشة مرة ومستورة بشق الأنفس والحمد لله، أرح قلبي وقل لي من أين لك هذا؟

صار يبتسم ويمازحها بخواطر من المحبة ...

- الحب كده.. خصام، غرام، وشك بالحبيب.. ههههه... يا امرأة ثقني بي ولست ممن يمد يده على الحرام. لم أكن ارضى بالحرام وأنا شاب أكون لي ذلك وقد تجاوزت الأربعين؟
- إذا قل لي الحقيقة؟
- لقد عثرت عليها في الطريق...

كشرت بوجهه وشدت من نبرتها....

- لا تلعب بأعصابي، فلست على مزاج كما ترى، أنتظن بأنني لعبة بين يديك، أفصح عن أمر العقد؟

لم يصبر أمام حيرتها فكشف لها المستور...

- يا حبيبتي، يا نور عيني، إلا يكفي قد عشنا فترة الظلام معاً، لقد رأف الله بنا وأنار دروبنا. لقد رزقنا الله من حيث لا نحتسب.
- والنعمة بالله، يكفينا إيماناً به وبرزقه.
- أتذكرين يوم ذهبت للمحل بعد السقوط بيوم واحد؟
- نعم أذكر.
- أتذكرين حين عدت بوجه مستطير صاحب تسيطر عليّ الحيرة، حينها تجهم وجهك بعد أن وجدت تغيراً قد طرأ على محياي... حينها سألتني؛ ما بك؟ ماذا جرى لك؟ لم أنت مضطرب ومتاكئ؟- حينها قلت لك لا شيء، إنما تأثرت

- أنتِ تمكنت من عدها؟ ...
- نعم... ما بك؟ لا تفضحينا...
- بالك مطمأن وهي بعيدة عنك؟
- ماذا في ذلك؟

..بعد أن استراحت قليلا..

- أفرض سرقوا دكانك وهو لا يقيم خمسمئة دولار، فلا يوجد فيه غير بالات أسمال وأطمار بالية، فماذا تفعل حينها؟ يجب الآن نأتي بالمبلغ للبيت، فالبيت أأمن وأكثر راحة بال لنا....

صارت تشكر الله على رزقه.. رحماك يا رب ... رحماك يا رب...

- أسمع الآن تذهب وتأتي بالكنز على الفور، على الأقل ننام دون قلق واضطراب نفسي، على الأقل نحن نكون حراس عليه.. لا بل أنا وأنت نجلبه سوى كي لا يشك فيك أحدا.... اليوم أن لم نجلبها فلن نخلد عيني إلى النوم، هيا جهز نفسك.

سالت زوجها بحيرة وتعجب..

- هي يا هذا.... كيف تحملت سكوتك على الكنز كل تلك الأيام؟ أي قلب تحمل؟
- لم اكن على ما يرام، والأوضاع على شدتها في حينه، وخفت أن كاشفتك السر تفضحين أمرنا دون قصد منك، ربما نفتضح أمام الأولاد وفي الحارة. في الأخير لم أتحمل ثقل الكتمان، فقلت لابد من إشراكك معي، كي تعينيني على حملها والتصرف بها، لذا اشتريت القلادة لأفتح بها قلبي لك، لأدخلك في معمعة الحسابات التي أرهقتني.

- أنت مجنون؟... نفتضح أمام الأولاد ولا نسرق من قبل الأوغاد... لا تضع عراقيل أمام مسعانا، ثم لا تخف؛ أني سأحتفظ بالدولارات في خزانة ملابسي، لن يتجرأ أحدا العبث بها، على الأقل تكون تحت أنظارنا.
- جهزي لي حقيبة ملابس صغيرة... لالا ؛ من الأفضل أن نقتني واحدة من سوق باب الشرقي كي لا يشكوا بنا المتربصون من الجيران.
- أحسنت؛ أنها فكرة صائبة، خمس دقائق وأكون جاهزة، أنت نادي على أبنك كي يبقى في البيت ولا يبتعد عن الدار حتى عودتنا، الوضع لا يطمأن أحد.
- فعلا، دعهم يبقون في البيت هو وأخته ولا يخرجون منه حتى نعود.

انطلق قاسم وزوجته رقية نحو باب الشرقي، القريب من دارهم. اقتنيا حقيبتين: واحدة متوسطة الحجم، وأخرى أصغر، من تلك المصنوعة من خيوط النايلون الرخيصة، زهيدة الثمن، شائعة الاستخدام، ذات أشكال مكعبة وأحجام متعددة. اختارا الحقيبة بعناية كي لا تلفت الأنظار، فهي عملية وسعة حجمها تخدم الغرض دون إثارة الشكوك.

بعد اقتناء الحقيبتين، استأجرا عجلة أجرة من ذات الشارع، ذهاباً وإياباً إلى ساحة الميدان. وصلا قبل الغروب بساعة أو أكثر قليلاً. كانت حركة الناس محدودة، لكنها تسير كالديب في الشوارع، في عجلة من أمرها، تحاول إنجاز ما تبقى من مهامها اليومية قبل أن تغيب شمس اليوم وتدنو ساعة العسر. ففي العتمة تختلط الأوراق وتباح الجرائم، تنتشط المصائد والمكائد والتجاوزات والسرقات. حفاظاً على انفسها قوات الأمن تتسحب إلى مخابئها، وربما تكون هي من تستغل الفرص لصيد "الفئران المنفلتة". لذا، كان الجميع منشغلاً بهمة تسابق الزمن لينهي مشوار همه مجنباً نفسه المخاطر.

ذلك الهاجس المشترك كان متوتراً، عويصاً، طاغياً، يفرض حضوره على النفوس، يقترب من ذروته مع بدء هطول الغسق. فلا بد من إنهاء المشوار والعودة إلى البيت قبل أن يصابه الخوف الغسق وتتدمج الإرهاصات بالعناء والقدر، حيث رحلة الرعب تبدأ مع نثار غبار العتمة المتدفق عبر الأفق الشرقي. عندها، تتحول المدينة التي يلفها هدوء مؤقت، إلى غابة تجوبها الوحوش الضارية، فلا أحد يأمن على نفسه.

توقفت العجلة أمام دكان صغير. دلف قاسم ورقية إلى الداخل بعد أن طلبا من السائق الانتظار لدقائق وتيرة، وأخبراه بأنهما ينويان

نقل بعض ملابس البالة إلى ذويهم ومعارفهم من الفقراء والبسطاء. لم يطيلاً البقاء. وضعاً كيس النقود داخل الحقيبة، ثم دفناه بكِّمٍ وافر من ألبسة البالة المستعملة والأغطية، لتبدو الحقيبة طبيعية تماماً، لا تثير الشك والريبة.

حمل قاسم الحقيبة ثم وضعها في صندوق العجلة الخلفي، وأغلق الغطاء بإحكام. جلست رقية في مكانها وقبل أن يلتحق بها قاسم، ناداه جاره أبو عصام:...

- الحمد لله على السلامة يا أبو محمد، ليس من عادتك لا تسلم علينا، كأنك نسيت أخوتنا، اشتقنا لك، لم نراك منذ زمن، لم أشاهدك تفتح محلك منذ مدة، ترى هل عوضت عمل البالات بعمل آخر؟ أخبرنا اشتقنا لسماع إخبارك، إن شاء الله خير.

أمتعض قاسم في داخل نفسه من وجوده وسؤاله الغير مناسب في وقت غير مناسب، حيث يعلم بخفايا نفسيته الدنيئة اللوححة وبُعد عينه الحسودة؛ لقد ظهر في وقت ميت، مشلول، ثقيل، حيث ليس الآن وقت تثريب وتأنيب، فيما زوجته كتمت أنفاسها وغيضها داخل صدرها لكثرة اغتيابه من قبل زوجها في سابق الايام. بقيت في حيرة من أمرها وهي تنصت على حديثهما باضطراب. هجست بذلك القلق يسري في عروقها كجريان الدم، خوفاً من أن يكون قد شك في أمر حضورهما دون سابق إنذار...

- ههههه، لا لم أنساكم ولكني جئت مع أم محمد لغرض خاص بها، كما أنت أعلم بالظرف يا أبو عصام، الأوضاع لازالت مهزوزة وغير مستقرة، ولا أريد أن أجازف بحياتي من أجل أمر تافه.. وهل أبيع ذهباً كي أواظب على العمل! أنها مجرد أسمال بالية استغنت عنها الناس. ثم الناس همها

الأمان والأكل وليس اللبس في هذا الظرف المقيت الحاد..
الله كريم، اليوم أنا مشغولٌ مع أم محمد، وغدا بإذنه تعالى
تتفرج وأكون هنا.

أبو عصام دائماً ما يتحلا بالفضول الزائد، لذا ود أن يستفسر عن الكيس وما فيه....

- وما قصة هذا الكيس الذي حملته، هل أصبحت تتاجر في أماكن أخرى؟
- ههههههههه، قل غيرها يا أبو عصام... لا بل قل هناك من هو بحاجة لها وليس لديه القدرة على دفع ثمنها في هذا الوقت العصيب.. أني أتصدق بها على المحتاجين والله قد أوصانا بالأقربين، عسى أن ندفع البلاء عنا، أنت أدري بالأوضاع المتقلبة، لقد ساءت كثيرا وانفلتت الأمور وانقلب كل شيء رأس على عقب، الحالة شملت الأغنياء والبسطاء على حد سواء.. هذه الفوضى التي لا تهدأ أربكتنا، جعلتنا نحلم بالماضي القريب.... على أية حال شكرا لسؤالك لابد من أن أذهب، صاحب التاكسي مستعجل وأنا أيضا في عجلة من أمري والوقت ليس وقت مجادلة.
- صدقت أصبحنا في تيه لا يعلم به إلا الله... مع السلامة، مع السلامة يا أم محمد.
- مع السلام... قالتها بشيء من عدم الرضا.

أربكه سؤال أبو عصام، زلزل توازنه، حتى كادت ساقاه أن تخوناه من فرط التوتر. تسارعت نبضات قلبه، واشتد عليه الضغط، كأن السر الذي يحمله على كاهله أوشك أن تنفقت خيوطه، أن ينفلت من قبضة ضلوعه بفعل الإلحاح الذي مارسه جاره. كان الفلق ينهش أعصابه بلا رحمة، ولم تهدأ حالته إلا حين دارت عجلة التاكسي دولبيها هاربة به إلى جوف الفضاء النفسي تحت سقف الغروب،

مبتعدا عن قبضة الحرج التي كتمت أنفاسه. وما إن تحرر من ذلك الموقف، حتى تنفس الصعداء قائلاً:....

- كم لحوح هذا الرجل، لا يقدر ظرف ولا وقت.
- قال السائق: بعض البشر يتسمر بالسفاهة..
- صدقت يا أخي...

لم يكن في وضعه الطبيعي، بل كان في مهمة بالغة الخطورة، ربما الأخطر في حياته كلها. صدق المثل القائل: "من في جعبته عنزة تمعمع". كان الخوف والقلق على وشك أن يفضحا سره، ولولا اصطحابه لزوجته، لربما انكشف أمره. فقد أدرك أن حضورها يضفي على المشهد ظلاً من الأنوثة، يربك المتتبع ويعكس الصورة في نظر المراقب، ويبدد الشكوك المتسللة من نظرات أبو عصام اللوححة، اللماحة، التي لا تعرف الرحمة.

في زمن مضى، كان هناك صديقان حيمان، لم يختلفا يوماً، ولم يفترقا قط. جمعتهما ألفة نادرة، واحترام متبادل منذ نعومة أظفارهما. كانا يُضرب بهما المثل في الوفاء، حتى باتا محسودين من قبل الأقربين والغرباء على حد سواء، لما اتصفا به من صفات نبيلة، وعلاقة متينة عضدتها أصرة من التبجيل والاعتبار. كانت صداقتهما جداراً منيعاً، لا تهزه ريح، ولا تنال منه العواصف.

وفي أحد الأيام دخل بينهما الشيطان، بينما كانا يسيران جنباً إلى جنب في زقاق مغبر، حين لاحظ أحدهما ورقة خضراء مستطيلة الشكل، يدحرجها الريح أمام أقدامهما. استوقفه شكلها الغريب، فساوره الشك بأنها ليست عادية. دفعه الفضول لالتقاطها، بينما كان صديقه غافلاً عنها. وما إن تمعن بها، حتى اكتشف أنها ورقة نقدية من فئة 100 دولار أمريكي، لم يسبق له أن رآها أو تعامل بها من قبل.

في البداية ظننها مجرد صورة أو إعلان، لكن حين تحسها بأصابعه، أدرك أنها حقيقية، ورقة نقدية صحيحة. غلبته النشوة، وبحسن نية فطرية، أخبر صديقه الذي لم يكن منتبهاً عليه، وكأنما أراد أن يشاركه لحظة الاكتشاف، كما شاركه الحياة منذ الطفولة:...

- رعد؛ لقد عثرت على 100 \$، كنت أعتقد أنها مجرد صورة عبثية مفبركة، لكنها أتضح أنها ورقة نقدية حقيقية، سليمة.
- دعني أرى يا أحمد (أخذ يتفحصها وحين تأكد بأنها سليمة 100%، تمسك بها) قال لأحمد: نعم أنها حقيقية، فعلا 100 \$ صحيحة، إذا دعنا نذهب إلى الصراف نصرفها ونتقاسم قيمتها.
- وما علاقتك بها؟! أنا الذي عثرت عليها، فهي من حصتي كاملة.
- لكننا نسير معا جنباً لجنب، ثم أنت صديقي المقرب، كل الأشياء مشتركة بيننا ودائماً نتقاسمها، فنحن نتقاسم المرة والحلوة، فلو أنت تأخرت قليلاً لكنت أنا الذي التقطها، إذا لي حق المناصفة.
- مستحيل! كيف تحشر نفسك في رزق دلقتها الصدفة أمامي، أنها رزق من الله، فلو كان لك بها حظ ونصيب لانتبهت عليها قبل أن أنتبه عليها، هي لي كاملة لن تأخذ منها سنتاً واحداً، هل فهمت؟
- بل لن أدعك تأخذ نصيبي منها، مثلما لك فيها، لي أنا حظ النصف أيضاً. لا تك أنانياً مجحفاً، نحن دائماً نشترك بالأشياء.
- أنا لست أناني، لكنك وضع تحشر نفسك فيما لا يعنيك، تغتصب ما ليس لك حق به، هات المئة دولار.
- لن أعطيها لك، يجب أن نتقاسمها مناصفة.

تمسك الأثنان براهبهما دون أن يتنازل أحدهم عن طمعه، طمع رعد غلب حلمه وكذلك حلم أحمد راغ في صحن طمعه وبخله، فأشد العناد والصياح بينهما ومن ثم ارتقت الحالة إلى مرحلة الشجار حتى طالت الأيدي الأجساد، فأدمى أحدهما الآخر، مثلما تمزقت ورقة المئة دولار إربا إربا دون أن تصيح من نصيب أيًا منهما.

وعلى أثر تلك الواقعة والخصام؛ افترقا دون أن تهان بينهما الأيام أو تجمعهما في لقاء ألفة وعودة. أصبحت تلك الورقة جدار فصل دائم بين الأثنين، كأنَّ الشيطان قد تمثل لهما بتلك الورقة النقدية نتيجة حسد الناس والطمع الذاتي، فجعل بصمة الطمع تلتخ جبينيهما بالفرقة والعداء إلى الأبد.

إذا كانت ورقة مئة دولار فرقت صديقين حميمين، فماذا سيفعل نصف مليون دولار بخصمه اللدود الحسود، ذلك الذي تعشعش في مخه مستوطنات بكتريا الطمع التي تغشي نظره وروحه بنتن قرفها. أكيد أنه سينتقم، سينتقم أبو عصام مني إذا ما علم بقصة الكيس المرمي بين دكانه ودكاني، فهو جاري، لا يفصله عني سوى جدار عازل، هذا يعني بأنه سيطالب نصف المبلغ كون الكيس مرمي بين الدكانين. ذلك ما جعله يقلق من سؤال أبو عصام في الحظة التي كان يود الهرب بالكيس من وجوه معارفه.

خلال تحرك التاكسي صار يدعوا الله همسا، خانعا، مستسلما لمشينة ربه

- يا رب ارفق بنا، الطف بعبدك المسكين فلسنا من أصحاب السوابق كما تعلم، ولسنا سوى من عبادك القانطين تحت ظلك، أبعد عنا عناء الشر وغل الحاسدين الحاقدين...

وصلا البيت بسرعة دواليب التاكسي مخترقين حاجز الخوف، متجاوزين أزمة القلق، ما أن وصلا حتى انتعشت أوصالهما

بالرضا، كأنهما خرجا من معركة غير متكافئة منتصرين يلوحون
بشارة النصر في وجه الزمن، محيطين ذواتهما بسور من الأمان
والمستقبل.

أدخلا الحقيبة لغرفة النوم، دون أن ينتبه عليهما الأولاد اللذان كانا
منشغلين مع أولاد الجيرة أمام عتبة الدار، فلم ينتبه عليهم أحدا من
الجيران... دسّت أم محمد الحقيبة في خزانة الملابس ثم أقفلت بابه
بمفتاح علّقه في جيدها، ثم اتجهت للمطبخ لتعد وجبة عشاء تريح
بها أعصابهم والتي كانت قد هيأت مستلزماتها مسبقا.

في اليوم التالي، لم يذهب أبو محمد (قاسم) إلى دكانه. لم تعد مسألة البيع والشراء ذا أهمية تلهيه، بعدما اطمأن إلى وضعه المادي وأمن مستقبله بما رزقه الله من نعمة تكفيه لعمرٍ كامل. ومع دفء الشمس وتتهذات الصباح، اقتنى دجاجةيتين وبعض الخضار والفواكه لأُم محمد، لتُعد وجبة غداء مرموقة تعبّر فيها عن فرحتهما وابتهاجهما بما نال حظهما من فضل الله، والذي ميّزهما عن كثيرين ممن يتأملون فتناً يسدوا رمق اليوم أو الشهر، في وقتٍ بات فيه الشلل يزحف إلى خاصرة الوطن من كل حدب وصوب، تلك الأفة تصيب ضعاف الحال بعاهاث في تدبير الرزق.

ومع مرور الأيام، بدأت الحياة تتقيد، تنقلب بين المقام والبسط، تنفرج في زاوية وتختنق في أخرى. فلقسوة الظرف سلطة، دفعت الناس إلى كسر واقع صمتهم إلى الالتحاق في صفوف الجمع، إلى المجازفة بحياتهم لعبور حاجز الصمت، لأن عجلة الحياة لا تتوقف مهما تعقدت الأحوال. لا بد من استمرار المطاعم والمخابز والمحلات التجارية، فكيف للناس أن تعيش دون طعام وشراب ومصدر رزق يعيل الفرد وعائلته؟ وكيف تُدار الحياة دون رعاية صحية ومستشفيات؟

لا بد أن تفتح المستشفيات أبوابها، أن تكون جديرة بالثقة والأمان، لتستوعب الأعداد المتزايدة من المرضى والجرحى، نتيجة التفجيرات المتكررة واشتداد المقاومة هنا وهناك. لا بد من وصفة سحرية تعيد للبلد كرامته وثقته بنفسه، فالعقد تلاحق الجميع، جنود الاحتلال وأبناء الشعب على حدٍ سواء. ومن الطبيعي أن ينال غير المحظوظين نصيبهم من هذا العنف الدائر، فالرصاص والشظايا

العمياء تطال أجساد الأبرياء من المارة والمساكين، ممن لا ناقة لهم ولا جمل في هذه المعمة التي لا يبدو أن لها نهاية قريبة.

لا بد أن تعود الحياة إلى مجاريها، ولو رويداً رويداً. فقد جزعت النفوس من حالة الكسوف والخسوف التي تخيم على البلاد. من يتحمل هذا السقم بكل مغالاته؟ حتى المحتل نفسه يحتاج إلى عودة الأسواق لسابق عهدها، ليتمكن من بسط نفوذه وتحقيق مبتغاه. ففي ظل الفوضى، يبقى الفرد يبحث عن ثغرة ينفذ منها إلى جهة الأمان، ليفض غله في جسد المسبب الرئيسي لهذا الخراب.

كل أوساط المجتمع صارت تشكي حالة الجمود والقحط. فالقسوة لها حدود لن تحتل إذا ما تجاوزت حدها ومدتها، لذا بدأت الناس تفك أزماتها بذاتها، غدا لون المجتمع قاتم، بل في بعض الأماكن الشعبية صارت أكثر سوداوية مما هي عليه في المناطق الراقية، للضعف العام السائد اقتصاديا في المجتمع.

كل شيء بات يعرج في مسراه، يأخذ وقتاً أطول من المتوقع كي يستقيم ويقوم، مع ذلك سارت الحياة رتيبة وبأنفاس منقطعة، غير مرضية، متحملة القسوة المفرطة تحت وقع تنافس الأحزاب الجديدة على الكراسي من جهة؛ وزحمة الميليشيات الدخيلة المستحدثة والعابثة في أمن الدولة من جهة أخرى، كل يود بسط نفوذه على منافذ الدولة وسدة الحكم تحت ظل المحتل الغاصب، فارضاً قراره الموائم لتطلعاته.

دلف أبو محمد لغرفة النوم لتبديل ملابسه وأخذ قسطاً من الراحة والاسترخاء، كان قد غص بذاته في منتجع الأحلام تخطى حدود العجز التي كانت تكبله، باتت تنهمر على ذهنه أفكاره كسلسلة منقطعة خرزها، أو كرزاذ مطر تلطف الأجواء، تذكر ماضيه

الجلف، متأملاً مستقبلاً سلساً باهراً على ضوء ما وعده النصيب وما وصف له الحدث.

دلف للغرفة ليرتدي لباسه المعتاد الدشداشة البيضاء التي تعود أن يرتديها داخل البيت.. وهو ماض في سرحانه، مرت على باله أشرطة أيام القحط والتصرم التي لا حقه منذ ولادته دون أن يستطع أن يكف جماحها ويلين أهوائها. لاحت له ساعات الحزن والتحسر. أيام مرة جلده، خصفت عمره بسوط الفقر، منعته من تكملة دراسته، أخرته في مشواره وفي تأملاته وزواجه عن أقرانه.... حينها سقطت على حافر الخد دمة حزن دافئة، صار يقرأ الأدعية ويشكر ربه على لفتته وعطفه وأن جاءت متأخرة، كما صار يعد ذاته لغده الجديد، ليرمي تلك الايام السوداء بحجر الوداع، لينسى همه ويترك أحزانه خلف ظهره. حينها عرف بان رحمة الله لا تحل إلا على العبد المتزن المؤمن وأن طال الزمن.

يقول الله في سورة الطلاق- " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتَّقِ الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب". صدق الله العظيم.

وقبل أن يجهز الغداء عاد وجلس في الصالة الصغيرة حيث البيت لا يتجاوز مساحته 100م² يتكون من غرفتين صغيرتين وصالة، تكاد لا تزيد مساحتها عن مساحة الغرفة الواحدة، وفضاء حوش صغير مبني فيه حمام ومطبخ إلى جانب منه. على طرفي حوش البيت كان قد ربط سلك معدني (السيم) لنشر غسيل الملابس عليه.

كان قد عاد محمد قبل فترة الغداء بفترة وجيزة، أتبعته أمه على تأخره خارج البيت لسوء الأوضاع التي لا تسر، قائلة له:.....

- يا بني؛ لِمَ لا تسمع كلامي وكلام أبوك، الوضع غير آمن وأنت تذهب بعيداً، أتدرى لو جرى لك مكروه ما لا سامح الله؛ سأموت من بَعْدِكَ قهراً! ألا تعلم بأن الصهاينة يسلون أنفسهم بقتل أطفال العراق! هؤلاء المحتلين القذرين ليس في قلوبهم رحمة اتجاه الطفل ولا الكهل، ناهيك عن فرق الموت المتوحشة التي تجوب الطرقات لتنتقم من أبناء البلد.
- لا تخافي يا أمي: أبنيك رجل وليس طفل، ثم أنّ هناك من أهل المحلة صاروا يؤازرون بعضهم البعض خوفاً من هجمات عصابات النهب والسلب التي طالت بعض مناطق بغداد مثل حي العامرية وحي العامل والجهاد، حيث بعد أن أفرغوا البنوك والوزرات ركزت تلك العصابات هجماتها على الأحياء السنية لسرقة البيوتات بدوافع طائفية مقيته.
- من قال لك هذا ؟ سأله أبوه..
- لقد تشكلت قوة من شباب المحلة لتحرس البيوت من العابثين الغرباء، كل من يملك سلاحاً، بندقية كانت أو مسدساً أو ساطوراً أو هراوة وعصي، فليتقدم في الدفاع عن محله.
- حسنا فعلوا! هذه العصابات الدخيلة موجهة، تقف خلفها أجنداث تخطط لتدمير البلد، حتماً يستقون أوامرهم من أسياد لهم خارج الحدود؛ وإلا ما كان لهم تلك الجرأة التي يتصفون بها أملاً بارتقاء سلم السلطة وترهيب الشعب وتهيج الطائفية.
- ربما النعرات الطائفية بدأت تأخذ سعة في مجالها وتبرز بين الأهالي، إضافة للثأر والكراهية تجد فرص جيدة تعينها تحت غياب القانون، ربما العنصرية نبتت لها جذور وسط الرعية وأستفحل عودها، كل شيء جائز في خضم هذه المعمعة... هكذا أجابته أمه..

- يا أبني أسمع كلام أمك... لقد كنا من أنظف الشعوب وأطيبها، كانت البساطة هي هويتنا، لا ينحرف فكرنا عن حدود قيمنا ومنهج ديننا الحنيف بشعرة. ها أنت ترى أمك من الطائفة الشيعية وأنا من الطائفة السنية... تصور؛ حين كنت طفلاً كانت الناس تنام كمجاميع في وسط المحلة لصغر بيوتاتهم، الآن نتجنب الجار وغيره الجار ونحن قانطون في غرف محكمة أبوابها. صارت المشاكل والهفوات تطرق ببياننا دون خجل ودون أن. أنا فعلاً سمعت في منطقة العامرية وحي العدل حدثت سطوات على بيوتات الأبرياء في عز النهار.
- يقولون بأن العصابات تأتي من خارج بغداد وآخرون يتهمون عصابات تخرج من قصبات بغداد الشعبية كمدينة الثورة، ويقولون من خارج الحدود جزافاً والله أعلم، عصابات تحمل نزق الطائفية، قسمٌ منها تقودها عمائم مدجنة بخبث النية، الكل يسعى لخراب وتدمير الوطن.
- صدقت يا بني، فأحذر لا تتباعد عن البيت.

وسط هذا الخراب العميم، برزت أحزاب طائفية تنهش في جسد الطوائف الأخرى، لا سيما تلك التي تتلقى دعماً لوجستياً من الخارج، أو التي تسلمت سلالماً السلطة وهي تروج لأجندة المحتل. كثرتها أفقدتنا القدرة على حفظ أسمائها، بعد أن كنا نرتاب من الحزب الأوحده، فإذا بنا أمام طوفان من الفرق والتيارات، قُدِّر عددها بأكثر من مئة وعشرين حزباً وطائفة، بين سنة وشيعة وأقليات أخرى.

أسماء شتى طفت على الساحة كالقواقع، كل يدعي الوطنية والشرعية: الشيوعية، الدعوة، الحكمة، الصدريون، أنصار السنة، أبناء عمر، أبناء محمد، الفاطميون، حزب الله، ربيع الله، السلفيون،

أنصار محمد، الفضيلة، حزب أم علي، حزب الراقصة ملايين، أبناء المحسنين، الماكرون، الناجون، المغيبون، الخراصون، الخراطون، القانطون، الجشعون، النصابون، النسابون، السفسطانيون، المجددون، الأخمينيون، الدراويش... والقائمة تطول.

يتنازعون فيما بينهم على المال والمنصب، منشغلون بجمع أكبر ما يمكن من الثروة وتكديس النفوذ، بعضهم مدعوم بمليشيات، وآخرون يتخفون خلف عباءة الدين والقومية لكسب رضا الجمهور، وغيرهم تائهون خلف مصالحهم الذاتية ونواياهم الخبيثة الملتبسة.

في زاوية أخرى من هذا المشهد، كانت رقية تتوضأ، وقاسم كذلك. صلياً الظهر وصلاة الشكر، كل حسب مذهبه: هو على المذهب الحنفي، وهي على المذهب الجعفري. ثم فرشت السفرة، وأعدت الطعام في الصحون. طبخت البرياني بالدجاج، تلك الأكلة العراقية المحبوبة التي تختلف تماماً عن البرياني الهندي المتداول في الخليج... وقبل أن يبسموا وتهتم أيديهم بنسف الغداء، رن جرس الباب، ثم دخل جاسم بصوته الأجهش، دون استئذان. السلام عليكم...

- وعلیکم السلام.
- رد أخوه قاسم- تفضل، ها قد جئت في الوقت المناسب قبل أن نبدأ غدانا، كم نيتك طيبة يا أخي.
- انا موعود بالآكل الطيب، وعلى نياتكم ترزقون، ههههه.
- ماهي أخبارك؟ ماذا تفعل؟.. سأل قاسم أخوه
- الروتين يفرض نفسه، كنت مارا في الميدان ورأيت دكانك مغلق، التقى بي جارك الطويل، النحيف، ذات العيون الصفراء سألني عنك وقال لي بأن أخوك مشغول ووضعه مضطرب وحالته غير سوية هذه الأيام، لربما يمر في أزمة

لا يود الافصاح عنها، فقررت أمر عليك واستقصي وضعك، ربما تكون بحاجة لغرض ما إن كان بإمكانني اسديها لك.

- دعك من هذا التافه، الطرطور، أنه لحوج ولجوج وثقيل دم، لا يكف عن طبعه القذر وهو يحاول التلصص على أخبار الآخرين، غامسا أنفه في كل صحن يقابله... سألتك عن حالك ووضع شغلك؟ كيف تسير الأمور معك؟ وكيف صحة الوالدة؟

- الوالدة بخير والحمدلله، أما من طرف المستجدات فلا جديد، نتجول في الشورجة ونستخرج قوت يومنا بتقطيع الأنفس.

- المهم لا تتكاسل أمام الرزق... قل لي؛... هل لازلت تتبع اهوائك في البارات ودور المباغي؟ أم هداك الله وعزفت عن مرافقة الموبقات.

- لا هذا ولا ذاك، أن كنت لا أجد فرصة عمل حقيقية في هذه الفوضى الدائرة؛ من أين آتي بالمال لأشتري الخمر.. لا لا أطمأن، الجيب خالي وضعيفة أحوالي ولا جاه يعين ولا ويحن والي والحمد لله.

استخرج قاسم من جيبه مئة دولار ووضعها في يده..

- خذ هذا مصرف لك ولأمك وأمانة عليك لا تشتري به خمرًا.

- أيه يابا... (مبتسما).... أصبحت تلعب بالدولارات وأخوك حافي القدمين يتأمل صدقات الناس تحل عليه، هيا جود علينا بما جاد الله عليك.

- ههههه لا ليس كما تظن، لقد ربحنا بصفقة دسمة خمسمائة دولار، وها أنت جئت وخطفت منها مئة، هههههه هذه هي كل الحكاية.

- شكرا لك أخي، الله يزيذك.
- آمين..

دخلت أم محمد الصالة وفي يدها صينية الأكل تحوي صحن مليئة برز البرياني، فيما كانت قد جابت سلطانية مرق الفاصولياء مقدما. كانت قد نست أن تخلع العقد الذي ابتاعه لها زوجها عن جيدها قبل أن تشرع بصب الغداء، حينها لفتت منظرها أنتباه جاسم، فلم يكن قد رآها سابقا ترتدي قلادة ذهبية، وكان طبع الفضول يغلب طبعه، فلم يمنع السكوت عن فض ما يجيش في داخله، فقال لها مبتسما:....

- الله يا أم محمد؛ هذا عقدك جميل جدا، في الظاهر أصبحت أغنياء فجأة، عيني عليكم باردة، الله يرزقكم عسى أن ترزقونا!

- بسم الله الرحمن الرحيم، قل أعوذ برب الفلق ومن شر ما خلق ومن شر حاسد إذا حسد...من أين!!!...يا حصرتي على أبو محمد، (الفقير فوق الجمل وعضه الكلب).

ردة فعل أم محمد كانت سريعة، دلالة على شدة الحسد....ثم تداركت نفسها بلفتة سريعة حين أزفت الموضوع لعهد زواجها حيث قالت له:....

- أتدري هذا هو عقد زواجنا، هو هدية عرسي لم أرتديه منذ زواجنا، فقلت مع نفسي دعني البسه ولو مرة قبل أن أعطيه لأخووك يبيعه، فأنا العيشة أصبحت ضنكة، مرة، هميمه، يقولون قيمة الدينار هذه الأيام مرتفعة.
- أنا أكثر معرفة منه بالسوق، فعلا الدينار ارتفعت قيمته، هات العقد أبيعه لك!.

عن وصف هادئ في رؤى الأيام الدائرة
كي لا أغادر رصيف عينيك
ولا أغلق أدرجها
وكي لا تتوقد في كنفي المجرمة...

بوجودك يتجدد البيت
ربما حين أمسى ثغرك تضيء جوارحي
وربما حين غفوت بوجداني
تبسم لنا الحظ وتودد.
يا ترى...
هل أوقدت في ثناياك فتائل المعبد؟

- بل ظفرت بكل مفاتيحي، جعلتي أشهق لاحتضانك، آه كم
كلامك جميل، أنت لم توقد الروح فقط، بل جعلت كل كياني
شعلة.

عندها أرتمت في حضنه، قبلته من خده قبلة طويلة، ثم قالت له:..

- أنت كل حياتي.....

عندما خرج جاسم من المنزل كانت قد نمته أم محمد، قالت عقبه:....

- يا رب كم وضعت فروقا بينه وبين أخوه، أحدهم دمه
أخف من الماء وآخر دمه أثقل من رغوة الطين. غليظ،
دمت، لا أحبه... والله لولا أن يكون أخوك لطرده من
الباب، كأنكما لم تنزلا من ذات الرحم.

- يا امرأة؛ ألا تريه قد عاقب نفسه بهذا الإهمال، أو عاقبه
الزمن والظرف، لا بيت يأويه ولا زوجة تحويه وتحتمل
عجرفته. لا عمل له ولا مشغلة تشغله، شخصية مهزوزة

منبوذة من قبل الجميع، لا كرامة له ولا حلة تجلّه...
أتريدون إزاء كل ذلك الغضب والظلم أن أزيده غضبا
وظلما، إلا يكفي ما هو عليه؟ دعينا نترحم على الأقربين-
قبل أن يترحم علينا الغرباء، عسى أن يذكرونا بالخير.
دعينا من سيرته، دعينا نطوي صفحة الشؤم هذه.

عندها مال نحوها، طوّق خصرها بذراعيه، ضمّها إلى صدره،
وطبع على خدها قبلة طويلة، ريانة، ملؤها حنين. احمرّت وجنتاها،
اختنق الخجل في ملامحها كما يختنق شاطئ البحر بالزبد. ارتجف
جسدها، سرت رعدة قشعريرة في ساقها، كأن حرارة الألفه
توقدت في أوصالها. التمس نبضها، سكب رغبته في كأس فتنتها،
حتى طفح الشغف في عينيه، يتلأأ كوميض لا يُكبح.

كانت هي القمة التي بلغها، ومنها بدأت الرعدة تصعد إلى منازل
القلب والبدن. حياؤها رافق نزوة شوقٍ حميمة، ارتقت سلّم
هواجسها وشعورها، حتى دلفت ذاتها لسانها الوضوء بالشوق،
متهيئة لنزال عاطفي صريح. تراخت، اندمجت، صارت امتداداً
لشعور قاسم نحوها، فالتقت رهاقتها برهافته على حدود الإعجاب
والقبل.

أضاءت وجنتاها بلألئ الحياء والمحبة، تهلل الوجد بينهما على
صفائح الروح والجسد. باتت ترتع في دائرة الشوق، توقدت شعلة
الرغبة، وهي تبحث عن نجاة من صرامة اللهفة. اجتاحتها دفقٌ يلين
فؤادها ويطري جلد العشرة، فانتفضت سنابل أنوثتها تحت وقع
الرعدة، تتراقص سحرًا وألفًا أمام سيل ذكوريته المتأججة.

كان قد أوقد شعلة أنوثتها الحادة، حتى لامست لواجع قلبه، حتى
لسعته محبتها بحرارتها. حينها، أسرّ لها بفيض سحره، وقال وهو
يحتضنها بغنج وتعجب: "أنتِ حلمٌ أم وهجٌ يسكنني؟"...

- أبعد ستة عشرة سنة من الزواج، لازالت تخجلين مني؟ الله ما أجمل خجلك وحيائك، في كل مرة أهجس بذاتي وكأنها في ليلة عرس جديدة، كأنك لم تتعودي على زوجنا.
- تربينا على العفة والحياء والخجل، المرأة دون حياء لا جمال فيها ولا بهجة ولا ضوء، ألم تقل لي ذلك.
- صدقت..

تأبطت ذراعه وهي مبتسمة مستأنسة بميله عليها، وكأنَّ شفاه الحب شفت عليها الأشواق جراء حرارة الاشتياق، وكأن الصمت سلب منهما الحديث تحت وقع نظرات الاعجاب، جزل ذاك العناء وسَخَط الظرف أمام رغبتهما الجامحة في ذلك التلاحم. تلك اللحظات مرقت بذلك العصف بحنان متدفق، كورت سنين الفقر السليطة تحت جمرة الود، كأنها بذاتها كانت عطشة لغرف كأس من زير المحبة والحنان لتعيد لحيويتها ألقها بعد أن تناستها بسبب العناء، وبعد أن سقاها كأس الأمان والاطمئنان بوجود الكنز لتتحدى به ظرف الزمن المجحف القادم.

لانت على صدره بابتسامة شفافة، شابها انكسار شغل الفكر، أرهق الفؤاد، نحل الجسد. كانت قد تراخت بين يديه تماما وهي ترتعش كوردة توضئت بحرارة الشمس، أحاطها بذراعيه وهو يقبل خدا من نرجس وشفة من جلنار، استكانت إلى وهدة الصمت تماما، خلعت قفازات التحدي عن كفيها، والعفة عن جسدها الهولي المذعن لسيف الرغبة الجامحة. ركبت معه مركب السفر والتجوال، سافرت معه لعمق الخيال، لعالم الجنون والهوس؛ حتى هجست بلهيب شمس الحب تصلي أحشائها بنور وجده، مثلما هجس بذات النور يشيح العتمة عن صدره، أتحدث التأملات، صعدت مع دخان الهيام لسماء الأهواء، هناك استكانت هواجسهما على قمة الصمت، امتدت لعالم السكون الذي أطبق على عالمهما.

ما أن نال أعجابه ونالت ثنائه، كأنَّ الزمن رجع بهما ليلة الزفاف،
أستمر ينفض غبار عاطفته الجياشة في طريق الموكب حتى
حجرتها، حواها بحضنه بشوق حتى كلت متنه، حتى شبع
غرائزها من ندى الشوق.

بعد أن قضيا وطرا من الحب والحنان والمتعة المدهونة بوغف
شوق طارئ، بعد أن غسلا هموم الزمن بزالال الحب، تلك التي
تراكمت على جثاميهما سخط الروتين والقلق، كلا شفاههما بمسحة
من رغي الابتسام والفرح، حيث لامست أحاسيسهما سعادة أنية في
ظل ظرف أني وخيم- حينها همست بأذنه في لفة لم يتعود عليها،
أو كأنه قد تناساها لقسوة حقب الزمن المتعاقبة عليهما حين قالت
له:....

- أحبك..... أحبك.....
- الله... كم جميلة خرجت من فمك بعد هذه الجولة الممتعة،
لم أعود سماعها منك منذ زمن...
جعلها تبتسم وتردد مرة أخرى..

- أحبك

حينها احتضنها بشدة لتسرقهما غفوة عن عالم الوجود، غفوة لم
تطول مداها، كانت قد استسلمت قواهما لسلطان العبث بعد أن
تراخت أجسادهما دون إرادة.

بعد تلك الجولة المريحة، اتفق قاسم وزوجته في مضجعهما على
درء الحسد والغل المتربص في عيون الجيران والمعارف، عبر
صدقة يتقربان بها إلى الله: اتفقا على ذبح خروف يُوزع لحمه على
الفقراء والجيران والأقربين. وإذا ما سُئلوا عن المناسبة، يجيبون:

"إكرامًا لوجه الله الذي أنقذ أبا محمد من تفجير الكرادة، حيث كان يتجول هناك الأسبوع الماضي."

وبالفعل، اقتنيا كبشًا سمينًا، عُذَّ قربانًا لدرء كابوس الخطر. رُبط الكبش بحبل إلى صنوبر المياه المثبت بجدار الحوش، وظل هناك أربعة أيام، بانتظار صبيحة الجمعة القادمة، يوم مبارك يتفائل به المسلمون. كما اتفقا على شراء سيارة ومنزل في منطقة بعيدة عن حيهم، تجنبًا للحسد، وابتعادًا عن النفوس المتبجحة التي تنبش في قشور الأمور بحثًا عن تفسير السطور.

فمنذ أن حلَّ الاحتلال، تفاقمت المشاكل وتعمّدت العلاقات بين الناس، وارتفعت أسعار العقارات بشكل جنوني. السبب يعود إلى أن النظام السابق كان قد منع شراء العقارات في بغداد لغير مواليد بغداد، وفق سجل إحصاء عام 1957. حفاظًا على التوازن الديمغرافي ومنعًا لانفجار سكاني لا تحتمله المدينة، نظرًا لازدحام شوارعها وضيق أزقتها وضعف بنيتها التحتية.

بغداد، المدينة الأفقية التي تمتد على شكل دائرة بقطر يزيد عن خمسين كيلومترًا، تُعدُّ الأكبر في الشرق الأوسط من حيث المساحة. وهي العاصمة التي يتطلع إليها العراقيون، لما فيها من فرص عمل، وتنوع في الحياة، وتركيز الدولة على شؤونها.

لكن بعد الاحتلال، أُلغيت تلك القيود، وبدأ الزحف نحو بغداد كزحف الجراد على الحقول، من كل الأطياف والجهات. الكل أراد امتلاك عقار فيها، مما أدى إلى ارتفاع الأسعار بشكل جنوني، قبل أن تشتعل فتنة الطائفية بفترة وجيزة.

وفي حضرة زوجته، فُكّر قاسم بالاستعانة بزواج أخته صفاء، لمساعدته في شراء بيت في منطقة الأعظمية، لما له من دراية

بأهلها وأحيائها. لكن زوجته رفضت، حرصًا على السرية، وقالت له بحزم:....

- "لا أحد يجب أن يعرف، حتى أقرب الأقربين... فالحسد لا يرحم، والنية الطيبة لا تكفي وحدها." لا تفتح النار علينا، تفتح العيون علينا، دعنا نعيش بهدوء وسلام، أبتعد عن كل قريب من طرفي ومن طرفك، وعن المعارف والخاصة من الجيران، لا تكن ساذجا، لا تحتك بأي شخص من طائفتي أو من طائفتك، هؤلاء سيفسدون علينا فرحتنا، سيفسرون الأحداث على حسب أهوائهم ومن ثم يكيلون لنا التهم الباطلة جزافا، وربما يوقعوننا في مطبات نحن في غنى عنها. ألم تسمع بمقولة الأقارب عقارب.
- صدقت يا أم محمد، يكفينا دوخة الراس، غايات الناس لا تدرك، حتى لو كانوا من أشرف الناس وأكثرهم نظافة. المثل يقول... "يا فهميم كن حلیم السر إذ تجاوز الشخص أنتشر كالنار في الهشيم". حينها لن يتركونا بحالنا وقد يسلبوا منا راحة بالنا وحياتنا.

جاسم يصغر قاسم بعشر سنوات، كما أسلفنا. يعيش حالة من الإفلاس المدقع، تائهاً في منافي أهوائه بين دروب الرزق والحاجة، يبحث عن ذاته وسط شخصية مهزوزة، تتأرجح بين مطرقة الفاقة وسندان الحظ العاثر. لم يستطع يوماً أن يعدل ميزان حياته، ولم يجد لشخصه مكانة بين الناس تبجله أو تفرج عنه كربته. يهجس بذاته ككائن غريب في شجرة الحياة، بلا أوراق تثبت وجوده، يدور في فلك حزنه، لم تنصفه الظروف يوماً، فصار يتبع أثرها بالأم ونكهة حلم لا يتحقق.

تأملاته مثلونة بلون ظرفه، غائرة في عتمة الغموض والأهواء والرعوننة، متحملاً جلد الزمن بلا رحمة. منذ أن وعى، لم يلتمس شيئاً من دقيق الحظ يعينه، سوى أظافر تعاسة تخدش طبعه وتحك جلده الذي تخشب بين جدران الوحدة ونوع العمل الشاق من أجل كفاف العيش. وضعته تلك الحال كسلة في خانة المنبوذين، المعقدين، المكروهين من العامة، يجمع بها نتائج سلوكه وتجاوزاته، فرسمت له صورة غامضة كظلال شك في ذهنه، وكهوة دهمة في عيون الآخرين.

يبدو بليداً في نظر الجميع، أشبه بظل شجرة خريفية لا تظل أحداً سوى نفسه، لا يؤثر إلا على نفسه. ما إن يختنق برائحة الفقر، حتى يختلق لذاته فرص تجاوز واعتداء بحق الآخرين، فيتماهى قدره بين الناس كشبح يغص في بطون الغسق، باحثاً عن ضالته هنا وهناك، عبر نصب جديد أو احتيال أو سرقة أو تطاول ما ينعش به إفلاسه. هذه الظروف القسرية أنبتت في داخله عقدة التعامل، وعقدة قبول الآخر له. طباعه حادة كالسيف، وهي هادئة طالما غائرة في غمدها، وشرسة حين يُشهرها. خشونة طبعه جعل ذاته لا نفس فيها ولا روح، يجلدها بسلوكه كما يجلد بها الآخرين.

حين يشتد به الغضب، تكاد عصافير أفكاره تهرب من أعشاشها، تعزف جعجة العقد والقلق من المصير، خوفًا من غدٍ بغيض، ومن ليل طويل لا يدرك فجره. لم يستقر على هدف يصلح شأنه، ولم يواكب أقرانه الذين سبقوه في تطلعاتهم الفكرية والمادية. كان قد فصل من المدرسة وهو صغيرًا، لكثرة غيابه ومشاكساته ومشاكله مع التلاميذ والإدارة. ومنذ ذلك اليوم، غدا لصيق العقد والرصيف، بات ربيب الشارع، كبر على زن الفاقة وسقاية الحسرة، حتى فقد بهجة الحياة.

غدت الأيام تجري خلفه كجرابيع تقرض تأملاته المغشاة بطلاء المستحيل، ذلك المستحيل الذي لا يتحقق إلا بفيض الجيب وسنم التعلم. صار الهاجس سياط الظرف تجلد به ذاته من حين لآخر، يذيب صبره، يرميه في مسرح الطرقات كشر عابث. لذا نزع قاسم ثقته به، وكرهت هدى وجوده في حياتها. إنها لعنة الفقر وسوء السلوك والعجرفة والخسونة.

وفي الحقيقة، لم يكن ليختلف الأمر كثيرًا لو أكمل دراسته، فواقع الوطن الذي جنح به الحصار والحروب لا يرحم. حتى لو تخرج من الجامعة، ماذا سيكون؟ قصبًا أجوف بين أعواد الخيزران التي تمثل رفاقه، أولئك الخريجون العاطلون عن العمل منذ أن توقف نبض الحياة في شرايين البلد. توقفت المشاريع، تقلصت الوظائف، هلكت الشركات، ثم تقطعت في ديجور حصار اسود. تلتها وقائع حرب جديدة واحتلال وجور أكبر. أضحت الأجواء دخانًا من بغض وشك وريبة ورهبة لف الجميع، انتشر الخريجون في محافل العمل الحر كالديبيب وفي كل مكان، يجوبون الشوارع والمراكز الاقتصادية بحثًا عن فرصة عمل ترفق بهم، تنتشلهم من واقعهم المر، وتمنحهم شيئًا من التقدير والكرامة..

لم ينجَ من مستنقع التهلكة، لم يفلح إلا من كان له سنداً أو ظهراً أو جداراً يتكأ عليه، سنداً مادياً أو معنوياً أو سياسياً، وتلك جملة لا يمتلكها، أفقدته توازنه تماماً. ثم كم سيصرف على نفسه حتى يصل مبتغاه؟ وهو حافي القدمين في طريق مشواك، معتمداً في تكملة مشواره على ذاته ورفقة الآخرين والمنظمات الإنسانية. من ذا الذي سيصرف عليه كل تلك الأموال الطائلة؟ في ظرف تبخرت منه الرحمة والرزق والخير أمام شرر الطامعين والزمن.

هكذا بقي وحيداً كـ باب يصير ولا يغلق، كسجل مسحت كلماته منه، معلق التأملات والحظ بخيط واه من خيوط العنكبوت، ما أن تهب عليه ريح الظرف؛ حتى يتهاوى في ديجور الزمن، ينقطع وصله وتقطع صلته بعالمه الخارجي، ليس له معين يرتكز عليه ولا معيل يعيله على تجاوز أزمته وهمه الذي كبر كورم سرطان لا علاج له. حيث خلال حياته وبسبب سلوكه الخشن بات يتنقل من عمل لآخر دون أن يثبت على عمل يكور شخصيته ويزيل همه.

جاسم يعيش مع أمه في زنزانة صغيرة في حي الفضل، دارهم مكونة من غرفة وصالة صغيرة، كانت فيما سبق ممر ضيق بين فرعين، سُقف كيفما شاء الظرف وأتفق أن يوضع له باباً وشباكاً ليستر هؤلاء الفقراء المساكين من التشرّد. يكاد السقف يسقط على رؤوسهم إذا ما تعرض الدار لأي تهديد جيولوجي أو مناخي، لما يتخلل ذلك السقف من ثقوب نخرت صفائح مطارق الزمن.

لذا تجد السقف تنز عليهم في موسم الشتاء كمزاريب سخط وغضب لكثرة ثقوبها، سقف لا يستريحهم من المطر والبرد، لقدم المساند الخشبية الموضوعة تحت السقف من مساطر وجسور ترتكز عليها حصران بالية مفروشة تحت طبقة من التراب، ولفقر الحال وعدم أمكانية ترميمها وتجديدها، بقيت تلك الحصران تنتثر عليهم غيرة اللعنة في الصيف وسخط المناخ في الشتاء....

لم يعد ذلك السقف البالي يحتمل ثقل الزمن والأتربة المفروشة فوقه وتلك الحصران متهتكة والصفائح الصدئة، تهجس بالسقف يبدو كجسد تختلق به أورام خبيثة منتفخة هنا وهناك لتأثره بالزمن ورخاوة قوام مسانده..

الزقاق قديم ومزري، ازقته غير معبدة، تكثر فيه المزابل والحفر والسواقي والأوبئة، لقدم الحي. أزقة مشلولة بعبق نتن المجاري والسواقي الطافحة العريضة التي تعصف قرفها بالأنوف، لعدم تسليك فتحاتها، وإهمال البلدية للمنطقة، ولاستحالة ترميم مجاريه وتعميرها وتنظيفها، إلا بإزالة الحي تماما.

قست عليه الظروف، طارده الفاقة مثلما طارده النحس وقلة الحظ، أصبح طريد الفشل والانكسارات بعد تجارب عديدة، تلك الحالة جعلت من شخصيته المغيبة عودا ناشفا، يابسا، جلدًا، مؤذيا كصبار أجرد، لا أحدا يدنو منه أو يصاحبه. أكتسب طباعه من قساوة الظرف فأصبحت الحالة هلامية قفزة تعبر عن شخصيته.

خلال عمله كان يتسلى بتفعيل العقد والمشاكل، سلوكه الخشن جرده من هدوئه، متقلب المزاج، بلحظة غفلة يتحول لرجل موتور، يتجلى بالسخف والقبح والمخاشنة مع أي زبون يصادفه، لذا تلك الاساليب جرت به إلى أن يفيض غله في أكواب الزبائن دون طائل، مما خلق توترا في تعاملاته مع المقابل، جعل الجميع يشكيه ويبتعد عنه...

خلال عمله نادلا في إحدى المطاعم، ضرب زبونا بالصحن كاد أن يشج راسه، لمجرد اعترض على نوعية الأكل المقدم له، وعلى أثر ذلك طرد من العمل وأودع السجن مدة أسبوع من الزمن.

في محاولة أخرى سرق من خزانة متجر مبلغا ثقيلًا، بعد أن رفق به أحد التجار الشورجة حين أودع ثقتَه به كأمين على دكانه، كان

يخلف صاحب العمل حين يكون الأول مشغولاً بصفقة تجارية لجلب بضاعة أو تصدير بضاعة. وبذلك قطع رزقه بيديه، لم ينفع إنكاره عملية السرقة أمام تحقيق الشرطة حيث شهدت عليه الكامرا التي اصطادته ولم يكن منتبهاً عليها، هكذا دوليك كان يقطع خيط الوصل بالعالم من حوله بسلوكه الارعن.

لم يحتضنه أحد أو يأويه؛ سوى فوضى سوق الشورجة المزدهم، حيث تضيع عيوب الشخص وتختفي تحت زحمة الفوضى وكثرة طلبات العمل والاستعانة به، على الرغم من قلة المردود بسبب مئات المتنافسين ممن هم على شاكلته، وممن دفعهم العوز إلى العمل بسوق الشورجة كحُمْلٍ ليجدوا فيه متكأ ومرتعاً لمبتغاهم. إذا ما علمنا بأن الشورجة هو أكبر سوق تجاري في العراق لبيع الجملة لكافة المواد.

العمل في الشورجة أكسبه خبرة التعامل مع الزبائن وقوة عضلية نتيجة حمله البضائع ودفعه العربات الثقيلة من متجر لآخر، أو نقل البضائع لمرائب العجلات القريبة، ليتم نقلها خارج بغداد، إضافة لذلك نمت قدراته على تحمل قسوة الطقس خلال الصيف والشتاء، حيث الحرارة تتجاوز معدلاتها صيفاً الـ 50 درجة مئوية، فيما تصل معدلات درجاتها لتحت الصفر في موسم الشتاء.

صفة القسوة التي أتصف بها ولدت نتيجة تداخل العقد أمام قلة فرص الرزق، فمعظم التجار يعزفون عن التعامل معه، ألا في حالة تفرده في المنطقة، حينها ينطبق عليه المثل القائل (من قلة الخيل شدوا على الكلاب سروج).

طبعه البليد جعل الأمور تتعقد في ذاته شخصياً، حيث وصل به الحد، أن لم يجد من يخاصمه فإنه يخاصم نفسه، كأنه يتعرض لهبات من الغضب الفيروزي فينزوي داخل نفسه، يتجهم وجهه

يطبق عليه الكآبة وبلون حزين دميم، ينطوي على نفسه، فيعزلها عن محيطه ويشغل تفكيره بذاته وبضعف الحال وقلة المردود المادي، ذلك أصبح طبع من طبائعه. هذا السلوك غرز في داخله صفة الاستعجال والأنانية والبجاجة وقلة الذوق، وعدم التسامح، إضافة لانعدام ثقته بنفسه وبالأخرين ممن حوله من البشر.

خلال عمله كانت مشاعره تحته على مشاكسة بعض النسوة أو التحرش بهن، حيث الغريزة لا يمكن تغافلها والسيطرة عليها وهو الذي تجاوز فترة المراهقة وفترة العشرينات من العمر دون أن يدخل في تجارب عاطفية تلين طبعه. إحدى المرات وجد ضالته مع امرأة أربيعينية، صار يتبعها ويمارحها حتى قرفت سلوكه حينها هددته بصرامة:...

- ألا تخجل من ذاتك وأنت بهذا الجسد الرتم، ابتعد عني أو أخبر عليك زوجي الذي ينتظرنني في عجلته....

تلك الوقفة جعلته ينسحب من حرشة الشارع ليتجه لدور المباغي والملاهي، متبعا الغريزة الجنسية التي طفحت في نفسه كدهون وجهه، حيث هناك من تعمل بهذا الكار مقابل أجر تتقاضاه بعيدا عن الشد والنت والمجانة، انسحب تجنبيا للفضيحة التي لا تهمه قدر خوفه أن يستدعى لمراكز الشرطة بعد أن أخذ عليه تعهدا فيما سبق بعدم تكرار فعلته. كان قبلها قد القي القبض عليه متلبسا مع إحدى الفتيات بعد أن رام التحرش بها، كان قد تبعها في أفرع محلة الصدرية، عندها تجمع عليه لفيف من شباب المنطقة بعد أن استنجدت بهم الفتاة، كاله ضريبا بعد أن القوا القبض عليه متلبسا، كبلوه، ثم استدعوا شرطة النجدة لتقيده، على أثرها سجن مدة أسبوع ثم أفرج عنه بتعهد وكفالة أخوه قاسم..

كان يأبى ملامة أخيه بسبب تكرار مغامراته، لذا هم بالصمت منزويا بين زحمة الناس والتي تختفي خلفها كل العقد بلحظة. أنزوى بين أفرع الشورجة المتداخلة بعيدا عن أنظارها..

صار يلوم نفسه على ضعفها وضعف تجاربه وهيافة قلبه وسلوكه.... الفاقة جعلته يركض خلف الرزق حتى نسي عواطفه، خلال تلك الفترة المظلمة من حياته كان ينتقل بين الأعمال لجلب علاقة البيت معيلا نفسه ووالدته الشمطاء والتي أضناها الزمن، وبالذات في فترة الحصار التي دامت ثلاثة عشرة سنة من الضعف والقحط، فترة نخرت اجساد العراقيين وأمخاخهم. لذا لم يجد الوقت الكافي ليشغل نفسه في أمور قلبه إلا بما تحن عليه الصدف، ثم أنه كان يدرك قدره وقيمة ذاته... يا ترى؛... من تفكر أن ترتبط بحمال أجير وأن كان شابا وذو حيوية، إلا إذا كانت شمطاء وعجوز.

تلك المغامرات العاطفية التي من خلالها ود أن يروض غريزته بها كان قد مر بها مرور الكرام، فلم تلبى غاياته وطموحاته. كانت فعليا تقتصر إلى مبدأ العلاقة الحقيقية والنضوج العملي، خنقت أهوائه لذة الجنس التي افتقرها وخياله الذي غص في نعومة جسد وأنوثة امرأة وطرارة لسان وفكر امرأة يتخيلها...

بعد أن أهلكه عمله خرج من شرنقة البحث عن الرزق لمجال العبث والصياغة، آلت الصدفة أن يزور أخوه عندما يكون قريبا من بيته أو بيت أخته هدى مستغلا الفرص المتاحة ليطعم نفسه بأكلة دسمة يملئ بها جوف بطنه، حيث أنه يعلم تجيب الناس منه حتى ولو كانوا أخوته، أنه يدرك ذاته ثقيل دم إذا ما أمَّ أي محفل.

وبعد أن ملأ جوفه وجيبه في بيت أخيه، خرج يطارد الشوارع مرتديا بنطلون جينز قديم، وفي قدميه ينعل مداس من صندل يشحط به الأرصفة والطرقات. كان قد تعود على السهر والتجوال،

حيث أنه نادرا ما يعود للبيت مبكرا، تاركا أمه العجوز عاجزة عن إدارة ذاتها، يسومها قلق من أمره وأمر الوحدة اللعينة في الدار..

كانه تخلص من ذاته، نزع أمر اهتمامه بنفسه، فلا يهتم لمصيره، تركها في تلك المعمة بحيث كيف ما تكون يكون. التجارب لقنته الدروس، فتعلم كيف يفلت من قبضة العقد وحزم الشرطة وتركات الزمن، دائما ما يجد الحلول الأنية العاجلة أمام عينيه إذا ما تورط بعقدة ما... إحدى المرات القت الشرطة القبض عليه وهو متلبس في دور المباغي التي يرتادها، حينها سأله ضابط الشرطة:.... -

- لم أنت هنا؟ ألا تهاب السجن؟
- على مهلك يا سيدي، أنا مجرد حمال أجير، كلفت بجلب المشروبات للدار وكما ترى الصندوق أمام عينيك، اصحاب المباغي يربحون الكثير وكذلك يدفعون الكثير، وأنا شحيح غارق في الفقر، خال الجيب، وأنت تدرك حال الكسير، لم لا أعمل معهم. ثم أنا لو كانت لي القدرة على الزواج ما تأخرت.

حينها عطف عليه وأخلا سبيله. حيث كانت الدولة تلاحق البغاة ودور العهر المنتشرة سرا بين الأحياء العامة العفيفة. لذا تجده لا يكف ذاته عن متابعة الفرص وعمليات النصب التي يجريها أحيانا في سوق الشورجة...

.. لذا تجده قد تعود على العقد، لا يأبى مخاطر الطرق ولا هول المفاجئات، يشعر بذاته منصاعة لهوسه بحيث نادرا ما يخالفها، لا يخاف شيء يخسره، لأنه لا يملك أشياء ذا قيمة، لذا تجده يخاطر بذاته في دروب الضياع كمسطول، هائم، يبحث عن نفسه في مشاوير قدرها بين برائن الطرق والبارات. أنه أشبه بالكلاب السائبة التي تبحث في الدروب عن عظمة تلهي نفسها بها، تهجس

به له القدرة على شم رائحة المخاطر عن بعد، للخبرة التي استقاها من الشارع.

تعود أن يلتقي رفيقيه (جعفر و رشيد) الحمالان اللذان لا يختلفان عنه إطلاقاً إلا من ناحية الشكل وقوام الجسد. هم رفقاء درب في المحفل والعمل والصياغة، رفقاء تجمعهم ذات الصفات والسلوك والخلق والعبث، لا يختلفان عنه في القيمة والقدر، فهما مثله تماماً دون جذور وأصول، لا عوائل تأويهم ولا زوجات تحويهم. تعرفا على بعضهما البعض في سوق الشورجة، تقوت الصلة والصحة بينهما، صار يرافقهما الدور البغاة والعهر متى ما لانت الرغبة وتوافقت الاهواء وعمر الجيب، حيث دائماً الطيور على أشكالها تقع.

لذا أنه وجد بهما ضالته ووجدوا به ضالتهم، تجمعهم أزقة الدعارة وهوس الليل في حدائق بغداد، يبحثون عن مبتغاهم وغاياتهم وشخصياتهم المسترخات خلف اللذة في دور العهر تحت أجنحة الليل والسكون والخمرة. لذا حين يجد نفسه معزولاً في وحدته مقيداً بالهموم، يتدارك ذاته في البحث عنهما، حيث يجد راحة ورتع بين جنوح النفس وشطط الرغبات لنسيان عناء الزمن...

لذا حين ترك دار أخوه وجد دافعا يحثه على البحث عن صديقيه قبل أن تغرب الشمس، أتجه لاحتمالية تواجدهما في الأماكن المتعارف عليها، وهو يدرك بأن أحدهم كالكلب لن يجرؤ مغادرة مكانه، لذا صار يبحث عنهما لقضاء ليلة مسلية بعد أن عبء جيبه بما اعطاه أخوه.

الفصل الثالث

خلال تواتر الأحداث وانفلات الأمن وتدهور حالة الوطن؛ كانت قد كثرت العقد وتجدرت المشاكل بين الشعب بشكل عام والمحتل، العبء الذي جاء به المحتل عبء ثقیل، أثقل كاهل الفرد دون أن يخف عليه عبئه السابق، كأنه جاء يغتصب الشعب نكاية بالنظام السابق، فجعل حجة اسقاط النظام عربون احتلال الوطن يدفعه الفرد العراقي المسكين..

هكذا وجد الشعب ذاته في ورطة، تركوا دون معين ودون قائد حقيقي، قطعوا مسافات الحروب الطويلة وتلك العقد المتجذرة دون نتيجة تفرج عن همهم العالق في أرواحهم، أضحى الميدان الجديد مستنقع آسن لهم ولغيرهم، لن يفلت منه أحد، بات الشعب يترنح في معمرة عقد جديدة دون أن يتخلص من السابقة ودون أن يلتفت عليه أحدا، لا تعنيهم وضعه العام ولا ترفق به منظمة دولية أو هيئة أممية أو ترعاه دولة من دول المسماة بالعظمى...

سقط الوطن كسقوط تمثال الرئيس، تهشم في مكانه، كل جزء منه صار يمثل طائفة أو قومية أو حزبا ما وهكذا دواليك... سقط سقوطا مدويا، عقص صبر الشعب، تقلصت فرص الحياة، بل تبخرت الفرص عن أصلها في معظم مناطق الوطن التي اضحت ساخنة بسخونة المدفع... ذلك ما جعل الوضع ينكمش على نفسه، تعقدت وتآزمت أمور الناس، تيقنوا بأنه لا انبلاج واضح في الأفق تحت غمامة المحتل الذي شجع على تفعيل الأزمات وسنّ الفوضى وتهيجها ليتسنى له السيطرة على كامل الوطن. لا فسحة أمل تعيد الوضع لسابق عهده، دب يأس بين عامة الناس من أن يعود التوازن إلى ما كان عليه قبل الحرب والحصار..... الطفل الذي فتح عينة على الحرب والحصار كان قد شب على تلك الحالة مجرعا المر والألم، والشيخ دكته الوقائع حتى مات من شدة الظلم والقهر،

وآخرون أضحوا سكارى من لسعة الصبر دون نتيجة، هؤلاء جميعا ليست لديهم حلول ناجعة، طالما قبضة الحكم بأيدي المحتل ولصوص ومجرمين تحركوا تحت أوامر المحتل.

من جهة أخرى شددت المقاومة من وتيرها ضد المحتل، تلك التي ابتدأت بفصيل تشعبت وأصبحت تملك فصائل ووحدات قتال وبالذات في المناطق ذات الأغلبية السنية، رغم أنها كانت في بداياتها في وضع مهلهل غير مبرمج. غير منتظم، تحركاتها ذاتية وعشوائية، جراء أخطاء النظام السابق العديدة في عدم تهيتها على أصول القتال مسبقا... لم تنعم بالدلال قبل الاحتلال، لتنتظم أجزائها وتتكاثر تشكيلاتها لتشكل قوة حقيقية تواجه به المحتل. لم توزع الأسلحة على الناس، لم تدرب الشباب على المواجهة. لذا اختصرت المقاومة على طائفة دون غيرها بسبب اختلاف العقائد، ابتدأت عشوائية على سجيتها، مستندة على دوافع وطنية وحب الذات واستقامة الدين الذي فرض الجهاد ضد المحتل.

ربما الرئيس لم يتوقع بأن العدو سيجتاح العراق وسيسعى لأسقاط نظامه، أو لم يسعفه تفكيره اتخاذ القرار المناسب بعد أن تلقى الصدمة الأولى على حين غفلة من أمره على يد بعض الصديين وأبناء السنة بدافع ذاتي خالص. جاءت الاحداث بشكل عشوائي وبشكل متواتر دون تخطيط، جاءت متسلسلة، لم تكن بحقيقة الأمر مفاجئة لأحد، اجتياح المحتل حدود الوطن، قلب موازين العقل والقوة، شاركته دول تبغض العراق ودول وجدت في إزاحة العراق بروزا لنجمها الأقل، هكذا كل بحث عن مصلحته فنال الشعب قسطا من العقد.

حيث كان العدو قد أجتاح العراق داخليا بفرض الحصار عليه قبل أن يجتاحه واقعيا بزحف قواته على حدوده على أثر اجتياح العراق للكويت عام 1990... **فيما سبق كانت بريطانيا قد عزلت مدينة**

الكويت عن العراق لتجعلها محمية بريطانية، ومن ثم استقطبت آل صباح من الحجاز 1925 ليكونوا حكاما عليها بعد تركوا موطنهم الأصلي وسط إيران. خلال سيطرة بريطانيا على العراق أبان الحكم الملكي توسعت الكويت على حساب مساحة العراق كما توسعت أبان حرب العراق مع إيران مستغلة انشغاله في حربه لتسيطر على آبار نفط الرميثة العراقية، لعدم وجود حدود حقيقية مرسومة بين البلدين.. لذا كان اجتياز العراق للكويت له دلائل، وهذا الصراع لن ينتهي حتى تعود كامل اراضي العراق للعراق.

بدخول المحتل أرض الوطن، اختفى رجالات الشرطة الداخلية والأمن من الساحة، جراء التهديد المباشر الذي تعرضوا له بشكل مباشر من قبل المحتل وأعوانه. تلك المؤسسات أطرقتها فوضى الأحزاب المعارضة والجديدة منها والمليشيا المستحدثة التي دخلت ساحة النزاع بعنجهية وجواء بإسناد من أجناداتها. كانت قد حددت لها مهام وغايات مقدما، لتسهل سيطرة المحتل على البلد مثلما تُسهل لذاتها السيطرة على المقاعد المتاحة أمامها، لذا فرضت ذاتها بالتنسيق مع المحتل على عاتق الشعب.

تلك المليشيا تمكنت من خلخلة الاوضاع الداخلية بتكثيف هجماتها على مراكز الشرطة والنقاط العسكرية إلى جانب المحتل، لغرض سرقة الأسلحة من جهة ونيل عاطفة المحتل من جهة أخرى. كما لاحقت الضباط وأصحاب الشهادات والعلماء والأطباء والشخصيات البارزة التي تعيش في الداخل لتجريدها من دورها وقواها، وللانتماء منها كي لا يكون لها دور تسوية على المدى القريب.

تلك الفترة اعتبرت فترة مظلمة، قسرية، سوداء، عصبية، ابتدأت منها شرارة الفوضى، صار الشخص لا يعرف حقيقة عدوه من

صديقه، تعددت وجوه العدو بأشكال مختلفة، صار الظن والشك يتحكمان بهواجس الناس دون استثناء.

خلال تلك الفترة اشتدت المقاومة وباتت تأخذ زمام الأمور على عاتقها، وعلى غرار القاعدة - قاوم تسلم - فأنظم تحت لوائها عددا كبيرا من الضباط وأمرأء الجيش وضباط الشرطة الذين تم تسريحهم أو الذين أعفوا من مناصبهم بقرار الحاكم الأمريكي برايمر. انضموا للمقاومة لدرء المحتل وإذلاله، خاصة بعد القرار الخاطئ في حل الجيش مثلما سيّبت الشرطة دون مركزية.. وكان من ضمن تلك الكوكبة المعفية من الخدمة السيد صفاء زوج هدى شقيقة قاسم الذي اضطر أن ينتمي للمقاومة للنيل من القوات المحتلة..

صفاء لم يجد سبيلا للعيش بعد قرار برايمر بحل الجيش دون أن ينال حقوقه التقاعدية. حينها أضحي خال الوفاض من كل ثنية تحفظ له كرامته، لم يجد تحت يديه شيء يستعين به على جلد الظرف، عاش في تيه من أمره في رتبة العجز، دون انتماء حقيقي للوطن الذي طالما كان يدافع عنه، أضحي دون مصدر رزق يعينه وعائلته على الصمود بوجه عاصفة التغيير المهتاجة، المتقلبة.

كما برز نشاط الصدرين بشكل محدود ضد المحتل للعشوائية التي ابتدأوا بها كونهم حديثي النشأة وضعيفي التنظيم..... هذا ما كان واضحا للأعلام في تلك الفترة، وقد تمكنوا من التأثير بالمجتمع بشكل عام ونالوا كسبا شعبيا بين الطائفة الشيعية، كون الأحزاب المستحدثة وجدت في المعمة مرتعا لأثبات الذات واستغلال الفطرة التي يعيش بها الشعب المسكين على حساب المصلحة العامة.. هكذا تمددت تلك القوى بين الطوائف فأججت نار الطائفية، وهذا ما حث عليه المحتل لزرع الفتنة بين أبناء الشعب الواحد فيما

بعد، لكون المقاومة السنية أضحى لها ثقل في المشهد بعد أن خنقت المحتل في مناطقها المحددة..

كانت الناس بشكل عام ماضية على سجيته وسذاجتها ونظافتها وبساطتها، فلم تعتنق صفة الطائفية كمذهب متزمت يقم في إدارة الدولة، ولم تتمسك بصفة الكراهية تجاه الطرف الآخر كمبدأ ومنهج لتحقيق أهداف خاصة تخص مذهب معين تنكيلا بالمذاهب الأخرى، إلا بعد أن فرض المحتل ذاته على الشعب.

ومن خلال الجعجة الإعلامية المدوية من قبل الإعلام الخارجي والدولة المهزوزة، والإصرار على بث إشاعة الفوضى العارمة بعد غياب تام للسلطة المحلية؛ بدأت تتحرك المقاومة وأشباه المقاومة ضد المحتل بشكل عشوائي واستفزازي وانفرادي وأحيانا بتخطيط محكم من قبل مجاميع، كان ذلك بالتحدي والبهرجة والاستعراض بحمل السلاح والتهديد العلني، وأن كان كل ذلك لا يعد بالمستوى الحقيقي لمعنى المقاومة إلا ما ندر، حيث أمسى الفعل غييض من فيض، ما انتهت إليه المقاومة لزعة معنويات المحتل في بث سيطرته، كان يصب انعكاسات نتائجه في حوض القوى المرافقة له والطامعة في سيطرتها على حكم العراق. لذا وجدت المقاومة حربا فعليا من قبل تلك القوى ومليشياتها الوقحة.

وفعلا تمكنت من إدخال الرعب في قلب الغاصب، ذلك ما أدى إلى دخول قوات المارينز الأمريكية إلى مدن الأعظمية والثورة والدورة وهي تتعقب المقاومين المجهولين وتلاحق عناصر جيش المهدي المستحدث، لإسكات اصواتهم وبسط سيطرتها على الشارع وتحييد تحركاتهم...

وبالفعل تمكنت من أقماع تلك البادرة بعد أن عاثت قوات المارينز قتلا وتدميرا لبيوتات آمنة دون تمييز، اعتقلت من اعتقلت وقتلت

من قتلت من الشيب والشباب في أول واقعة حقيقية لقوات المارينز ضد التنظيمات الشعبية بعد فرض الاحتلال، ومثلما بترت وعنف في مدينة الأعظمية السنية قست بذات القسوة في مدينة الثورة الشيعية.

وعلى أثر تلك الواقعة تم تغيير أسم مدينة الثورة إلى مدينة الصدر، إكراما للعلامة المرجع الشيعي السابق السيد محمد الصدر، والتي اغتالته قوة مجهولة لغاية في نفس يعقوب.

وكان من ضمن ضحايا الأمريكان في مدينة الصدر الشاب حسن ابن الحادي والعشرين من العمر، وهو أخ رقية زوجة قاسم - وقد حل الخبر عليهم بأطواف الحزن وسيل الشجن والعصف والشدّة، مقتله أخطى خطط أفكار قاسم ورقية التي أعدوا لها أنفسهم لتغيير واقعهم المزري لواقع أفضل، الحادث جاء محكما بقيود تعجيزية، أدى إلى تجميد مشاريع قاسم الذهنية والعملية تماما، حيث أنشغل خلال تلك الفترة في تأبين المأتم وارتداء ثوب الحزن مراعاة لمشاعر زوجته وأهل زوجته لأربعين يوما. الحدث المفاجئ أعاق سير مخططاته، قيدتها، أستمّر العناء والرجاء مع السقم المراق في الحي والشارع بذات الصبغة، لحقتها فترة شهرين من الجمود والتنكيل الذاتي ومراجعة النفس في تقدير نتائج المشهد.

حلّ الخبر المشؤوم على قاسم وزوجته كالصاعقة، شف فكرهما ومنبع الفرح الذي يتبعانه، أغلق صنابير السرور في بيت الذي كان يتهيأ للاحتفاء بصيغ حياة جديدة. جاءت الصدمة من الداخل، من واقع مرير، قلبت موازين الفكر والتخطيط، خلخت ركائز المواجهة في ظل الأزمة التي تعصف بالبلاد. زلزلت الأوضاع النفسية والفكرية، قلبت المشهد رأساً على عقب. تحول الحلم البهيج إلى رجاء دون واقع، إلى جلد أملس لا جاذبية له، إلى حزن كظيم، خشن... جرّهما إلى دوامة من الأسى، إلى سكوت في مجرى

الفوضى. تساقطت أقنعة الصبر والأمان عن الوجوه، تحطم الجدار الزجاجي الذي كان يفصل بين اليأس والأناة. الكآبة عمقت كآبة النفس، تحوّل الحال إلى شراشير تائهة في الهواء، إلى شظايا في جسد الأحلام، مزقت نسيج المشاعر المرتبكة.

ذلك الخبر المعلقم أجّل مخططاتهما إلى أجل غير مسمى، أثقل رؤوسهما بجعجة الحيرة، شرخ حصافة الفكر بعناء لا يُطاق. جرف نيّاتهما وأهواءهما إلى هوة من الشتات والحيرة والعذاب أمام ذلك المشهد الجسيم، المرعب، صغرا له دون إرادة، لم يستطيعا تجاوز حدود الموقف أو التماطل في مواجهته، ولا حتى المناكفة العمياء.

حسن هو أخ رقية الأصغر، انضم إلى قافلة الصديين ضمن جيش المهدي قبل أسابيع من ذلك التاريخ، ذهب ضحية العنف السافر الذي مارسه القوات الأمريكية ضد شعبٍ أعزل، كان يبحث عن هويته المغيبة في عين الغاصب، يطالب بحقه في حياة كريمة.

بمقتل حسن، كأنّ غيوم الشؤم تراكمت وتجمعت فوق رأسيهما. مقتله كان أول نذير شؤم ينهال على رقية وقاسم. تبدل وشاح الفرح بسواد الظرف، انقلب هاجس الفرح إلى هاجس ترح. اضحيا كأسيرين تحت نظرات القدر القاسية، غش لون التناول بالمستقبل بلون اكتئاب داكن، مغبر، وبتيهٍ عائم في مدار المحتل البغيض. تحوّل الحلم إلى هاجس خوف واستياء من القدر القادم، أوجمت حياتهما بمفاجآت غير متوقعة.

تمت مراسم الدفن والتأبين بمشاركة لفيف من الأقرباء والحيران والعامّة، وأخذ الحزن يشق زيق الفرح في بيت أبي محمد. كأن الكعكة المسمومة التي جلبها المحتل يجب أن يتذوقها كل بيت عراقي بالتساوي. كأنّ القسمة أعدت مسبقاً، لا تفرّق بين سني

وشرعي ومسيحي وصابئي ويزيدي وآثوري، فالمهم بقاء السيطرة وتشجيع العمالة، وهذا ما يرضي الأمريكيان ويطيب خاطرهم.

أما يونس، فعندما علم بحاجة المحتلين إلى مترجمين، تقدم بطلب المعاونة رغم أنه لا يفقه من الإنجليزية إلا القليل، ورغم انتمائه للطائفة السنية التي تبغض وجودهم. لكنه، كشاب محاصر، لم يجد وسيلة لإنقاذ نفسه من معمة الفوضى إلا بالانضمام إليهم. بعد أن التفّ الوضع السيئ على عنقه وكتّله بالمشقة، دفع ذاته للتنازل عن كرامته مقابل النجاة من قيد الفقر الخانق. هكذا انخرط في سلك الخيانة، سعيًا لتحسين ظرف وضعه المادي الذي تدهور بفعل الحصار الجائر.

خلال انشغال قاسم بفاتحة حسن، ونتيجة للصدمة التي ألمّت به، تركوا البيت جميعًا بعد أن أحكموا إغلاق أبوابه الداخلية والخارجية. فالموقف مأساوي وأخلاقي لا يحتمل التوصل والتأخر أو التريث أو التثني عن حضور الجنازة والمأتم. فالإنسان، أمام الكوارث والمواقف الحرجة ينسى نفسه، ينسى وضعه، خاصة إذا ما فقد عزيزًا مقربًا له...

انشغلوا بإعداد المأتم والمشاركة به من الساعة التاسعة صباحًا وحتى فترة المساء؛ ليعود محمد وأبوه يتفقدوا البيت بعد الساعة السابعة مساءً، أستمروا ديدنهم على هذا المنوال لمدة ثلاثة أيام وهي فترة العزاء الرسمية، فيما يستمر الحزن داخل البيت بين أفراد العائلة المجني عليها مدة أربعين يوم، تكون فيها البيوتات مفتوحة لاستقبال المعزّين الذين تأخروا لسبب ما في تقديم واجب العزاء.

خلال تلك الفترة أستغل عادل بن أبو عادل الجار الأقرب فرصة غيابهم ليثب من سطح دارهم لسطح دار قاسم، لينزل عبر السلم الحجري لحوش البيت حيث جنحت نفسه لسرقة المنزل بعد أن علم

بمضابهم. خلال انشغالهم بمأتم حسن أخ رقية، فكر بأن يستغل الفرصة ليسرق ما يمكن أن تطاله يده...

عندما وجد ذاته في وسط الحوش مستغلا السلم الحجري؛ أجهت أمام أسهل الفرص وأثمنها التي بزغت أمام ناظره، شغف بسرقة الخروف المربوط بأنبوب الحنفية. فك عقدة الشنطة، تمكن من رفع مزلاج قفل الباب الخارجي عن موضعه في الأرض وبالتالي تمكن من فتح الباب على مصراعيه ليجد ذاته والخروف خارج البيت، تمكن من سحب الخروف خارج البيت دون أن ينتبه أحد من المارة عليه، بعد أن نجحت ذاته في سرقة الخروف؛ أعاد الباب برفق لوضعه السابق لبيان للمارة محكم أغلاقه. أعاد كل شيء لوضعه الأول وكأن شيئاً لم يكن.

وخلال عودة قاسم وأبنه محمد في المساء اليوم الثالث من العزاء اكتشفوا اختفاء الخروف من المنزل، العملية أصابت أبو محمد خيفة من سرقة النقود، أسرع بفتح غرفة النوم والخزانة، أطمأن على سلامة النقود، لا زال الأمر سرا لا يعلم به سواه وأم محمد، فلو علم بخبر الدولارات شخص ثالث لكان قد سرق البيت بمحتواه وجدرانه.

اتجهت شكوكهم إلى الجار أبو عادل أو إلى أبنه، فلا أحد يجزم أن يتناول على دارهم دون أن يمر عبر سطح دار أبو عادل، للتماس الحاصل بين سطحي البيتين. لكن لا دليل لديه يثبت التهمة عليه، كما أن مسألة الاتهام صار لها أشواك تغز الشاكي، صار لها معنى أكبر في عرف الظرف الشائك الجديد والفوضى العارمة الدائرة في البلد، صار الكل يتخوف من الإشارة إلى المتهم بشكل مباشر، خوفا من تبعية الموقف أن ينعكس عليهم.

حينها ذهب قاسم يستفسر من جاره فاضل (أبو عادل)، أبو عادل رجل جعسوس... أخبره؛... بعدم علمه بمصير الخروف... أما عن عادل فإنه دائما ما يكون برافتي في ورشة العمل، فالورشة تحتاج لإدارتها أكثر من يد عاملة.

بُثَّ خبر سرقة الخروف في المحلة، الكل أعرض تأسفه وعدم رضاه عن العمل الجبان الذي لحق بهم، ولكن الشكوك كلها أنصبت على بيت أبو عادل، فلا أحد يتجرأ دخول المنزل إلا عن طريق سطح داره. الجميع أيقن بأن السارق خطط لفعله قبل أن يسرق.... بدوره أبو عادل كان قد نقل الخروف خارج حدود المنطقة ليتصرف به بحرية، حيث تم جزّه أو بيعه لأحد الجزائريين.

والحقيقة المرة الواضحة لقاسم هو اشتراك عادل وأبوه في عملية السرقة، حيث عادل من سرق، وأبوه من تصرف بالخروف. وكان دليلهم بأن باب الدار لا يمكن فتحه من الخارج، أما من الداخل فيمكن أن يرفع مزلاجه التحكم عن الأرض وبالتالي يسهل فتحه. كما تبين فيما بعد بانتماء أبو عادل لأحد الفصائل المستجدة من الميليشيات التي امتدت يدها على الاملاك العامة والكثير من مراكز الدولة ودور البسطاء من القانطين في بغداد.

الظرف قيد قاسم، فلا يستطيع أن يكيل له التهمة جزافا، أو لأي كائن ما، وأن كان شكه في محله أو تيقنه من معلوماته، حتى وأن تمكن من القبض على السارق، فالوضع له انعكاسات وتداخلات لن تُحتمل. تغيرت شكل قاعدة التعامل، بل تغير كل شيء، انعكست الحقيقة تماما، فلون السواد شطّ سواده والبياض تجرد عن بياضه، الفكرة غدت سامه في موضعها، تذل صاحبها ولن تعينه. الوضع الجديد أصبح مُقنّع، ولن يسمح بتاتا طرح فكرة الاتهام جزافا ضد الغير. التهمة تعني أنك تزرع بذرة حقد وعداء لذاتك في قلوب الآخرين، في زمن تمزقت به الشرائع والقوانين، تعرت العدالة أمام

التهم بعد أن تهللت مراكز الشرطة على يد الميليشيات وشتت عناصرها في جوف الغاب.

صار البلد يطفوا على مستنقع من الفوضى، ربما تتطور المسألة وتتسبب لجزئيات أكبر لا تحتمل، قد تتحول لغدر وانتقام، فمن يستند على جدار من الورق، لن يتمكن من أن يقف بوجه إعصار مدمر..

إذا هذا هو قدره، لا بد من صك فمه بالشمع الأحمر، والتخلي بالصبر، والتأني، وتحمل المصائب دون أن ينبس بشفة حتى تقوى جذوره ويشدد عوده.... ولن يقوى على حل مشكلته واسترداد حقه بالمقارعة أبداً، وأفضل حل هو أن يدع المجرم ينازع ضميره أن يستسلم لذاته، فالإنسان إذا ما فلت من قبضة العدالة الجنائية؛ فلن يفلت من عدالة الرب ولو بعد حين. هذه القناعة خفت من توتره، أعطته يقين بأن الله لهم بالمرصاد، مثل ما أنجده من فقره، ينصره على أعدائه... لذا مهما كبر وطال شأنه؛ لا بد من أن يلسعه ضميره بفعلته الجبانة، لا بد أن تعود الحياة لقوانين الطبيعة التي تتحكم بالبشر ويتحكم بها الله، فالزمن كفيل بأذلال الجبروت.

فيما سبق كان كل شيء منظم ومحكوم بشرائع وقوانين، أما الآن سطت شرائع الفوضى، فضاع رأس الخيط تحت عجلة الأحداث، لا توجد سلة نفايات تزج بها هموم الجار وشظايا النار، باتوا يعيشون في دوامة الغاب، القوي منهم يأكل الضعيف والشاطر من يتجنب عصف المخاطر. هكذا كتم على همه وزاد من حرزه وحذره، الوضع لا يأتئم، الثقة باتت معدومة حتى بين أبناء الأسرة الواحدة، فما بالك بالشخص الغريب الذي عس في أزقة النعم!.. فيما سبق كان الجار يحرس جاره، ويحرص على شرفه ويقيم بيته وشرفه، ويتحمل وزره، يعينه على المصائب والمصاعب والفاقة. أما الآن..... صار الجار له أسنان يقضم المقربين منه، صار ثعبان

يلدغ وعقرب تلسع جاره، يحسده، يتعقبه، يستغل الفرصة للنيل منه! لذا اتفق قاسم مع رقية على عدم ترك البيت دون أن يمكت أحدهما فيه، لابد من تواجد ما يرعب أصحاب النفوس الدنيئة، مهما تصادفهم أحداث جسيمة في المستقبل.

فيما سبق كانت المحبة سائدة بين الناس، صادقة، كنهج جار؛ الكل يغرف من فرائه العذب. البساطة هي الصفة الغالبة بين البشر، ترفل بلون الياسمين وبراءة القرنفل وبطول النخل وبحسن وجمال الصبية، هذه الصفات تلاشت مع فكرة الاحتلال، لتصبح مدلهمة، شائكة، قصيرة، عبثية، لا يشيعها حسن ولا لون بهيج... مع الاحتلال تغير الحال، اخترقت صفوف الناس شرور الأحزاب ولعنة الطائفية، فمن تصيبه مصيبة صار لا يجد لذاته حلول لها تعينه على جلده؛ إلا أن كان منتميا لتلك الفوضى، باتت العقد والهموم تتعلق في أعناق أصحابها، تجردهم من سمة الفضيلة. أمسى الفرح يخص والترح يعم، هكذا تركت العادات بهرجتها في حدود الشخص وذاته وفي حدود المجتمع. وكأن الإنسان تجرد من إنسانيته، بات يعيش في تيه من أمره وهو يعالج أمره وحيدا، لا أحد يعضده أو يناصره.

مع تغير النفوس تغير الوضع، الكل صار يبحث عن الفرص ليستغلها لمصلحة ذاتية بحتة. أصبح الإنسان حذرا، لا يأمن شر ذاته وسخرية القدر وعقص الآخرين، بات يمشي على أنامل شكه، لا يشرك ذاته في ناقش ولا يرطن لجidal المارقين، لا يجامل أهواء القانونتين ولا ينظر لعناقيد الكروم المطاطية، تلك التي تغر الناظرين. ربما يغرق تفسيره في سوء تقدير من يجادلهم، فيصطدم بنية الأثمين واللصوص الحاقدين، الذين يبحثون عن أنصاف الفرص في عيون فرائسهم.. قد يذهب الإنسان بعكس اتجاه النية فيذهب ضحية غفلة تعص به، فيقع في مطبات الشك وجعجة السين جيم

التي لا تنتهي نقيرها، خصوصا مع ذوات الشان والمحسوبية.
والخصوم باتوا كثر يمتلكون آذان صاغية وقلوب نغصة.

ذهب الخروف -- “ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ” [البقرة: 216]. صدق الله العظيم.

أخذ بسلم الآية وسلم أمره لله، جعله صدقة وقربان للشهيد حسن، ثم قرر أن يشتري خروفا جديدا عوضا عن المسروق، وفعلا تم له ذلك بعد انتهاء مآثم حسن بشهر تقريبا أو يزيد، اشترى كبشا وحدد موعدا جديدا لنحره.

بعد تلك الحادثة صار أكثر حرصا وتجببا من الجيرة، صار ينظران إلى الناس قاطبة كذئاب مفترسة تتحين الفرص للنيل منه، باتا يتعامل مع محيطه بحذر شديد، محاولا تجنب الاحتكاك بهم، محتفظا بسرائره، كل شيء في الحياة له ثمن وخصم؛ حتى الأهواء والنية.

حسنا فعل في استفساره من أبو عادل الجعسوس عن مصير الخروف، تلك كانت إشارة مبطنة منه باتهامه هو وأبنيه بالسرقة، لذا حذر أبو عادل أبنيه من العبث مع أبو محمد في المستقبل، كي لا يفسد سمعته في المنطقة.

في صبيحة الجمعة الأول من شهر آب، وبعد فترة قرابة شهرين من وفاة حسن، تم نحر الخروف، وزع لحمه كصدقة على مجموعة من الجيران، كما خصص جزء منه بحدود اثنين كيلو غرام لوالدته وأخيه..

بعد أن فرغ من توزيع الصدقة على الجيران، توجه قاسم بصحبة أبنه محمد لبيت والدته الكائن في منطقة الفضل، ليقوم بواجب الزيارة التي تأخرت كثيرا بسبب تقلبات ظرفه وظرف البلد، ليفرحها بواجب الزيارة والصدقة وينظر لاحتياجاتها واحتياجات البيت، وليعذر لها عن تأخره عن واجب السؤال والزيارة.

أكريا عجلة تكسي، حيث المسافة ليست بعيدة؛ ولكن طريق المشي غير مؤتمن، الحذر واجب في ذلك الظرف العسير.. وما أن دخلوا زقاق الحي؛ حتى وجدوا تجمعا للناس قرب بيتها، خاله الشك بأن أخوه جاسم قد عمل مشكلة ما مع الجيران أو مصيبة ورط نفسه بها، بات يلغنه في قرارة نفسه، حيث دائما يفتعل أزمات مع الناس... وحين تقدم من الجمع سأل أحد الواقفين دون معرفة مسبقة ودون مقدمات ليشم رائحة المصيبة، سألته عن سر هذا التجمع، وإذا به يخبره بوفاة أم جاسم.

- ماذا... هل أنت جاد.. ماذا تقول ؟

أستكان في صمت وذهول، كأنه غير مصدق الخبر، وغير مصدق لحظات توديعها الأخيرة، سرح في فكره بعيدا قبل أن ينفجر حزنا على أمه ومآقيه مغررة بالدموع، سألت على خديه كالوخز، حينها غص لسانه بحزن كظيم، بات ينوح والشهقة تشرخ أنفاسه:....

- لا.... لا يا يمه لا. استعجلت الرحيل..

لا يا أماه.. جئت أزورك بعد قطيعة، فأبيت أن تستقبليني،
أبيت إلا أن تهربي من منفي للآخرة!.. يا للحظ السيء
كانك تقصديني، والله يا أماه ما منعني القدوم غير الظرف
وسوء الطالع الذي في جيبني.... سامحيني يا يمه.
- وهل تعرف المرحومة؟
- أنها أُمي.... أُمي الغالية...

ثم دلف يتخبط في مشيه وهو يكي باتجاه البيت، وحين ولج في
الدار وجد جمعا غفيرا من أبناء الجيرة، وجد جارتها أم رجاء التي
دائما ما كانت ترعاها في وحدتها وتسل عن صحتها، أخبرته
قائلة:....

- كل صباح أطرق الباب عليها لأقدم لها طاسة الروبة (الخاثر)، واليوم حين طرقت الباب لم تفتحه لي... فيما
جاسم كأنه لم يبت في البيت، ما دعاني أن أستدعي زوجي
ليفتح الباب عنوة عليها...
مسكينة، لقد ماتت وحيدة، غريبة، ربما احتاجت شربة ماء
ولم تستطع خدمة نفسها حتى وجدناها ممددة في فرشتها
دون حراك.. لقد أختارها الله في يوم كريم... ثم لا نعرف
لها قريبا سواك أنت وجاسم.. كما لا نعرف أرقام هواتفكما
وعناوينكما.. إلى رحمة الله.
- حسنا فعلت يا أم رجاء، ثم نزلت دموعه، وهو يأن بصوت
أجش شجي:.....
(يمه يا يمه من بعدك ما ظل عندي وطن، يا يمه غيابك
قتلني وزود بي الشجن، برحيلك انقطعت جذوري تعقدت
أموري... يا يمه سامحيني تراني من زعلاك يمكن أجن)...
وداعا يا يمه....

اودع كيس اللحم لأم رجاء، ثم أتصل على صفاء هاتفيا، حينها كان قد أنتشر للتو هاتف الموبايل على نطاق ضيق، مهاتفا إياه قائلا له:...

- ألو...أبو عامر؛ أرجو منك أن تجلب أم عامر وتأتي إلى دار أمي في منطقة الفضل - أمي سلمت عمرها لله، لقد توفاه الله فجر هذا اليوم.
- ماذا تقول - لا إله إلا الله.
- لا تتأخر، لا يوجد أحدا في الدار - الجيران قائمون بالواجب، وأنا صدفة جئت أزورها، لكنها لم تنتظرن وجاسم غير متواجد فلا أدري بأية زريبة نائم...
- نصف ساعة وسنكون عندك بأذنه تعالى.

عجز عن معرفة أين يتسكع أخوه ليخبره بوفاة أمه، لم يكن يملك موبايلًا للاتصال به. طلب من أبنه أن يذهب للبيت ليخبر والدته ومن ثم يعودان سوية لتدبير طقوس التابين والعزاء. ثم طلب من أمام المسجد القريب من دارها أن يفتح له باب المسجد ليقيم فيه مأتم العزاء لصغر دارها، فتيسر له ذلك ببسر.

قبل فترة الظهيرة وصل أخوه جاسم الذي كان نائما في غرفة صديقه ورفيقه في العمل جعفر، ورائحة الخمر تعط من شذيقه.. حين رآه أخوه وبخه على تصرفه وسلوكه الأهوج، ذرف دموعا كدموع التماسيح ربما شعر بتقصيره وإهماله لأمه، ولكن هيهات تنفع الندامة أو تزيج عن القلب شجنه. فقال له:....

- بدل السم الذي تشربه كل يوم أشتري لك هاتفا نقالا لنعرف أين تتسكع؟ كيف تبيت بعيدا وأنت تعلم والدتك مريضة؟
- تلومني ولا تلوم نفسك؟ تسألني وأنت المقصر معنا!...لم لم تزورها منذ زمن؟ لم لا تتصدق عليها؟ يا أخي طل علينا

ولو بالشهر مرة؟ تلومني وأنا الضائع، التائه، أنا أهرب من ذاتي لكأس الخمر كي أنسى همومي، لذا تجدني أتسكع في دور المباغي والبارات بحثا عن ذاتي التي ليس لها وجود.... ثم هل كنت أعلم بها ستموت الليلة؟

- صدقت لقد نسيت نفسي، وأنت لم تحاول أن تغير من ظرفك، بقيت تتبع أهوائك الحفيرة خلف الملذات.

- هذا الذي فالح به ترمي اللوم عليّ.....

لم يجد الكلام نفعاً، بعد ذلك انشغلا في دفن الجثة وإقامة مأتم العزاء.. من عادة الناس والمعارف وقت التأبين أن ينموا بمساعدة أهل المتوفي بالعمل في إدارة محفل التأبين، أو بدفع عذر لأهل المتوفي - وهو مبلغ من المال أو من المؤن ليكون عوناً لهم في مواجهة زخم المعزين، الذين يتوافدون عليهم بكثرة لتقديم العزاء..

كان صفاء قد أقتنى خروفا في اليوم الثالث من أيام العزاء ليضحي به إكراماً لوجه الله على روحها الطاهرة، وذلك تعبيراً عن السنة المعمول بها في الديانة الإسلامية. وكانت تلك لفظة عززت مكانته في قلب زوجته هدى وفي نظر قاسم الذي يجل له احتراماً كبيراً.

أنشغل الجميع في المأتم إلى جانب قاسم خلال الفترة العصبية التي حلت على رؤوسهم بالغم والهم وبشكل مفاجئ دون مقدمات، كان صفاء نعم المعين وخير النسيب والجليس في إدارة المأتم، لشخصيته المرموقة وطيبته وبساطته، لذا كان قاسم يوكل له المهام الصعبة خلال غيابه في إدارة المأتم.

يعتبر العذر جزء من المشاركة في المأتم، يصرف على الوافدين الجدد على شكل سجائر أو مشارب من الشاي والقهوة، أو يصرف على وجبات الطعام كتقليد معمول به لمدة ثلاثة أيام، وبعد انتهاء المأتم يجمع ما تبقى من المال لفعل الخير على روح المتوفى أو

يجزى ببناء القبر. وكان قاسم قد سلم ما جمع لأخيه جاسم، فهو أولى بالصدقة، ليكون عوناً له على مواجهة الظرف القادم، كما أضاف على المبلغ مبلغاً من جيبه دون أن يخبر جاسم بذلك، كما دس في جيب أخته هدى ما قيمته خمسمائة دولار لمواجهة الظرف الذي لا يحتمل دون أن يبلغها عن مصدره...

استغل جاسم هذا المبلغ في ترميم سقف البيت ولبخ جدرانه الداخلية بمساعدة صديقيه جعفر ورشيد، وتغيير بعض أثاث البيت البالي. لذا العملية لم تكلفه سوى تكلفة المواد من أسمنت وصبغ. وحين وجد ذاته وحيداً؛ استدعى صديقيه المشردين ليقاما معه في بيته، فلم يمانعا ذلك لقرب الدار من مركز عملهما في الشورجة.. حينها أصبحت الألفة بينهما أشد قوة بعد أن اشتركا في المصرف والمبيت والعمل والعريضة.

أما قاسم بعد وفاة أمه صار يتصدق على روحها الطاهرة بعيداً عن أهل الحي الذي يسكن فيه، كثيراً ما كان يلوم نفسه لتقصيره بحق والدته دون قصد، شعر بالندم على عدم المواظبة بالسؤال عنها، أخذته الظروف في مسالكها المعقدة فنسي أمر والدته حتى حل أجلها، كما قتر عليها المساعدة مادياً بسبب القتر الذي كان يعيشه وضعف مردود المادي عليه، حيث ما كان يحصل عليه لم يكن سوى فتاقت لا تسد رمق العيش. هكذا تسلط الظرف عليه، دخلت عناكب الفقر لجوف صمته، جردته من المبادرة، على الرغم من أنه كان أقوى من ذاته على مر الزمن....

إذا ذهبت لدار حقها، وكأنها أبت أن تعيش عيشة رفاه وهناء بعد الذل الذي ناصب زوجها من قبل. ثم أن هذا البلد لا تتدخل فيه الجراح ولا تهدأ فيه النفوس، إلا حين تهمد الوقائع، لن يسعد به أحداً حتى لو ملك مال قارون. عواصف الغل الهوجاء دائمة الحركة فوق ساحته، مستمرة في ضرب شواطئه، حيث بين فترة

وأخرى تشتت أمواج العصف داخليا أو خارجيا لتسجل سبقا في تاريخه، كأنَّ العراق يقبع على بركان فوضى وغضب وعقد، ما أن تقل حقبة حتى تأتي حقبة أخس وأذل منها عطاء ومكانة، وهكذا دواليك تتدحرج عجلة الزمن به، وقد قال الشيخ عمر الكافي عالم الفقه في مصر: شامخ في تاريخه ، لو كان العالم كله نقطة في سجل التاريخ فالتاريخ كله نقطة في سجل تاريخ العراق.

الظرف الشائك جعل من الوطن مستنقع عقد، التفت خيوطها على أعناق الشعب قاطبة، صارت العقد والمشاكل تلتضم بخيوط سلسلة طويلة من أمساد تعلق في الرقاب، تعقص النفوس، تجلي الابتسام عن الثغور، تجلي الحلم عن الأناة والفكر عن الذهن والسلام عن الأمان. تلك هي صبغة الحياة المشاعة بين الناس، أو المفروضة عليهم من قبل المحتل وأعوانه دون إمكانية تخطي حدودها.

صفاء أبو عامر لم يكن مجرد ضابط في الجيش العراقي، بل كان مرآةً لروح وطنٍ يتأرجح بين الكبرياء والانكسار. في الأربعين، جسده متين وملامحه وسيمة، لكن عينيه تحملان قلقًا يثقل الروح أكثر مما يثقل الجسد. كان يعرف أن القوة ليست في فوهة البندقية، بل في المعنى الذي يمنح السلاح شرعيته، وأن الجندي بلا قضية ليس إلا آلة، بينما القائد الحق هو من يزرع في رجاله معنى الرجولة والتضحية.

حين جاء الاحتلال، جاء كريخ عاتية، اقتلعت جذور الجيش وألقت برجاله في فراغ وجودي. القرار الجائر بحل الجيش لم يكن ورقة إدارية، بل خنجرًا في خاصرة الوطن، جرحًا مفتوحًا في جسد الأمة. آلاف الضباط وجدوا أنفسهم بلا هوية، بلا وظيفة، بلا مستقبل. صفاء، الذي كان يقود الرجال في ساحات القتال، أصبح جليس البيت كالحريم، لائذاً بين مسجد أبي خنيفة والبيت، باحثاً عن لغز الخلاص في الأدعية التي يحفظها، صار يبحث بالدعاء عن معنى تواجد وسط العبث.

في الليل، كان يسمع صدى أسئلة وجودية تنهش قلبه: هل الإنسان يُعرّف بدوره أم بذاته؟ هل الكرامة رفاية أم جوهر الحياة؟ كان يدرك أن الجوع لا يلتهم الجسد وحده، بل يلتهم الكبرياء أيضاً، وأن الخذلان يفتك بالروح كما يفتك السيف بالفريسة. ومع ذلك، كبرياؤه كان يرفض الانكسار، كأنه يصرّ على أن الإنسان بلا كرامة ليس إلا ظلاً يتجول في طرق الزمن.

صفاء عاش ثماني سنوات من حرب الخليج الأولى، حيث الدم والعرق والدموع شكّلوا في ذهنه ذاكرةً من الألم والكرامة. تلك التجربة علّمته أن الإنسان يمكن أن ينهض من الرماد. لكن

الاحتلال علّمه أن هناك جراحًا لا تندمل، وأن هناك قرارات تُسقط الأمم كما تُسقط الرجال.

هكذا تحولت حياته إلى سؤال فلسفي مفتوح: كيف يتحول الإنسان من علّم بارز إلى ظلٍ هائم؟ من قائد شامخ إلى متسكع في الطرقات؟ صفاء لم يكن ضعیفًا، بل كان إنسانًا جُرد من دوره، والإنسان حين يُسلب منه دوره يُسلب منه معنى وجوده.

صفاء أبو عامر هو شهادة على أن القرارات السياسية ليست نصوصًا جامدة، بل مصائر تُفتت الإنسان كما تُفتت الوطن. هو رواية وجودية عن رجلٍ يقف بين الرجاء واليأس، بين السماء والأرض، يبحث عن معنى في زمنٍ فقد معناه.

صفاء أبو عامر لم يكن ضابطًا عاديًا، بل تجسيدًا لروح وطنٍ يتأرجح بين الكبرياء والانكسار. في الأربعين، ملامحه وسيمة مثقلة بقلق المصير، جبينه يقطر عرقًا من التفكير في بلدٍ يتهاوى أمام عينيه. علّمته الحروب أن القوة ليست في السلاح وحده، بل في الحجة والصبر، وأن الجندي بلا قضية آله، بينما القائد الحق هو من يصبر على النائبات دون أن يفقد الأمل في التحرر.

لكن الاحتلال جاء كريح عاتية، اقتلع الجيش من جذوره. قرار حل الجيش لم يكن ورقة إدارية، بل خنجرًا في خاصرة الوطن، جرحًا مفتوحًا في جسد الأمة. آلاف الضباط وجدوا أنفسهم فجأة بلا وظيفة ولا مستقبل.

كبرياؤه يمنعه من الانكسار، لكنه لا يمنحه الخبز. الجوع يلتهم الكرامة كما يلتهم الجسد، والخذلان يفتك بالروح كما يفتك السيف بالفريسة. صفاء أدرك أن الإنسان بلا كرامة ليس إلا ظلًا يتجول في طرقات الزمن.

صفاء لم يكن وحده يعيش تلك المعمة؛ آلاف الضباط وجدوا أنفسهم في تيه لا يُحتمل. هؤلاء جميعا لم يتقنوا الأعمال الحرة، ولم تسمح لهم كرامتهم بالعمل تحت إمرة أحد. كانوا قادة، لا مأمورين. النظام السابق صاغهم في قوس الخدمة الخاص، وضعهم في عالم مغلق، منحهم رفاهية وهيبة، كما حرّمهم من مهارات الحياة المدنية. وحين انهار النظام، انهارت معهم حياتهم، فكان السلاح ملاذهم، والمقاومة خيارهم، والدفاع عن الوطن مذهبهم.

صفاء هو صورة مكثفة لفلسفة الانكسار: كيف يتحول الإنسان من علمٍ بارز إلى ظلٍ هائم، من قائدٍ شامخ إلى متسكع في الطرقات. هو سؤال مفتوح عن معنى القوة، عن معنى الوطن، عن معنى الإنسان حين يُسلب منه دوره. هو شهادة على أن القرارات السياسية ليست مجرد نصوص، بل هي مصائر، وأن الوطن حين يُفتت، يُفتت معه الإنسان، وأن الجيش حين يُحل، يُحل معه معنى الكرامة.

حلّ الجيش لم يكن قراراً إدارياً عابراً، بل كان سُماً مدسوساً في كأس الوطن، تفتتاً متعمداً لبنية الوطن المتماسكة، قراراً يخفي في طياته غاية السيطرة وضمان البقاء، وتحجيم خطر الجيش المستقبلي على إسرائيل، وإبقاء الفوضى عائمة في المجتمع لأطول ما يمكن، لتدام السيطرة..... الزنبيل الذي كانوا يقتاتون منه جفّ وانقطعت سبله، لتغدو حياتهم موسومة بالعقد والضجر والظلم، محاصرة بوحشية قسرية لا ترحم من قبل الزمن الذي بات يفترس تفكيرهم.

بعد الاحتلال، وجد صفاء نفسه يدور في دوامة من الحيرة والقلق، عاجزا عن مواجهة الظرف المتقلب، سعى بكل الطرق تدبير لقمة العيش بعدما أغلقت منافذ الرزق تماما أمامه في ظل الأوضاع المتدهورة بعد الاحتلال، اغلقت أبواب الرزق في وجهه ووجه

رفاقه من أبناء المؤسسة العسكرية بالذات. ما إن اشتدت الفاقة حتى تقلصت الأحلام، وغدت الفوضى سيّدة الفكر والذات والشوارع، لتترك النفوس أسيرة أيام مرة لا تتقضي. صفاء، كغيره من الضباط، وجد نفسه في تيه من أمره ربيب الحيرة بلا معين، ضحية ظرفٍ ساومه على حياته وحياة عائلته، فيما صورة المستقبل المبهمة تتكشف سوادًا يومًا بعد يوم مع تواجد المحتل والفرق الضالة من ورائه، حتى صار الغد القادم بلون الحزن، مرآةً للرعب، كلما نظر إليه من زاوية الوجود تنكسر مرآة الصمت، متحدث ضجة في داخله.

بتجريده من دوره، تحولت حياته إلى رهان نجاة وهيجان مضطرب، ريح بهتان تضرب شواطئ قلبه، فلا تنفع معها مصدات التمني ولا ألعاب الورق. حياته غدت رتيبة، مملة، بلا روح، تكسرت مجاديفها على حين غفلة، حتى وجد نفسه معزولاً على رصيف الموت، غارقاً في بحرٍ من الغم والهم، تحيطه وساس الفلق وشياطين الضياع، فيما فرق الترهيب والملاحقة تبحث عنه خارج البيت لتنتقم من ماضيه الثوري الوطني. صار الشك والمراوغة والانتقام أنياباً تنهش يقينه وتبعثر فكره وتنهك جسده.

ومع تسارع الأحداث، جُرد من المبادرة، وتحولت حياته إلى سكونٍ قاتل، دُحرجت شخصيته من قمة الألق إلى وهدة الصمت والذل، من علِّمٍ بارز في محيطه إلى متسكع هائم في الطرقات. أضحي كالعجزة، قانعاً في داره، متفرجاً على الأحداث عبر الشاشة دون حلول تقيه شر الغد القادم. ذلك ما أورثه خملاً وانكساراً دائماً، بات يشعر معه بالحرَج والضعف أمام نفسه، فانطفأ نبراس فكره، وصار فانوساً واهناً لا يقاوم عسف الريح، فيما أغلقت مسارب الحياة بالشمع الأحمر.

كانت عقوبة ظالمة شملت صفاء وزملاءه من أبناء المؤسسة العسكرية الذين أفنوا أعمارهم في خدمة الوطن، فُرضت عليهم الذلة دون حق أو قناعة، فقط لأنهم محسوبون على جيش النظام السابق. والحقيقة أن قرار حل الجيش لم يكن إلا أداة لتدمير البلد وإضعافه.

وما زاد الطين بلة هو انهيار الأمن وتفكك أوصال الدولة، إذ جاءت مهزلة المحاصصة الطائفية المثبتة في الدستور المهلهل لتبعثر مقومات الوطن في دروب التيه. صيغة مشوهة سارع المحتل إلى دعمها وتثبيتها، مدرّكاً أنها تخدم أجنداته. أما الدستور الجديد، فقد صيغ من قبل ثلة من المنتفعين والحاquدين الذين لا تربطهم بالوطن صلة، ففتحوا أبواب الفوضى على مصراعيها، وأطفأوا نور العدالة ليبقى الوطن تحت طاولة التقدم والرقى إلى الابد.

طرحنا مشاريع التقسيم على طاولة المفاوضات، فعمّقت الشرخ بين مكونات الشعب، وألقت بالبلاد في دوامة الانحدار نحو مستنقع الرذيلة. باتت الفوضى والطائفية ترتع على وقع صدى إعلام العدو، مدعومة بجهات داخلية ذات مصالح ضيقة، ليعيش الشعب حالة من الهذيان وهو يدور في فلك الانقسام والتفكك.

هذه الوقائع عجلت ترسيخ الطائفية، وأغلقت أبواب الفرص في وجه منتسبي الجيش، الذين وجدوا أنفسهم دون سند، عاجزين عن ممارسة العمل الحر، إما لضعف الخبرة أو لغياب المهارات، أو بسبب الغلّ السائد في الشارع أو لعدم امتهانهم تلك الاعمال أو لحفظ كرامتهم العسكرية. العزلة التي اعتادوها في ظل النظام السابق جعلتهم يقطنوا خارج دائرة العمل الحر، فلم يجدوا بديلاً يعوضهم عن وظائفهم.

تفاوتت المواقف بين تلك الفئات، فلكل أسبابه التي دفعته لتجنب الانخراط في الأحزاب الجديدة، لما فيها من غموض وتشعب في النوايا، حيث الشك صار مسمارا يثقب قلوبهم. وكان صفاء مثالا حيا؛ رجل اعتاد الوقوف شامخا، لم يتقن الأعمال الحرة، ولم تسمح له كرامته بالعمل تحت إمرة أحد، فقد نشأ قائدا، لا مأمورا.

النظام قبل الاحتلال كان صارما في رسم حدود الضباط، بحيث منعهم من الاختلاط بالمراتب الدنيا حفاظا على هويتهم، وحظر عليهم الأعمال الحرة التي من شأنها تجعلهم يختلطون بالعامّة، وضعهم في قوس خاص، وعالم خاص لا يليق إلا بهم، خلق لهم كاريزما الشخصية العسكرية. في المقابل زاد من رفاهيتهم بزيادة مرتباتهم ومميزاتهم المادية والنفسية مقارنة ببقية فئات المجتمع.. الضابط كان سيذا مهابا، محافظا على مسافة ثابتة بينه وبين الآخرين، لتبقى شخصية لها هالة في عين الغير، ليتمكن من تنفيذ الأوامر وليحتفظ بعزة النفس أمام المجتمع.

ذلك هو السر الذي ميّز الجيش العراقي عن غيره منذ تأسيسه عام 1921، وهو ما منح الجندي التزاما صارما بمهامه، مهما بلغت صعوبتها. لكن بعد أن حلّ الجيش، وجد منتسبوه أنفسهم في تيه وضنك، في دوامة لا يعرفون طريقا يقنهم شر الغد، ولا يعرفون وسيلة تدرّ عليهم رزقا كريما. معظمهم لا يجيدون أعمالا حرة، فكان السلاح ملاذهم، والمقاومة خيارهم، والدفاع عن الوطن مذهبهم. مدفوعين بروح قتالية وغضب داخلي تجاه المحتل الذي دنس أرضهم.

كغيره، أصبح مقبورا وهو حيّ يعيش في مجتمع تحكمه القيود والعقد، تحت سلطة منتدبة من الوصوليين الذين تسنموا زمام الدولة تحت إمرة المحتل، هؤلاء الذي باتوا أجدادته الخارجية.... بعد حلّ

الجيش، أضحى الضابط يشعر بالنبذ والوحداية واللاجدوى، لا يملك عصا موسى لتدبير رزقه، ولا مكانة تحفظ له كرامته.

كان قرار حلّ الجيش خطأً جسيماً بحق العراق ومنتسبي القوات المسلحة، قراراً مجحفاً قاسياً، وضع الضباط وعائلاتهم في خانة البؤس والعداء، سحق فرصهم في الحياة دون تعويض، فاندثر الجاه والمنصب والهيبة والاحترام تحت وطأة الحلم بجرة قلم من الحاكم برايمر.

حينها شعر صفاء بحالة التجرد من الشخصية والهيبة أمام نفسه، أضحى يرى صورته في المرأة بشكل عبثي، شبحي، لا تمت لواقعه بصلة، صورة تختلف بها ملامحه عما كانت عليه قبل الاحتلال. بات يتنفس دنس الهواء الملوّث وغبرة الحرب التي نثرت عُقدّها على رأسه، أمتلاً فاهه بقيح اليأس، علقت الغصة المرة في صدره كجمرة ملتهبة، أحرقّت زغب صبره وبهاء ابتسامته، جعلت عينيه تتورم وتذبل وهي تغتسل برمد السهد والسهر جراء التفكير المستمر بأمره..

ذلك ما دفعه يتوعد بالانتقام من أجل كرامته، وذلك عندما طفح الكيل وبلغ السيل الزبى، تقمصه حالة غضب في سره، غطت على مربع خياله دون أن يجد مسلكاً آخرًا يحرف قدره عن خط الفوضى، لم يجد بديلاً للثأر والانتقام، ذلك الذي بدا يثري فكره وعقله بفعل سلوك الغاصب.

أنشغل باله بحياة أسرته ومصيرها المقبل، انحرفت بوصلة الزمن به نحو الخنوع والعذاب النفسي، صار يمشي خلف راحلة الرجاء وهو ملثم الفاه، بعد أن عزم على تحدي المحتل. التفكير المضنّ صرعه، هرش مخه، غدى في واقع ظنه كحشرة القمل وهي تمخر رأسه نتيجة التفكير بمصيره، لم يعد يشعر فرقا بين ساعات الليل

وأوقات النهار، أضناه اليأس والتعب، زهقت احلامه واحلام أسرته، أرداه الظلام الزاحف إلى واقعه وحقيقة شخصيته التي تأبى المذلة.

منذ بدأ تنفيذ القرار، أصبح صفاء شريداً في داخل نفسه، طريداً، لا يمسك زمام أمره كما كان. لم يعد قادراً على مقاومة الظروف وهو يرى أنفاس أطفاله وزوجته المعلقة في عنقه تشهق الحرمان، ولن يسمح له ضميره بالتقاعس عن تلبية احتياجاتهم طويلاً. ضاقت به الأيام، وعجز عن البقاء مكتوف اليدين في ظل واقع منقلب، فالموت أهون عليه من العجز... وهذا ما دفعه إلى طرق أبواب المقاومة، برحابة صدر وقناعة راسخة.

انتمى صفاء إلى فصيل مقاوم ضمن قاطع الأعظمية، وشارك في عدة عمليات ضد القوات الغازية ضمن مجموعة "الفرسان". كان مقاتلاً شرساً كما عهد نفسه في مجمل حياته، ضارياً ضراوة المسلوب حقه، تمكن من قتل عدد من جنود المارينز خلال مشاركته فرق مقاومة الاحتلال، كان قد فجر دبابة على حدود بغداد الجنوبية ضمن مجموعة "أبو علي". بعد تعاون مجموعته مع فصائل أخرى التي اتحدت في الغاية، تمكنوا من إحراق آلية همر بجنودها في أطراف بغداد، قاتلوا المرتزقة داخل أسواق العامرية عبر القنص والمطاردة، زرعوا عبوات ناسفة هنا وهناك متبعين تجمعات قوات المارينز في شوارع العاصمة ومحيطها.

كما شارك صفاء في عمليات ضمن قاطع ديالى والأنبار وصلاح الدين، خلال فترة ستة أشهر من العمل المتواصل، أبلا بلاءً حسناً في كل المعارك، بعد أن توحدت صفوف المقاومة وتبادلت الأدوار والمعلومات. كما شارك في عمليات إجلاء قوات العدو ضمن حزام بغداد، وكان كالليث الارقط في تقصيه جنود المارينز في الاعظمية.

العين بالعين والسن بالسن، والبادئ أظلم. صار صفاء يحارب من دنسوا تراب وطنه وقطعوا رزقه، من سرقوا ثرواته وتراثه وكبلوه بالهم والغم. أولئك الذين سطوا على بنوك العراق وآثاره، قتلوا أطفاله ونساءه بفرض الحصار الجائر الذي دام ثلاثة عشر عامًا، هم من زرعوا فتنة الطائفية ودمروا ملجأ العامرية.

كان صفاء قد علم ابنه حمل السلاح، كما شجّع زوجته على دعم المقاومين بنقل الرسائل وتبادل الأخبار بين القواطع، في الوقت الذي كان فيه هواتف المحمول محدود الانتشار، في الوقت الذي كانت فيه شبكات الاتصال تعتمد على تغذية دول الجوار التي استغلت فرص ذبح الشعب العراقي اقتصاديا. كان النظام السابق قد منع من قبل أمريكا وبريطانيا من الحصول على التقنيات الجديدة لخدمة الحياة، ما جعل العراق يدخل عالم الاتصالات متأخرًا، كآخر دولة في سلسلة الدول.

كان النظام السابق صارمًا جدًا في تعامله مع الشعب، حرم الشعب من أبسط وسائل الترفيه، كاستخدام الساتلايت لمتابعة القنوات الخارجية، ولم تدخل شبكة الإنترنت إلى العراق إلا بعد سقوط النظام بثلاث سنوات. كان المواطن مجبرًا على سماع أخبار العراق عبر المذياع فقط، وهذا ما كان يؤلم الفرد العراقي ويزيده امتعاضًا، لأنه مغيب عن الحقيقة. ومن يمتلك صحن استقبال قنوات التلفاز؛ كان يُعد مجرمًا في نظر القانون البعثي، وقد يسجن أو يعدم.

المعرفة ومواكبة التطور هما غذاء الروح والعقل، لكن الجميع كان يعاني من طامة السكوت خوفًا من جز الرقاب. بتنا نشعر أن الحروف تبخرت من أفواهنا، وفقدنا القدرة على التعبير لنيل المطالب، لم نعد نفهم الجمل ولا نستوعب مضامينها بالشكل المطروح، بسبب غياب الحرية وبعد النظر (نفذ ثم ناقش) عبارة

أخرستنا. تشابه الجميع في الظلم والخرس، حتى أصبحنا كقطيع الغنم، نأكل ما يريده الراعي، ونلبس ما يريده، وننفذ أوامره دون اعتراض، والخوف يحيط بكل فرد دون ذنب.

بعد الاحتلال، تأملنا فرجاً حين التحق العراق بركب الإنترنت والموبايل والساتلايت، لكننا فقدنا الأمن والوطن. انتشر الفساد والقتل والفوضى، تلاشت كل ملامح الحياة الجميلة، تفشى العنف والعبث واللصوصية كالنار في الهشيم، بعد أن تنوعت أشكال القتل والفساد والأفكار الدخيلة التي تغلغت في مفاصل الدولة والمجتمع.

ما أبغض المواطن؛ ذلك الذي زرع الغيظ والفرقة بين الطوائف والعامّة من الناس، مما جعل الشعب يندم كثيراً على عدم جديته في مؤازرة النظام السابق ضد المحتل. نعم كانت هناك أخطاء كبيرة ولكن كانت هناك دولة قائمة، على الأقل لا يوجد لصوص ومجرمين يطوفون في الشارع.

تحت ظل المحتل تمكنت الميليشيات من تجنيد عددا كبيرا من أبناء الشعب على حساب الطائفية بعد أن أغرتهم بالمادة، هؤلاء الذين عصفت بهم ظروف سابقة من جور وظلم وقسوة حصار، وجدوا الفرصة مواتية أمامهم لتحسين وضعهم المعيشي بانتمائهم لتلك الميليشيات، قسمٌ منهم جذبهم الطائفية فودوا تسلق المناصب والرفعة باسمها. تلك الفرق كانت قد عيشت في أمن وأمان الدولة، أوقدت نار الفتنة والطائفية بقصد أو دون قصد، دخلت لتقتصم من من كان محسوباً على النظام السابق أو كل من له انتماءات وطنية أو متحمس لمقاومة المحتل، وذلك بتوجيه واضح من أسيادهم..

اضحى من يقارع المحتل يعتبر خائناً في عرف الوجوه الجديدة، التي رافقت دخول المحتل وبالذات تلك التي سادت المناصب الرفيعة، تلك القشة التي قصمت ظهر البعير، والتي فرقّت بين

الطوائف حسب شدة معاداتها للمحتل والمناصرة له. الميليشيات باتت تعبت في توازن مكونات الشعب، تلاحق عناصر المقاومة وبالذات المحسوبة على الطائفة السنية التي تركزت فيها المقاومة ضد المحتل.

لذا صار الطابور الخامس والاحزاب الجديدة تتصيد ضباط الجيش والطيارون والعلماء والأطباء وأساتذة الجامعة والفنانون وخطباء المساجد وكل من كان له شأن واضح قبل احتلال البلد حيث تم اغتيال معظم المشاهير ومن له تأثير واضح على الشعب. ربما القتلة جندوا من قبل الصهيونية والحكومة الكويتية كما هو مشاع.

في هذا الإطار تعترف مجلة المشاهد السياسي البريطانية بتاريخ 22\3\2013 وهي تفتح ملف اغتيال العلماء والدكاترة والاطباء والضباط العراقيين وتكشف عن قتل 5500 عالم عراقي، وبحسب المجلة كان الطرف الأول هو الموساد الذي دخل العراق مع قوات الامريكية المحتلة، والطرف الثاني المخابرات الامريكية المركزية، والطرف الثالث هو فريق عراقي موجه من قبل دول الجوار لقتل الضباط، هذا ما قرأته نصا على صفحات جوجل. وكان أكثر من 1550 من العلماء واساتذة الجامعة فصلوا من وظائفهم في سياق الحملة الامريكية الاسرائيلية التي استهدفهم للاستفادة منهم ونقلهم خارج العراق. كما أعترف المفكر الكويتي عبدالله النفيسي في لقاء تلفزيوني من أن اسرائيل أدخلت عددا من عناصرها للعراق من أجل اغتيال العلماء.

سلسلة الاغتيالات التي شاعت في أرجاء العراق، جعلت حشدا كبيرا من العلماء والأساتذة تهرب خارج العراق باحثين عن مأوى آمن يكفيهم شر الملاحقة، الكثير منهم اتجهوا لدول الخليج..

على أثر ذلك نال السيد صفاء نصيبه على أيادي تلك العناصر الغاشمة. كونه أحد ضباط الجيش السابق.. كان ذلك حين خرج ذات يوم من مسجد أبو حنيفة بعد أن أدى صلاة ظهريرة الجمعة، فتلقى إطلاقاً من مسدس كاتم الصوت في رأسه من قبل عناصر ملثمة يستقلون دراجة نارية، وعلى ضوء ذلك سقط شهيدا مضرجا بدمائه.. لقد سجلت القضية ضد مجهول دون تحقيق من قبل الدولة. كان ذلك بعد ثلاثة أشهر فقط من وفاة والدته قاسم. كان وقع الصدمة شديداً على زوجته هدى وعلى السيد قاسم، حيث بوفاة صفاء أصبحت أخته دون معيل حقيقي، هذا يعني على قاسم تحمل أوزارها وطفليها إلى أجل مسمى.. ليس بخلا؛ إنما خوفاً من تفشي سر الكنز الذي عثر عليه..

بعد أن حل الجيش أصبح السيد صفاء رجلاً فقيراً، لم يدخر من وظيفته ذهباً أو أملاكاً سوى بيته وقليل من الدنانير لن تقاوم تقلبات الظرف الذي زاد غلاء وغلاء وفجأة يوماً بعد يوم... كان قد جرد من المكرمة المفروضة ومن نعمة التقاعد بعد أن خدم المؤسسة العسكرية مدة تزيد عن عشرين سنة؛ أنهى به المصير إلى أن يصنف ضمن خانة المجرمين المحسوبين على رجالات النظام السابق، هذا ما خططت له أمريكا نكالا بالشعب المسكين دون حق.

بتسارع تغير الأوضاع، تغيرت النفوس وتغير كل شيء في الحياة وبالذات في حياة قاسم، أرتفع قيمة الدينار عما كان عليه قبل الحرب، زادت قيمة العقارات أضعاف قيمتها عما كانت عليه قبل الاحتلال بعد تدفق العراقيون من كل صوب وبشكل ملفت للنظر وخاصة من الواجهة الجنوبية على بغداد، زاحفين كالجراد من كل لشراء عقار فيها، وذلك بعد أن تم الغاء قرار الدولة السابق الذي ينص على أن تكون بغداد خالصة لأهل بغداد المسجلين فيها على حسب إحصائية 1957.. والذي يمنع تملك العراقيين غير البغداديين في بغداد. كل ذلك جعل الأسعار تغلي في فوران دائم.

ذلك ما جعل السيد قاسم يتوه في صراع فكري عقيم، لا منفذ أمامه سوى منفذ ضيق يكاد لا يستطيع أن ينفذ منه، ألا إذا أمتطى صهوة المستحيل لمواجهة تقلبات الظرف، ساعيا إلى التغلب على مجرى الزمن وتقلبات المواقف، كان يطوف في دوامة القلق من حيث ارتفاع الاسعار وضعف الامان وعبء تصريف المبلغ بحوزته.

كان يدرك أنه لا بد من أن يستند إلى محور يضمن له ما تبقى من عمره، قبل أن تقلت زمام الأمور من بين يديه وسط ضغط الحياة وتضاعف الأسعار وتبخر مدخراته من الدولارات. راوده حلم بفك أسرته المالي، واستثمار ما تبقى من أمواله في عقار أو مشروع بقيه شر الندم، يمنحه سنداً في أيامه القادمة. فاخترل تفكيره وقلقه في شراء بيت مرموق، وعجلة تساعده على التنقل بين أماكن عمله، تسهّل عليه نقل بضاعته، وتخدمه في السفر والتنقل، قبل أن تتلاشى قدرته الشرائية وسط تقلبات الأوضاع المتسارعة.

استقر رأيه على اقتناء دار في منطقة بعيدة عن موقع سكنه الحالي. كانت رغبته أن يشتري في الدورة أو الكرادة، لكن حظه ساقه إلى

بيت أنيق في منطقة السيديّة، بعيد عن الأنظار، ليباعد عن معارفه ويضمن لنفسه بعض الخصوصية. اتفق مع زوجته على ترك البيت الحالي حالما تهدأ الأوضاع، على أمل أن تعود الأمور إلى سابق عهدها من هدوء وأمان.

كانت أحلامه سادرة، كأحلام الكثير من البسطاء الذين ظنوا أن الاحتلال سيجلب انفراجاً لأزمة العراق مع مرور الزمن. حلم بالمستحيل، يضيء ليله المعتم وسط انتكاسات ضبابية ومواقف متكررة. كان يأمل أن يتجاوز الوطن محور الفتن التي تغلي جذورها في الداخل، وتنهش جسده المنهك. لكن الأيام أثبتت أن الأمر يستفحل، والمحتل يتقن في تأجيج النار، يبتث أخباراً مزيفة، ويفعل التفجيرات وينسبها لقوى مغرصة حسب مزاجه.

فمن طبيعة المحتل أنه لا يسمح باستقرار البلد، ولا يترك فرصة للإنقاذ دون أن يجهضها، وإلا عليه أن يرحل بعد أن تنتهي العقد. فهو لم يأت مصلحاً أو محباً، بل جاء ليسرق الجمل بما حمل. لذلك استمر في الحفر والنقر، ليضمن بقاءه أطول مدة ممكنة، مستعيناً بعناصر محلية تحميه من المقاومة، وتمنحه شعوراً زائفاً بالأمان. فالاستقرار يعني نهاية مهمته التي جاء من أجلها حسب ادعائه، وهذا يعني انتهاء فترة استغلاله وسرقاته، ويعني أيضاً غياب المبررات التي تبرر وجوده.

لذا اختلق الفتن، وزرع بذور المشاكل الطائفية والاقتصادية، عبر العبوات الناسفة والعجلات المفخخة، يفتق بها الهدوء، ويقرب البعض من السلطة ويبعد آخرين. تقن في إدارة الفوضى، وعمّق الهوة بين الطوائف والقوميات، ليكون هو القاضي والنهائي والمراقب والجلاد والمنقذ بنفس الوقت، يفرض سلطته على رقاب المجتمع العراقي.

تمكّن السيد قاسم من شراء منزل في منطقة السيديّة بسعر 150,000 دولار، دفع منها 100,000 دولار كدفعة أولى، على أن يُكمل المبلغ بعد إتمام إجراءات التسجيل العقاري. كما اقتنى باصاً صغيراً مستعملاً، يصلح لنقل البضائع والركاب، اختاره بعناية كي لا يثير الانتباه. وفي خطوة جريئة، غيّر طبيعة عمله من بيع الملابس المستعملة إلى تجارة الملابس الجاهزة والبدلات الراقية المستوردة، وأعاد تصميم ديكور المحل وأثاث المنزل. ولو تأخر شهرين فقط في تنفيذ هذه التغييرات، لاضطر إلى دفع ضعف المبلغ بسبب تقلبات الأوضاع الاقتصادية السريعة في البلاد، حيث استغل سماسرة العقارات تلك الفوضى لنشر عمليات النصب والاحتيال.

جاءت هذه التحولات المفاجئة في حياة قاسم نتيجة لتغيرات جذرية في المجتمع، إذ أصبح بعض الفقراء الذين انحرفوا خلال سنوات الحصار وفترة الاحتلال من أصحاب الثروات، نتيجة الجشع والسطو والترهيب الذي مارسوه ضد التجار والعامة، بينما تراجع الشريف النزيه الذي اعتاد على لقمة الحلال إلى هاوية الفقر، إلا من استطاع النجاة بنفسه أو الهروب خارج حدود الوطن.

أما على مستوى الدولة، فقد تسيد الجاهل والفساد والمنحط المشهد العام، وتقلّدوا المناصب الحساسة بعد انضمامهم إلى أحزاب جديدة مدعومة بأجندات خارجية. فصار الحارس مديراً، والكتّاب محافظاً، والشرطي نقيباً، في مشهد عبثي يخالف تماماً مبدأ "الرجل المناسب في المكان المناسب". أصبحت المناصب تُباع وتشترى، وتُمنح على أساس المحسوبية والانتماء الحزبي والطائفي، وسط فوضى عارمة في تزوير الشهادات، حتى بات عدد حملة الدكتوراه يفوق التصور، وبعضهم لم يُكمل حتى

المرحلة الثانوية. وتمكنوا من شغل أعلى المناصب الرفيعة في الدولة، مثل الوزير والمحافظ وحتى رئاسة الوزراء.

هذه الحالة خلقت بيئة مشوهة دفعت من تبقى من الجيدين في مؤخرة الركب خلف من يسعى وراء الكسب السريع، ولو على حساب الأضعف حالاً، خوفاً من أن يجرفه التيار مع شلة المعدمين قوتاً. فمن هرب نجا بنفسه، ومن بقي ظل يعاني الويل؛ حتى استنزفت طاقته وقدرته وجيبه وعقله. انقلبت الموازين وفلتت الأمور. حيث تبدلت المعايير، وأصبح من المستحيل التنبؤ بما قد يحدث للفرد غدا في ظل هذا الواقع المتقلب.

ومن بين من تغيرت نظرتهم، ظهرت شلة الحسد والنكد ممن ينتظرون على الرصيف موجة عابرة تقلهم في قارب الناجين، قسم من هؤلاء من معارف قاسم، الذين رأوا في تحسن وضعه انحرافاً عن الاتزان. بدأوا يرمونه بالظنون، وكأن النجاح بات تهمة. وقد لمس ذلك من خلال نظرات جيرانه خاصة أبو عصام في المحل وأبو عادل في السكن، واستفساراتهم المريبة التي تنم عن غيرة دفينية.

وفي ظل تصاعد الفوضى واشتداد عمليات السلب والخطف التي باتت سمة من سمات البلد، قرر قاسم تأجيل انتقاله إلى منزله الجديد، مفضلاً البقاء في مسكنه القديم طلباً للأمان، مسترشداً بالمثل القائل: "العدو الذي تعرفه خير من الصديق الذي تجهله" الألفة التي تعود عليها والتي شدته إلى الجيرة وبساط المعرفة، جعلته يؤجل سعي انتقاله للبيت الجديد وخاصة بعد أن تعرضت بعض الأزقة لهجمات من قبل عصابات مجهولة، وعلى أثر ذلك تشكلت فرق صد وإغاثة بين أبناء الأزقة، صارت تدافع عن نفسها من الشرور الخارجية.

هذا يعني أنه سيأمن نفسه من شبح المداهمة الخارجية، أضحي الإنسان يفكر بفرص الأمان أكثر من أن يفكر بالجاه والرفاه ولقمة العيش، اضحت الأوضاع لا تسر ولا تستر، ولن تهدأ على مدى الزمن القريب كما توقع البعض توقعاً خائباً.

هذا ما أوحى له هواجسه وما كان ظاهراً على مسرح العمليات بعد أنتشار عمليات الخطف والقتل والتكيد بالأبرياء على نطاق واسع في أرجاء البلد، حيث صار القتل أرخص السلع المباحة في الشوارع، بحيث من يحمل في جيبه 100 دولار قد يعرض نفسه للسطو والقتل المتعمد.

بعض البشر لا تروق لهم سعادة الآخرين. ما إن تلوح على وجوه أقرانهم مسحة فرح ملونة، حتى تبدأ الغيرة بدغدغة شجونهم، فتتحرك خيوط الحسد والبغض في دواخلهم، ويشرعون في نسج نسيج الخبث، باحثين عن أصل الغزل ونوع العسل، عن لون الطفح الذي غيّر ملامح الوجه من حولهم. ينهشون وينبشون كل ما يمكن أن ينفعهم، يبعثون عُجرة ضعفهم، حتى تكتمل في عقولهم السوداء وبطونهم الخاوية صور الغموض والريبة. هكذا تدفعهم الغيرة إلى العبث والتجني على الغير دون حق.

هؤلاء أشبه بـ **بعلة التوفي** التي تلتصق بالقدم في أيام القيظ، لا تغير اتجاه السير، لكنها تعيق الخطى وتضيق الأنفاس، وتثير في النفس قرصاً ونرفزة. الوسوسة والوشوشة التي يتحلى بها بعض البشر ليست سوى انعكاس لشخصية مهزوزة، أشبه بشفرة ذات حدين، تجرح في المدح مثلما تجرح في الذم. تحيل أصداف المشاعر البراقة إلى أشواك من الحقد والكراهية، فيما أجسادهم النخرة تقرح وتزداد نتانة ونميمة وغلاً تجاه من يعرفونهم.

تلك التصرفات، بقدر ما تؤلمنا، تفعل ذات الفعل في نفوس أصحابها، تُنغص قلوبهم العفنة، وتحول سعيهم إلى بور من الحقد، كحمية ضارة تسوق لهم الأمراض. أهل النميمة لا يفتكون من عاداتهم، يلبسونها كثياب دائمة، كسلسلة تطوق الأعناق، تعبر عن نواياهم القذرة تجاه الآخرين. هؤلاء السماسرة تمكنوا من إشاعة خبر شراء قاسم لبيت وسيارة، حتى وصل الخبر إلى أخيه جاسم.

لكن كيف عرفوا؟ ذلك ما سيكشفه الزمن...

....يا ترى أخي القارئ؛ ما رأيك لو تفكر معي في كيفية فك عقد هؤلاء الناقمين والحاسدين، وكيف سينتهي بهم المصير، مع أن قاسم رجل بسيط لا يعتمد إلا على نفسه؟

ظل هذا الأمر معضلة في ذهن قاسم وزوجته. فبالرغم من حرصهما على السرية وتجنب مخالطة الآخرين، انتشرت أخبار ثرائهم كالنار في الهشيم. لم يُحسن قاسم تغطية الأمر، فافتضح بين حساده ومعارفه. امتد صدق الخبر إلى أخيه جاسم، حين أخبره أبو عصام بذلك، متربصاً به معرفة ردة فعله.... لكن جاسم تمسك بالإنكار، فهو يعرف هشاشة وضع أخيه، لكن الـ 100 دولار التي أكرمه بها قاسم، والقلادة التي ترتديها رقية، أوحى له بصحة الخبر. فلا دخان بلا نار. كتم غيظه، وشعر أن أخاه لم يكن منصفاً معه، ولم يكن صريحاً أو جاداً في مساعدته، رغم قدرته على تعديل ميزان فقره المدقع.

أما محل قاسم، فقد بات يشع نوراً وبهجة في منطقة يغلب عليها الكساد، وكأن رفاهه جاء عكس التيار الجارف، في زمن أغبر، طغت فيه الأزمات والمظالم. صار ترف قاسم مثار جدل، أصبح محط أنظار الجميع. غناه وعزه أرمدا عيون الحاسدين، وعلى رأسهم غريمه اللدود أبو عصام، الذي بات همه الوحيد معرفة

مصدر هذا الجاه. صار يتقلب كالأفعى، يلدغ ذاته كالعقرب، لا يعرف استقرارًا ولا راحة؛ طالما أن قاسم تبدل وضعه وأصبح أفضل شأنًا منه... فلا بد لأبو عصام أن يجد حلاً لمعضلته هو الآخر.

أما أبو عادل، فكان أكثر حنكة وثباتًا، يراقب التغيير من بعيد دون أن يُبدي امتعاضًا أو غيرة ظاهرة. كلاهما يقفان على ذات الخط، وعلى مرمى حجر من الأزمة، والسؤال الذي بات يشغل بالهم: كيف تجاوز قاسم واقعه الميؤوس؟

بات الشيطان يوسوس لأبو عصام، أو لعله تحوّل هو نفسه إلى شيطان أخرس يوسوس لنفسه، كاتمًا غيظه في أعماقه. صار كجانٍ يتسلل إلى نفوس المقربين من قاسم، يبحث عن لغزه، يدور حوله وحول معارفه، يناقش أصحاب الدكاكين المجاورة، يسأل ويستفسر، لعل فكرة تلبسه وتروي فضوله. أعماه الحسد، عقرت الغيرة فكره وبصيرته، فبات يسأل نفسه ويجيب، ليصل إلى قناعة تُرضي فضوله وتُسكّن غليله.

يسأل ذاته ويجيب:...

- لا بد أن سطوة ما قد سطاها... أيمن أن يكون أحد سُراق البنوك؟ يا ترى كم سرق؟ مليون؟ خمسة؟ خمسون؟ أم ربما مليار؟ هكذا، وبغمضة عين، انتشل الحظ من قوقعته، وألبسه ثوب السيادة في ليلة وضحاها، بعد أن كان بيننا صعلوكًا لا يهش ولا ينش.

لكن كيف؟ كيف كسر طوق الفقر؟ كيف تجاوز فكره المهلهل وصدى عجزه؟ كيف امتطى الحالة وتحول إلى لص وانتهازى، وهو المعروف بيننا بالعفة والاعتدال؟

الشمس نراها كل يوم، لم يتبدل لونها ولا حجمها، لكنه تبدل شكله وجيبه. تحول على حين غفلة من فقير أبكم إلى غني ثرثار، من شريف إلى متهم، من مسحوق لا يعرف كيف يفك عقدة رجل دجاجة، إلى رجل تجاوز محنته والخطر واستغل الظرف لصالحه.

نعم، هو رجل طيب، لا أحد يُنكر ذلك؛ لكن الطيبة وحدها لا تصنع الثروة، ولا تُبدل الحال بهذا الشكل المفاجئ. فما الذي حدث؟ ما السر الذي قلب موازينه؟ أي باب طرق؟ وأي فرصة اقتنص؟ وأي لعبة لعبها ليخرج من دائرة الضيق والفقر إلى سعة الغنى والهناء؟

ذلك هو السؤال الذي ظل يتردد في أذهان من عرفوه، طرق أبواب الشك، شعل فتيل الحيرة في القلوب.. كيف يا رب؟؛ أيكون قد أنتمى لأحدى العصابات الجديدة؟ لا لا أظن ذلك، لم أجده يوما يهتم بهذه الأمور إطلاقا، لم أجده يحمل مسدسا أو بندقية في حياته ولم ينتمي إلى حزب في العهد السابق ولا بعد الاحتلال.

حين شاهده عاكفا على صلاته داخل محله أستهزئ به بقرارة نفسه حيث دخل وهو يحاكي نفسه:....

"أيا غشاش يا منافق...يحاول أن يوهم الآخرين باستقامته، أنك ثعبان ملتو، ما عدت أصدقك أبدا... لم أشاهد في حياتي لص بهذه البجاجة والبجاجة، يستشعر بالرضا ويعبد الله ويده أطول من قدميه، والله أنك حرامي محترف!! ترى على من تضحك بتصرفاتك العبثية هذه؟ يا ترى لمن تصلي ويدك وسخة؟.. ويحك.. ألا تخاف العاقبة؟...آه.. همي أن أعرف مصدر

رزقه.... يجب أن أسأله لربما يساعديني ويقدر خط العشرة
والجيرة الطويلة بيننا، أنه في داخله إنسان طيب وأمين".

تقدم منه وسأله:.....

- السلام عليكم يا أبو محمد
- يا اهلا وسهلا بالجار الغالي
- ...هناك سؤال في بالي حيرني.
- الله لا يحير عبده... قول ماذا يشغل بالك؟
- أعرف وضعك المادي جيدا، وأعرف"/البير وغطاه" كما يقول المثل، منذ عشرة سنوات وأنت جاري، هل ممكن تساعديني وتخبرني من أين لك هذا الغنى؟--- أسف على التطفل، ليس من باب الحسد، إنما أنا أفكر في نفسي، لربما أستطيع أن أخطو خطواتك أو تدلني على طريق ما من خلاله أحسن به وضعي المزري، فأنت صديق قديم لي، ولي حق العشرة والجيرة عليك..
- الله يرزق من يشاء.
- والنعم بالله، لكن لا بد من مصدر ساعدك على تغيير وضعك؟
- كيف تحول دكان البالات قديم لدكان مرموق متألق، دكان البالات لا يغني أحدا.

كان سؤاله بمثابة رصاصة طائشة، نصل خنجر مسموم طعن في ظهره. صار يدمدم مع نفسه ويقرأ سورة الفلق... "قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق..... ومن شر حاسد إذا حسد".. ماذا يريد هذا المعتوه مني؟ أيود أن يشاركني حظي؟ كيف ادراً خطره وسهام عينيه الحاسدة تتبع خطواتي خطوة خطوة، أنه يلاحقني..... دعني أنسحب من وجهه اللئيم، أو دعني أتجاهله أو أوقفه عند حده..... لكن كيف؟؟

ما هي الوسيلة التي ممكن ان أواجه بها؟ ممن يخاف هذا المعتوه؟

رد عليه بوجه مقتضب:.....

- لا إله إلا الله... ماذا تريد أن أقول لك؟ أتريد أن أقول لك أنني سرقت البنك لتصدقني! أتريد أن أقول لك الحاكم برايمر هو ابن عمي فتصدق عليّ!..... يا أخي أن كنت تود أن تغير وضعك؛ غير من سلوكك وسكونك، من استقرارك وثباتك، من البقعة التي تقف عليها كالصنم، أنتمي لأحد الأحزاب أو الميليشيات التي باتت من كثرتها لا نحفظ أساميها.

- يا شيخ تعرفني جيدا، أنا لست من هذه الأشكال الرخيصة، لم أنتم لحزب البعث في السابق وهو في أوج عظمته، أتريد أن أنتمي لهذه الأحزاب الهزيلة، الركيكة، التي تعتاش على امتصاص دماء الأبرياء؟

- إذا كن لصا!!!!!!

- أترضاه عليّ بعد أن شاب الرأس؟

- إذا تود أن تعرف من أين جئت بالمال؟؟..

- بالضبط.....

حيث طرأت في ذهنه فكرة صارمة، بها يمكن أن يصده ويبعده عن طريقه، بعدها لن يستطيع طرق بابه مرة أخرى.

هنا فتح أبو عصام أذنيه صاغرا:.....

- بالضبط يا أبو محمد أكمل، كلي أذان صاغية.. أسمعك جيدا، حاشي أن تغلط....

- تعرفت على مسؤول كبير في الدولة عن طريق أهل زوجتي، مسؤول من الذين تسنموا المناصب الجديدة برفقة المحتل. ود الرجل أن يساعدني، أو بالأحرى أن يشغل نقوده في محلي،

- وكذلك ود أن أشترى له عقارات باسمي كي لا يُكتشف أمره وسره. هذا كل ما في الأمر، هل ارتاحت نفسك؟..
- من هو هذا المسؤول؟ أيمكن أن أعرفه؟ أو هل ممكن أن تدلني عليه؟
- أيه يا فالح بالطبع لا قلت لك قبل قليل ود أن أشغل أمواله سرا كي لا يُكتشف أمره، ولغاية في نفسه، ربما لا يريد أن يجلب أنظار الناس والمسؤولين الآخرين إليه.. ثم أين الأمانة التي حملني إياها لو ذكرت لك اسمه؟...أتريد أن يكشني؟ وما جزاء الإحسان إلا الإحسان.. هل نسيت ذلك؟ .. ثم أنت لم تود قطع رزقي؟
- أسف أن أزعتك، ولكن بعض الناس تود الهبرة لها فقط، من دون أن تنظر لأصحابها المقربين وللناس الجوعى من حوالها، أنا رفيقك يا أبو محمد.
- لكن ليس على حساب مصلحتي.

أن ذاك خرج مقتضب الوجه وفي قلبه غيظ يصرعه، فيما بقي أبو محمد محتفظا بكياسته، والألم يعتصر قلبه من سهام العيون الحاسدة التي بدأت تتكاثر كالحشرات، كأنهم لا يودون أن يكون له شأن، أو أن يكون أكثر منهم جاها وغنى.

في الحقيقة أنها مسألة طبيعية أن يتعرض لهذه المواقف المحرجة في مجتمع دقت خاصرته مطارق الفقر حد العظم. أي أن الخير لو خص، سيكون نكالا على الشخص إذا لم يعم المجتمع، إذا لم ينل من الخير بقية الأفراد ولو الشيء اليسير، لأن المجتمع شبكة واحدة؛ أن قطع خيط منها تفتت الخيوط الباقية.

خيرا فعل قاسم في أيهامه بالمسؤول الذي ود أن يشغل أمواله عن طريقه. أنها فكرة عبقرية، صائبة، تقنع كل شخص يسمعها تحت ذلك الظرف المقيت، ثم أن أبو عصام شخصية مهزوزة، سينقل

الخبر لكل الناس المناوئين له والذين يجاورونه من معارفه، وبذلك يحصن نفسه ويؤمن شرورهم ويبعد كاهله عن خطرهم، لتكون له هيبه بين أقرانه يحسبون له ألف حساب.

الحياة لعبة ذكاء لمن يود أن يفلح بها، المسافة بين الخطوة والخطوة شعرة قد ترفع الذات الشأن وقد تطيح بها. فلن يدرك الغد المراد إلا من جاهد وعمل بجد ويقين.

هكذا وجد البعض سلوكه غريباً في تعامله مع الغير والبعض الآخر استغل منفذاً غير سوياً ليصل مبتغاه بقصص ملفقة من الكذب والخدع بها تمكنوا من الولوج لقمم المجد، تربعوا على المناصب، مستغلين سذج الناس وضعاف النفوس حتى أغنوا أنفسهم وكبروا وتوسعوا على حساب غرمائهم، فأصحاب الشهادات المزورة باتوا بالآلاف، كما اسلفنا..

كل من هب ودب صار له شأن في المجتمع بالقوة التي يستند عليها. أحدهم كان ميكانيكياً قبل الاحتلال وبعد أن أنتهى لأحد الأحزاب المتنفذة، رقى ذاته لدرجة دكتور ليعين محافظاً لأحدى المحافظات وهو يمثل بذاك حزبه بشهادته المزورة...

ذات يوم دخل مدينتنا رجل غريب يدعى "السيد ضياء"، لم يمكث فيها سوى أسبوع واحد، لكنه خلاله تمكن من التعرف على مظم شباب المنطقة، ترك أثراً عميقاً في ذاكرة الناس. كان رجلاً موارباً، بارعاً في نسج القصص، يمتلك قدرة خارقة على الإقناع، وسلاسة في الحديث تأسر المستمعين. تعرّف بسرعة مذهلة على شباب المنطقة، اقترب منهم، وأوهمهم بكرمه وبشأسته، حتى أحبوه وصدّقوه، بل بسذاجتهم صادقوه وثقوا به.

كان ضياء شخصية هلامية، مرنة، جذابة، ينسج أحاديثه بخيوط من الخيال والحقيقة، يرقّعها بالأكاذيب، ويغلفها بدهاء. كل جملة

ينطق بها تبدو كأنها حقيقة، وكل فكرة يطرحها تقرب الوهم من الواقع. بلغ به الأمر أن ربط اسمه بشخصيات مرموقة في الدولة، مثل وزير الخارجية آنذاك السيد طارق عزيز، ووزير الداخلية السيد سعدون غيدان، وحتى مع المصارع الشهير عدنان القيسي، مدّعياً قربه منهم عبر صور مفبركة ركبها بشيء من التقنية الغير متاحة في العراق في حينه، بها أوهم كل من شاهدها بحقيقة ما يدعي.

استغل هذا الزيف ليقنع الناس بقدرته على إنجاز معاملاتهم بسرعة البرق، مقابل مبالغ مالية يدّعي توزيعها كرشاوى على موظفي الدوائر. وهكذا، أصبح ضياء بوقاً مسموعاً بين الشباب العاطلين عن العمل، يعدهم بالمستقبل المرموق والتعيين، لقد تمكن من جمع أموالاً طائلة من ادعائه، ثم اختفى فجأة في ليلة مغبرة، كقص ملح ذاب في بحر.

لقد كان نصاباً محترفاً، بارعاً في التمثيل، استطاع أن يعمي بصائر السذج من الناس ببذخه الظاهر في المقاهي والمطاعم، مدّعياً الغنى والجاه، حتى ظنوه لا يحتاج لما يدفعونه له. وبعد أن امتلأت جيوبه بالوعود والنقود، اختفى من المشهد دون أثر، تاركاً خلفه ضحايا يتساءلون عن مصير أموالهم المدفوعة، وعن تلك الشخصية الهلامية المحبوبة التي أصبحت مضرب أمثال في المقاهي والشوارع.

كان ضياء ثمرة زمنٍ تحكمه السيادة والنظام الصارم، أما الذين برزوا بعد الاحتلال والانحلال، في عصر الفوضى والقسوة، فما هم إلا أشباه رجالٍ انتشروا في بغداد كالجراد في الحقول، يبيعون الوهم بملمسٍ ناعم، ويتشبهون بالضياء والحصافة، مستغلين سذاجة الناس بخفة وسخافة.

كم من جزارٍ صار صاحب منصبٍ مرموق، وكم من ميكانيكي جلس على كرسي المحافظ، وجندي تحول إلى قائد، ومضمد ارتقى إلى وزارة، وقاتل نُصّب قاضياً وشريفاً. هكذا انقلبت الموازين، وتحول العبت إلى سلطة، والفوضى إلى نظامٍ زائف، حتى غدت البلاد مسرحاً للمتناقضات، تُدار بيد من لا يعرف معنى القيادة ولا جوهر المسؤولية.

هكذا تتكلم الفوضى، لا تسكت عن جلجلتها، تفرز لنا وجوهاً تتقن التمثيل، وتلبس العمام، وتدّعي المسؤولية، بينما الحقيقة غائبة، والناس في غفلة.

حصل ذلك وساد في المجتمع من بعد الاحتلال مباشرة، صرنا كأرجوحة مخرومة نعاني من حالات التغيير التي تنط علينا أو التي ننت عليها بأنفسنا مرغمين.. لم نشعر بالتغيير سوى بسرعة انحدارنا نحو الدرك الأسفل، سوى نتعقب الزمن نحو الأسوأ. لم نلتمس تغييراً جذرياً سوى في الأشكال والوجوه المتنفذة والصور البراقة المزيفة.

لم تمض سوى أشهر قليلة على استشهاد حسن على يد قوات الاحتلال في مدينة الثورة (مدينة صدام)، حتى أُغتيل السيد صفاء غدراً، وبذات الأيدي الآثمة. وفي غضون ثلاثة أشهر فقط، حلت فاجعة أخرى، حين استشهد عامر بن صفاء، ابن هدى، أخت قاسم، على يد قوات المارينز الأمريكية، حين اشترك في عملية مdahمة بحري اليرموك والمنصور برفقة مجموعة من شباب المقاومين الأبرار ثأراً بوالده، ضمن فصيل "أبو علي الأشاوس" الذي كان والده صفاء أحد أفرادها.

لم يحتمل عامر فقدان والده، وهو في ريعان شبابه، فغص في نفق مظلّم من الحزن والانتقام، مدفوعاً بوجع الفقد وحرقة الفؤاد عن والده. انتمى للمقاومة في عهد أبيه، وحين غاب الأب، غابت معه ملامح الحياة من وجهه، فشذ عن طبعه، وتبدلت نفسيته، صار كتوماً، قاسي الطباع، كذئب يتربص بجنود الاحتلال، لا يرويه دم ولا يهدأ له قلب.

ألقي بنفسه في كل مهمة، توكل على الله، وسار مع رفاقه في طريق الثأر، حتى صار يُعرف بين المقاومين بـ "الأسد". كان يتعقب فلول العدو بشراسة، يقتفي أثرهم في النهار والليل، يزرع العبوات، ويقنص، ويشتبك، حتى نال الشهادة في حي المنصور، بعد أن اشترك في تدمير ثكنة للعدو، وأحرق عجلتي همر، إلى جانب رفيقه غسان الذي قضى نحبه في ذات الواقعة.

عامر لم يكن مجرد مقاوم، بل ظلّ يلاحق جنود الاحتلال، يتسلل خلفهم دون أن يشعروا، يختفي في العتمة، ويظهر في وضوح

النهار، مشاركاً في معظم عمليات "أبو علي"، كأنه جنٌّ لا يُرى، لكنه يُرعب.

بموته، تجددت المأساة على قاسم وهدى، تفتشى الحزن كغمام لا ينقشع، باتت مطرقة الأسى تدك أبواب السعد مرة بعد أخرى، وكأن المصائب لا تأتي فرادى، بل تصب جام غضبها دفعة واحدة، كطوفان يهلك النفس والبدن معا.

صار الاستياء والاكتئاب براويز معلقة في ذهن قاسم، لها لمعة في ملامحه والذاكرة، وسرٌّ في صمته وهدوئه، تتجدد دون موعد، وتتفجر دون إذن، كأنها بركان عناء. غدت الأيام كعقد مسبحة بين يديه، يسبح بها، لا يعلم الدور القادم على من سيكون. لم يعد يحسن التفكير في غده، وهو مكلوم، مجروح، مهموم بأخته هدى، التكلّي التي فقدت فلذة كبدها بعد أن تُيّبت، مصطفة ضمن قائمة المنكوبات، المنكسرات، اللواتي ذفن مرارة الفقد والخذلان.

في أمس القريب شيع حسن ثم والدته ثم صفاء، واليوم يودع عامر، الوقائع مستمرة في طابور لن ينتهي، طالما المحتل موجود يتهمك بالمساكين من أبناء الشعب، مع انتشار الفاسدين والمتسللين من أذيل المحتل بين أبناء الشعب، الدائرة لن تقف عند حد معين وتلك الأزمة صار لها أذرع وأقدام عديدة ونفوس متشعبة تتبع الثار.

بدأت أم محمد تفكر بأمر زوجها وأبنها، بات الوجل يعتصر قلبها خوفاً عليه وعلى أبنها من غدر الأيام، ما انفكت صارت تحذر أبنها من الخروج وتحذر زوجها من التأخير في أوقات المساء. كأنها قد أصيبت برعشة الوجس والتحسس بالحاسة السادسة أو السابعة أو الثامنة وما إلى ذلك من ظن مخيب مريب أختلط عليها وراغ بهواجسها؛ بحيث تحولت صيغة مشاعرهما من وهدة الفرح والتفكير والتناول بالمستقبل لوهدة التحسب والمجانة والخوف، لكثير ما باتت

تسمعه من قصص قتل وتنكيل هنا وهناك وما لحق بهم من جزل وعناء وقدر. صار العنف لن يقف عند حد معين، قد يشمل جميع الطوائف والقوميات دون تمييز، ناهيك عن أخبار الخطف والقنص والملاحقة وطوفان الجثث المجهولة في الأزقة والطرق والتنكيل اليومي بالمجتمع العراقي من قبل أطراف مجهولة الهوية عبر السطو المسلح العلني والمخفي...الخ.

الوضع بئس كثيراً، أضحى البلد مفتوح العقد بلا حدود، دخل الموت زاحفاً بكل الاتجاهات، عمّ الجميع، لا فرق بين أسود وأبيض إلا بالتمحيص والتدسيس والخيانة.

بعد أن وجد المحتل مقاومة شرسة من قبل الطائفة السنة، مال إلى جانب الطائفة الشيعية وبالذات لهؤلاء المحسوبين على زرع الفتن وتوسيع الهوة بين أطراف المجتمع العراقي لنيل المناصب، نتيجة اشتداد المقاومة الجسورة في المناطق السنية، إلا أن انخراط بعض عناصر الشيعة الوطنية ضمن المقاومة السنية وخاصة في الناصرية والبصرة، أضاعت عليهم حسبة خرز المسبحة.

وكما أجمع الجميع في تأبين حسن؛ اشترك الجميع في تأبين عامر ابن الثامنة عشرة سنة، سند أمه الوحيد، حيث ودع لمتواه الأخير على دين والده.

خلال تواجد ابو عادل في المأتم؛ دار حديث عن الأوضاع بينه وبين قاسم متأسفاً على ما جرى له وهو يقدم عزائه له.

- الله يستر يا أبو محمد من هذا الكابوس الذي حل على العراق، لا أظن ستنجلي هذه الغمامة قريباً، ولا أظن ستسلم جرة عائلة منا من المصائب الدائرة في البلد. الدور آتٍ على الجميع، والله أعلم على من يكون الدور القادم، دور من

سيكون الأقرب وخاصة تكاثرت فرق الموت والميليشيات المدعومة من الخارج.

- ذلك ما كنا ناقشناه بعد سقوط التمثال، ذلك ما كنت أخاف منه وأناقشك به، ها قد انحدرنا سريعا في هذا الركب..

- نعم كنت على حق؛ باتت العناصر الغريبة تتجمع على الحلوى كالذباب، كل من هب ودب ولبس عمامة أنشأ له عصابة وصار يهدد بها صفوف المجتمع، الكل في إطاره الخارجي يدعي الوطنية وفي قرارة نفسه يخطط للعدوان والسرقة، والنهب، والتطرف، واعتلاء المناصب. الكل على يقين بما يجري من تخطيط وتنكيل مدروس من قبل أجنادات خارجية.

- وأين نحن من ذلك يا أبو عادل؟ الأمور تعقدت، أصبحنا في تيه نترجى الأمن والأمان من انفسنا وجيراننا... سابقا قالوا أن ضاق بك الدهر ودعتك الحاجة إلى المعونة فأستعن بجارك. وقال الرسول صلى الله عليه وسلم " جارك ثم جارك ثم جارك ". ولكن في هذه المحنة صار الجار يخاف من ظل جاره. أنها النكاية، أنها الكارثة، الظرف توشح بالوحشية، صار يكشر عن أنيابه، ما أن تغفل عنه؛ حتى يفتك بقامتك وينهبك.

كانه بكلامه لسع أبو عادل على جريرته وابنه في سرقة خروفيه، كأنه رماه بحجر فأصابه وأن لم يظهر ذلك على محياه.

- صدقت؛ تغيروا الناس كثيرا، ولا بد لأصحاب العقول والمشايخ ورؤساء العشائر من إيجاد وسطا يشد أزرنا ويعينوننا على وحدتنا. التحلي بالصبر والتشاور في أساسيات القضايا وإعطاء كل ذي حق حقه، وعدم تهميش الأقليات كفيل بإعادة الثقة بأنفسنا.

- الله يعين الشعب المسكين، كنا نتأمل تغييرا ينقلنا إلى الأمام وينتشلنا من عصر الدكتاتورية، إلا أنه أعادنا لعصر الظلمات والجاهلية، صرنا نتأمل عودة الدكتاتور على قرف التغيير الحاصل.
- الله يستر... الله يستر... أنا يجب أن أذهب للورشة، أستاذك مع السلامة.
- مع السلامة.

بدأت المقاومة تتسع رقعتها، اشتد عودها، حتى باتت قوات الاحتلال تتذوق مرارة الهزيمة على يديها، وتترنح تحت ضرباتها الموجهة. ذلك "النصر" الذي أعلنه المجرم جورج بوش الابن رئيس أمريكا يوم سقوط التمثال، بدأ يتلاشى في نظره ونظر العالم. لم يكن سوى رشفة عسل في كأس من العلقم، خدعة بصرية، سراب أغشت بصره وبصيرته وسط صحراء العراق القاسية.

صبر العراقيون على الجور والفقر، لكنهم لم يصبروا على الذل والهوان والعبودية التي سممت أرواحهم. لم يكن نصر المحتل سوى صورة انتقاها رئيسهم من بين صور العراق التي لم ينتبه عليها والتي لن تنتهي في تجديد سحرها، صور تمثل عمق التاريخ وواقع النزال في المراحل المتتالية، صورة واحدة حمضها وطبعها الاحتلال، بينما الصور الأخرى كان قد حمضها العراقيون بأنفسهم، بإرادتهم وعزيمتهم، لتروي عمق التاريخ وواقع النزال في مراحل المتعاقبة. ومع مرور الوقت، بدأ جنود العدو يدركون زيف الصورة التي اختارها رئيسهم بعد سقوط التمثال.

بدأت الخسائر الأمريكية تطفو على السطح كفقاعات المستنقع الذي غصوا فيه، رغم محاولات الإعلام طمسها. لكن الأصوات بدأت تعلو من داخل أمريكا نفسها، بعدما نقلت طائراتهم نعوش جنودهم

إليهم، فخير الظلام على حياة الجنود وعائلاتهم، وعلى الشعب
الأمريكي المغيّب عن الحقيقة.

لقد تصرف قاسم بحسن نية حين اشترى بيتًا مرموقًا وسيارة جديدة، وغير واجهة دكانه، مطوّرًا عمله من بيع الأسمال وأطمار البالات إلى تجارة الملابس الجاهزة. جاء ذلك انسجامًا مع ارتفاع قيمة الدينار، وانفراج السوق أمام الدولار، والثورة الحاصلة في أسعار العقارات والسيارات بعد إلغاء شرط النظام السابق بشأن امكانية السكن في بغداد. لقد واكب قاسم هذه التحولات السريعة، مستثمرًا ما رزقه الله به من خير.

لكن هذا التغير المفاجئ أثار فضول المحيطين به. الكل صار يسأل نفسه: من أين له هذا؟ قسم من الناس وصفوه بالداهية، مستشهدين بالمثل الشائع: "ياما تحت السواهي دواهي"، أي أن هناك من يبدو ساكنًا بينما يخفي في داخله دهاء لا يُستهان به. هؤلاء رأوا في قاسم أحد دهاة عصره. قسم آخر نظر إليه نظرة دونية، واعتبره من زمرة اللصوص أو المتحزبين. فالفقير إذا اغتنى، يشاغ خبره، يلفت الأنظار، ويثير الريبة. وفي زمن مضطرب، لا يُتصور أن يحقق أحدهم ثراءً إلا إذا انتمى لجهة متنفذة أو تورط في أعمال مشبوهة.

التغييرات التي طرأت على قاسم جذبت الأنظار، وأثارت الحسد في قلوب كثيرين، من جيرانه كأبي عادل وأبي عصام، إلى معارفه وأقاربه، وحتى أصدقائه المقربين. جميعهم اصطفوا في طابور التساؤل خلف عبارة واحدة: "من أين له هذا؟" دون أن ينصفه أحدا منهم أو يمنحوه حق التقدير.

بعضهم اتهمه بالسرقة، زاعمًا أنه من الذين سطوا على البنوك. لكن طبيته المعروفة به، وسنوات عمره التي قضاها باستقامة تامة، تدحض هذه الادعاءات. فالناس يعرفونه جيدًا، ويعلمون أنه لا

يمكن أن ينزلق إلى دروب الخسة والنذالة. الإنسان لا يبدل جلده في ليلة وضحاها، حتى لو اضطربت أفكاره بفعل ظرف قاهر. تلك التهم الجائرة لا تليق به، ولا يقبلها عقل سوي.

آخرون ادعوا انتماءه لأحد الأحزاب المستحدثة، لكنهم أنفسهم لم يقتنعوا بذلك. فقاسم لم يكن يوماً مهتماً بالأحزاب أو المناصب. لم يحمل السلاح، ولم يخطر في أي فصيل. كان دائماً يسير إلى جانب ظله، وقد نبذ حزب البعث القوي وتكرر لمبادئه، فكيف له أن يندس في ظل أحزاب مهلهلة ليست لها عمق ومبدأ إلا تمجيد الفاسد؟

وهكذا، أصبح قاسم لغزاً محيراً لكل من حوله. أكثرهم استغراباً كان جاره أبو عصام، الذي يعرفه معرفة عميقة، كما يعرف أخاه جاسم وعائلته وأهل زوجته في مدينة الثورة. لطول العشرة، تلاشت الأسرار، وأصبحت مكشوفة للآخر كخط وهمي لا يخفى على أحد. ومع ذلك، ظل قاسم عصياً على الفهم، كأنما يحمل في داخله أحجية لا تفك طلاسمها إلا من قبل الجن.

في ظل ذاك الظرف أصبح ثراء قاسم لغزاً محيراً للجميع، وبالذات لأبو عصام وأبو عادل ولأخيه جاسم الذي ناء بذاته خلف ستار الغموض يتسلق الأخبار التي يستقصيها من أعداء قاسم أو التي تصله دون عناء بلسان الشيطان دون أن يخطئ ذاته في سلوك يجذب الانظار أو تصرف يشيع فيه البله.

بينما أبو عصام لشدة حسده صار لا يركن على حجر، صار لا يخجل أن يسأل قاسم بصورة مباشرة عن أصل غناه والتغيير الذي طرأ عليه، مما صار يسلك طرق أخرى ملتوية للتحري عن أصل ثروته. وتلك هي الطريقة التي ود بها كشف لغز قاسم واسراره.

طبعه الغلس جعله لا يستكين، حاول غز أخوه جاسم عسى أن يكشف له أسرارَه على قدر معرفته، أن يكشف له المستور والمخفي. لذا ران إلى تحريضه بشكل مباشر، عسى أن يستلهم من عبثه فكره تدله عن أصل ثروته الحقيقة، عسى أن ينوس بُفأة أسرارَه ليدرك نفسه وغايته. إذا ما توصل للغز قاسم؛ قد يعين ذاته ويلحق بركبه.....

يا ترى كم يملك؟.

بعض الناس لا تستطيع كتم الغيظ في قلبها، فالشر يبان في بعض الوجوه وأن ارتدت القناع، الحسد يجري في العروق ككريات الدم الحمراء، حيث أن كتم غيظه قد يجن أو يمرض...

ذات يوم وهو يتجول في أسواق الشورجة، التقى صدفة بـ أخوه جاسم، ألصق به التصاق اللبان في الحذاء، قائلًا له بغل وغيظ ونية فجأة:.....

- أيعقل أنت تدفع عربة في سوق الشورجة لتعيش بُفأة ما تجنيه والذي لا يسمن ولا يغني من جوع، متحملاً قسوة الظروف بهذا الشكل المتعب، الجسد مرهق والفكر منهك وأخوك أضحي أحد أغنياء الحي، صار يملك من الثراء يعجز الأثرياء أنفسهم عن منافسته؟..... أخوك الذي لا يسأل عنك وهو يعيش عيشة المترفين المرفهين.. لا أدر كيف أغتنى على حين غفلة؟ تمكن من أن يقتني عجلة نقل وبيت مرموق في منطقة السيدية، كما غير أثاث المحل واستبدل تجارته القديمة ملابس البالات ببيع الألبسة الجاهزة؟... يا ترى؛ هل عثر على كنز سليمان دون أن يخبرك؟ هل ورث مال قارون ولم يشركك فيه؟ لقد أصبح غنيا بيوم وليلة؟ بل أصبح أغنى رجلاً بين معارفي.

- ماذا تقصد ؟ وكيف تغير حال أخي؟
- أذهب و أسأله عسى أن نفهم ونغير أحوالنا نحن أيضا.. ههههههه (نائم ورجليك بالشمس) هههه، تغير حال أخوك، لم يعد يبيع البالات، بل أصبح يتاجر بالألبسة الجاهزة الجديدة. كما سمعت وبل تأكدت بأنه قد أقتنى قصرا ذو طابقين في منطقة السيديّة بـ 150 ألف دولار، وأقتنى سيارة فارهة، والله أعلم ماذا بعد ذلك لا أعلمه في الخفاء؟ وأنا لا أصدق زعمه من أن مسؤولا في أمن الدولة طلب منه تشغيل أمواله وشراء عقارا له باسمه ليبقى بعيدا عن الانظار في الخفاء.

كان لأبو عصام ابن عم يشتغل دلال عقارات في منطقة السيديّة، وقد ذكر لأبو عصام قصة جاره الذي أقتنى قصرا في الدورة دون أن يكون قاسم على دراية بصلة القرابة بين ذلك الدلال وأبو عصام. هذا ما أكدّه أبو عصام لجاسم على حقيقة امتلاك قاسم لعقار وعجلة.

- لا أدري عن ماذا تتكلم؟ أنا لم أزر أخي منذ فترة طويلة، ومن أخبرك عن تلك الأخبار.
- الدلال الذي باعه القصر ابن عمي، هو الذي أخبرني بتفاصيل عملية الشراء، أتريد أكثر من ذلك دليلا.

وكأنه لم يهتم لحديثه، لذا ترك أبو عصام يثرب ذاته وهمّ يتحرى عن رزقه بين زحمة الفوضى الدائرة في شوارع الشورجة، يدفع عربته دون أن يبالي بحديث أبو عصام، وكأنه لم يسمع شيئا منه، كأنه لم يتأثر بحديثه ولم يعر لثروته ولغظه أية أهمية، ولا لغنى أخيه ولا لأمر الدنيا. تركه وسار في طريقه دون أي اهتمام تاركا أبو عصام يحتار بأمره. إلا أنه في داخله بدأ يحسب درجات الأخوة بمقياس العطاء والبخل، صار يتحسف على عدم إشراكه بثروته ليحسن من مستواه المعيشي.

كما أن أبو عصام بات لا يجرو أن يسأل قاسم بعد أن أخبره بأن الأموال تعود لمسؤول ثري يعمل في أمن الدولة وممثلاً لأحد الأحزاب المستحدثة، فهو لم يكن سوى وسيط يتصرف بأموال ذاك السياسي، وبأذن منه ولغاية في نفسه كي لا يفتضح أمره.

جاسم وأن لم يبدي اهتماماً ظاهرياً لما سمع من أبو عصام؛ إلا أنه في قرارة نفسه أمتعض من أخيه عما سمع، أصابته الدهشة مما يجري في الخفاء، أدرك أن مسألة بيع العقد التي أدعت به أم محمد؛ ما كانت إلا محاولة ذر الرماد في العيون، لدرء الحسد وأبعاده عن معرفة الحقيقة. في الوقت الذي أكرمه أخوه بـ 100 دولار ليشتت ذهنه ويبعده عن الملحة اللجوجة. لذا قرر أن يراقب أخوه عن كثب، وليعرف أصل الحقيقة، وأصل غناه.

صار يكلم نفسه ويلوم أخيه وهو يتساءل مع نفسه:-.....

" فعلاً أن أخي قاسم نذل إن كان قد عثر على كنز ولم يشركني به؟ قد يكون أشترك مع عصابة سراق البنوك!!؟؟... ولكن هذا هو أخي أعرفه حق المعرفة، أنه جبان، لن يجرد على فعل ذلك، فهو لم يذبح دجاجة في حياته، أيمنه أن يرفع سلاحاً بوجه منافس آخر شرس؟ إن لم تمنعه نفسه فأنّ صلاته تمنعه.

لكنه بات يلعب بالدولارات! المسألة فيها إن...

المسألة معقدة، يل فيها ألف أن، فيها لغز محير، أنه بحق أناني، أن كان عنده كل تلك الأموال ولا يعطف بنزر يسير على أخيه، لم لا يرحمن من النذل الذي أنا فيه، هذا العناء الذي أتحمسه في اليوم ألف مرة، من أجل الظفر بلقمة عيش كريمة، لم لا يتصدق عليّ ولا راع أمه قبل وفاتها...

.. يبقى يدور في خلدي سؤال المحير؛ يا ترى....

من أين له كل هذا؟

لَمْ لا يرفع عن كاهلي ثقل الزمن؟

لماذا كل هذا التجني وهو يدرك أساسي الهش؟... ألم ير أشحت بروحي وجسدي في الشوارع من أجل لقمة عيش كريمة، هل لأنني أعتبر غير سوي السلوك في نظره، هل لأنني اتعقب الحانات والبارات؟ هل لأنني تعودت أن أسكر من حين لآخر لأنسى همومي؟.....

ماذا أفعل؟...

ما أفعله بنفسي؛ أفعله نتيجة الهم والغم الجاثم على صدري، لولا سقم الحياة والفقر المدقع الذي يأويني وأويه ما تجاوزت القواعد التي يؤمن بها، ما تمسكت بهذه الوحدة التي جزلت مشاعري وقوضت ذاتي؛ ما تتبعت الموبقات التي عبثت بحالي....

يا ترى؛.... هل يعتبر هذا إسراف أم تقريط أم فتور أم إنصاف وعدل من وجهة نظره؟ أم قدر مكتوب من وجهة نظر الدين والشرع والقانون وعدالة المجتمع بأن يغتني أخي ولا يود تجنيبي هالوية الفقر؟.....

لماذا أخي يقصر معي؟ لماذا يغيظني ويكرهني؟ أنه في طبعه إنسان طيب، سلس، إلا معي، لا يعترف بي أخ له، يشمئز من وجودي في حياته، لم يفكر بي قط...

دعني أتحري أولاً عن مصدر رزقه وعسى أن يكون لنا منه نصيب، دعني أكون بعيداً عن الحدث وعن الواجهة، لأنني لو تقربت من حدوده شبرا؛ لأبتعد عني ألف متر. باقترابي منه سأبتعد عن الحقيقة تماماً، مثلما مثل عليّ وأبعداني فيما سبق عن حقيقته.

ربما الحقيقية هي التي ستتماهى أمام عيني لتضيع في ثرى الأوهام والعراقيل التي يحرثها أمامي، حينها لن أدرك ما رمى إليه أبو عصام ولربما سيبتعد قاسم عني اميالا لينبذني. أنا أشم رائحة نفسي الكريهة، فلا أحد يستسيغ وجودي، لا أحد يحب لي طرفا في هذه الدنيا، ولا أحدا يبغي لي خيرا فيها؛ حتى هذا المعتوه أبو عصام - لم يخبرني الحقيقة إلا لغاية في نفسه."

صار يحلل الوضع كما يشاء ويرى من وجهة نظره الأحداث بمخيلته ليغوص في تلك المتاهة بين اشواك الحقيقة وأكمة الشك، بات يمضي مع الصوت الذي يقرع في داخله ويجلجل كيانه، بات يزجل أسبابا ويرجئ قراءات يقتنع بها ولا يقتنع!... هكذا شغل نفسه في ذلك اليوم بعيدا عن ساحة الأخوة والرضا، بعيدا عن أفق ما يجمعه مع أخيه، حيث غزة أبو عصام لا تنفك عن ذاكرته قط.

في تلك الفترة شاعت مسألة الاختطاف والتتكيل والقتل على الهوية، وملاحقة شلة الأغنياء والتجار وأصحاب الملايين منهم، كما طفحت عقدة الطائفية بعد المداهمات والاعتقالات التي تعرضت لها شرائح المجتمع من قبل القوات المحتلة والمليشيا الساندة لها على مساحة الوطن، بحجة قمع عناصر مقاومة المحتل الغاصب.

كثرة الأحزاب والمليشيات والشعوذة الدائرة في المجتمع؛ نخرت جسد العراق، كل صار يشد الخرقه من جانبه، هكذا تمطت خريطة العراق بين الايادي العابثة حتى تهكت وتمزقت كحالة فكرية وكقيمة وطنية، شُطت بين أيدي المتطرفين والطائفيين والقوميين والعابثين واللصوص، كل صار يعد ذاته لأجل غاية في نفسه وعلى حساب حقوق الآخرين والوطن الموحد، تلك المنغصات أجبت نار الفوضى، لتبسط تلك القوى هيمنتها فوق كل المجالات،

وليمتد الاحتلال دون رادع في كل الزوايا، حتى تسلل لداخل الأسر.

في تلك الحقبة بالذات؛ بات جاسم يفكر بمراقبة أخيه ومحاولة استنزافه بشيء من تلك الشعوذة المراءاة للجميع، بالاعتماد على طرف ثالث يدخل أجواء اللعبة، ليتمكن من تقصي أسرار أخيه. وعسى أن يجد له مقعدا في مركبة التغيير الجاري لتغيير مجرى حياته.....

الفصل الرابع

منذ أن علم جاسم بأن أخاه قاسم قد أصبح ثرياً بلبلة وضحاها، بدأ يتتبع أثره بصمت، يبحث عن سرّ هذا التحول الغامض، متخفياً خلف صداقة جعفر ورشيد، دون أن يترك لهما دليل يدل على صلة القرابة التي تربطه بقاسم. كان يتقصّى، يراقب، ويجمع خيوط العقدة دون أن يبين غايته، دون أن يشعر أحد بأن الشخص المراقب هو أخوه من أمه وأبيه.

خطط جاسم بحرفية عالية، مستغلاً الفوضى التي تعمّ البلاد كستار لمخطّطه. لم يكن قاسم ذا دراية بأصدقاء أخيه، لذا حين شرع في تجديد دكانه وتحديث ديكوره وتجديد بضاعته، استعان بعدد من العمال، كان من بينهم جعفر ورشيد. أسند إليهما مهمة نقل الملابس والأحذية من الشورجة إلى محله، فاطّلعا على حجم الإنفاق وكميات البضائع التي نقلها، دون أن يدركا أن صاحب الدكان هو أخو صديقهما جاسم، ودون أن يعلم قاسم أنهما أقرب أصدقاء أخيه.

كل تلك المعلومات وصلت إلى جاسم، الذي طلب منهما مراقبة قاسم عن بعد، دون أن يبوح لهما بغايته. حين بدأت الحقائق تتكشف، أصيب جاسم بالذهول، وبدأ يصدق كل ما يقوله أبو عصام عن قاسم وتحولاته.

لكن السؤال ظلّ يؤرقه.....

ما سرّ هذا التحول؟ كيف انتقل قاسم من الفقر إلى الثراء؟ من شخصية مهزوزة إلى رجل له هيبة وكيان؟ كيف تحول من أطمار البالات إلى ملابس البرادا والبربري؟ من يقف خلف هذا

التغيير؟ ولماذا لم يشركني في هذا التحول؟ هل هناك ممول مجهول؟ وهل هذا الممول شخصية نافذة؟ وزير؟ رئيس وزراء؟ أم مجرد لص من لصوص المرحلة؟.....

كل هذه الأسئلة كانت تتزاحم وتتلاطم في ذهن جاسم، تغذي شكوكه وهواجسه، تعمق غرابتها روايات أبو عصام الذي أشار إلى أن الممول ينتمي لمدينة الثورة، وربما للتيار الصدري أو أحد الأحزاب الجديدة التي تسّمت المناصب بعد سقوط النظام.

جاسم، الذي يعرف أصل أهل زوجته وجذورهم الفقيرة، استبعد أن يكون الغنى قد جاء من تلك الجهة. فهو لا يملك سوى الفاقة، ولا يرتقون إلى مستوى الثراء إلا إذا كانوا جزءاً من عصابات سرقة البنوك، وهو أمر لا يصدق.

الإشاعات كانت تشير إلى أن سراق البنوك غرباء، دخلوا من خارج الحدود أو نزحوا من الشمال أو من تركيا والأردن، أو انبثقوا من أحياء شعبية مسحوقة في بغداد. وجوه غريبة، خلقتها الفوضى، واستغلت انهيار النظام لتنهب وتزرع الرعب. بعضهم مدعوم من قوى داخلية وخارجية، وآخرون من عناصر الأحزاب الجديدة التي بدأت تشرع وتبني ذاتها من الصفر، مستندة إلى أبناء الفقراء الذين شلحت الظروف مبادئهم.

ربما قاسم مستند إلى جدار قوي، يحميه من عبث المجرمين، ومن غايات المحتل، وربما هو جزء من منظومة أكبر، تحركه وتوجهه قوى من خلف الستار. لكن جاسم، رغم كل هذه التحليلات، ظلّ يتأرجح بين الحقيقة والخيال، بين الشك واليقين، دون أن يصل إلى جواب قاطع، لأنه يعرف كل خلية متربعة على جسد أخيه. لذا ظلّ يردد في نفسه:.....

من أين لقاسم كل هذا الثبات والثقة؟ كيف لصعلوك مهامل يتحول إلى شخصية مرموقة؟.

حينها فُكر جاسم أن يجرب أخاه بعملية صغيرة، لكنها عميقة الأثر، تهز كيانه من الداخل، وتكشف له ما خفي من أسرارته، وتفضح أصل غناه، وتزيل الغبار عن وجه الحقيقة. أراد أن يقرأ دفاتره المغلقة، أن يعرف الشخصية التي تسنده، واليد التي تضع المال في جيبه، والقوة التي تحميه وتسنده، وكل ما يحيط به من غموض.

كان يرى أن قاسم هو من جنى على نفسه، يتساءل في نفسه: لماذا لا يفشي سره لأخيه؟ لماذا لا يرفع من شأنه؟ لماذا يتركه يتخبط في فقره بينما هو يرفل في النعيم؟ هكذا ظل يفكر، بين أن ينسأه أو أن يتجرأ عليه، بين أن يصفح أو أن ينتقم. لكن الظرف لوى فكره، جعله أشبه ببرميل نفايات، ممتلئ بأفكار القبح والقذح، نتيجة القبح والسموم التي لَقَّحه بها أبو عصام من جهة، والغيبض المتراكم في صدره من أخبار رشيد وجعفر من جهة أخرى.

هكذا جنحت نفسه نحو فكرة الابتزاز، وبدأ يناقش أمر خطف عزيز قلبه، ابنه محمد، مع صديقيه جعفر ورشيد، دون أن يكشف لهما عن صلة القرابة. أراد أن تكون تلك العملية هي الشوكة التي يغز بها بلونة أخيه، غرّة واحدة تفتشي كل أسرارته، وتكشف المستور، وتفضح ما خفي. لأنه يعرف جيداً ضعف أخيه وهشاشة الوسط الذي يعيش فيه، ويؤمن أن هذه الضربة ستجعل كل شيء ينكشف.

حين يتغير لون الجو داخل البيت من بياض إلى سواد من فاتح إلى قاتم، من براق إلى رمادي أعتم، ستبرق الشرارة وسط تلك الظلمة، وتفضح جريسته، وتفضح عن الحقيقة المخفية التي لا يعرفها أحد. سيتبين على سجيته، مع دخان اللغز المنبعث عاليًا في فضاء سمائه، حينها سيرفع القناع عن وجهه، وتتكشف أسرارته دون أن

يبذل جاسم جهداً يُذكر. إنها لعبة الأذكىء، لعبة لم يجربها من قبل، لكنه قرر أن يلعبها مع أخيه حتى يستنزف أمواله، ويكشف عن كل ما يملك.

رأى في العملية تجربة كيميائية صرفة تبين نوع المواد المتفاعلة مع أخيه، أشبه بورقة الكشف التي تكشف قاعدية أو حامضية العناصر، أراد أن يعرف طبيعة التفاعل داخل البيت وخارجه، ولونه، ودرجة حرارته النفسية. وقد اتفق مع صديقه سرّاً على موعد تنفيذ العملية.

كانت المدارس قد عادت فتح أبوابها لبداية سنة دراسية جديدة، رغم التأخر الكبير عن موعدها بسبب ضبابية الأجواء، وضعف الأمن، والاحتلال الذي حلّ بالبلاد. وعلى الرغم من أن الدوام كان مهلهلاً، والحرائق مستمرة، والمقاومة تشدد، إلا أن الطلبة كانوا يتمسكون بكرسي المستقبل، لا يريدون أن تضيق سنة من أعمارهم الدراسية، رغم تنامي فوضى الطائفة في البلاد.

كان محمد لا يزال طالباً في المرحلة المتوسطة، لم يكمل الصف التاسع بعد. وفي ظهيرة أحد أيام تشرين من عام 2004، وبينما كان عائداً من المدرسة، وقبل أن يلج في دهليز زقاق محلّتهم، تمكن رشيد وجعفر من استقطابه، كتفاه بسرعة، ودفعاه إلى جوف تاكسي كان قد أعد مسبقاً للعملية. دلقاه للداخل، ثم أردفا الباب بقوة، مشهرين في وجهه شفرة سكين حادة.

- اسكت وإلا تقتل، لا تخف لن نؤذيك.
- من أنتم وماذا تبغون مني؟
- ليس لنا معك حاجة، أنما أبوك قد غشنا وعليه استرداد أموالنا، لا تخف.

اشترك معهم في عملية الخطف المدعو سجاد، صاحب التاكسي، وهو ابن عم جعفر. تم نقل محمد بعجلة سجاد إلى بؤرة الجريمة المجهولة في منطقة الحسينية، شمال بغداد، في منطقة نائية يصعب التحري فيها، لما لها من عشوائية وتداخلات يصعب فك شيفرتها.

عُصبت عيناه بقطعة قماش سوداء، بعد أن عُقص داخل العجلة، ثم نقل إلى سرداب بيت جانبي معزول، مفروش بالحصير، وبطانية قديمة، ومخدة بالية. هناك، في ذلك السرداب، بدأت فصول اللعبة، لعبة الظلال، لعبة كشف الأسرار، لعبة جاسم الذي قرر أن يفصح أخاه، لا ليعرف مصدر غناه، بل لينتقم منه لتجاهله.

ما أن أدخل إلى السرداب، حتى صفعه احدهم بكف على وجهه ثم سأله..

- قل لي وإلا قتلتك الآن، كم يملك أبوك من مال؟ ومن أين حصل على أمواله؟ كم يملك ذهباً؟ من الرجل الذي قدم له المساعدة؟

أثرت به الصفعة بعد أن طرحته أرضاً، صار يبكي ويولول مجيباً....

- عن أي مال تتحدث؟ أنا لا أعرف شيء عما يملك أبي وعن ما تدعيه؟.

تركه يأن ثم اتصل رشيد بالسيد قاسم هاتفياً بعد أن أخذ رقمه من محمد، ليخبره بأنه تم اختطاف أبك محمد، وأمامك فرصة إنقاذه مقابل خمسة دقاتر، أي (50,000) الف دولار... ترسل بيد جاسم إلى شارع السعدون، أمام صيدلة المنارة. ومن ثم نحن نتصرف معه بمعرفتنا. أعلم المدة أمامك أسبوع واحد فقط على تدبير المبلغ، أو ستذهب لمشفى العدل لتستلم جثة أبك من هناك.

بعد أن أخبره أغلق الهاتف بوجهه، جعله يعيش حالة هذيان ويأس وقلق مر، حالة لم يمر بها من قبل قط، حالة سقم وغيض درأت صحته بوعكة كادت أن تقتله وتنتهي وجوده.

أخيرا دارت الرحة ووصل الخطر لرجليه، بعد أن نال حسن وصفاء وعامر وسعيد وجواد وووو.... الخ نصيبهم. أخيرا التف حبل المشنقة على عنقه، خيوط من قنب تعشقت بقدميه، دحرجتها رياح التغيير بصيغة ما، جردته من قيافته، دجنته بمتاهااتها..

بات قاسم يدور في دوامة الفوضى، مثقل الرأس، لا يهدأ له قرار، يتنقل كمن يبحث عن طوق نجاة وسط بحر هائج من النيه. بلغ به اليأس حدًا أن يستجد بالشيطان ذاته لإنقاذ ولده من مأزق الغموض، فراح يفتش عن أخيه جاسم بين دهاليز الزمن وظلمة الظرف، غافلاً عن أن الخاطف الحقيقي لم يكن سوى جاسم نفسه.

بحث عنه في أسواق الشورجة المزدهمة، وفي زوايا داره، كمن ينقب عن إبرة ضائعة في كومة قش. اختفى جاسم كظلٍ تلاشى في صرة الغروب، تلك التي ابتلعت في عتمة الحيرة.

ظل قاسم يتأمل قمر أخيه يبرز في مساء المعتم، باحثاً عنه بعيداً عن البيت، كما لو أن الظرف الذي أظله قد أظل جاسم أيضاً في سباته. وسط الزحام الذي بات يعوق سعيه، لقد اختفى جاسم من مسكنه ومن مكان عمله، تخفى في مسكن جعفر، بعيداً عن الشورجة وبيته، لثلاثة أيام متواصلة.

لم يستطع قاسم العثور عليه خلال الأيام الثلاثة الأولى. كان جاسم قد تعمد إخفاء نفسه، متقناً دور البراءة والعفة ليخدع أخاه. لم يجد له أثراً لا في البيت، ولا في أسواق الشورجة، التي ظل يجوبها صباحاً ومساءً. بينما جاسم كثيراً ما كان يبيت خارج المنزل مع صديقيه جعفر ورشيد، أو يتسكع في الحانات ودور المباغي

والدعارة، أو في النوادي الليلية التي باتت تعمل في الخفاء، والتي
يجهل قاسم مواقعها تمامًا.

قبل حادثة الخطف بشهرين، كان جاسم قد تعرف على نرجس
وسعاد، فتاتين أنهكهما الفقر، فدفعهما الطرف القاسي إلى الانخراط
مع شلة الفسق في دور المباغي، بحثًا عن لقمة العيش. كنّ جميلات
الطلة، يسكنّ حي الكمالية في أطراف بغداد الشرقية. تعلّق جاسم
بنرجس، الجميلة ذات العينين الزرقاوين والوجه المشرق،
والشفتين المنتفختين المتدفقتين أنوثة، والقامة الرشيقة. بلغ به
التعلق حدًّا أن طلب يدها للزواج، لكنها رفضته، ساخرة من فقره،
قائلة له:

- تريث يا بغلي، عسى أن يغيّر الله من وضعك وشكلك
المقرف، لأكون خالصة لك...

ضحكت باستهزاء، فهي فتاة لمحة، ذكية، تعرف كيف تثير من
حولها. كانت قد دفعتها رياح الزمن إلى أحضان الدعارة بعد أن
فقدت زوجها ضابط الدروع في معارك الاحتلال على حدود
البصرة. باتت تعيش مع صغيرتها على فتات الذل والهوان، بلا
معيّل ولا تقاعد، حيث جرفها التغيير بعيدًا عن حقيقتها، نحو واقع
الزنا، إلى جانب صديقتها سعاد، المطلقة وأم لطفلة في عامها
الثاني، والتي لا يختلف وضعها المعيشي عن حال نرجس.

وفي اليوم الرابع، تمكن قاسم من العثور على أخيه جاسم، أو
بالأحرى، خرج جاسم من القمقم الذي كان مختبئاً فيه، خرج من
مخبئه ليقابله عن قصد. حينها، أخبره قاسم بالفاجعة: باختطاف ابنه
محمد، والمبلغ المطلوب لفك أسرهِ. عندها أبدى استعدادهُ لجاسم
بتسديد المبلغ، مدّعياً الحرص على إنقاذ الطفل، بينما الحقيقة كانت
أعمق وأشدّ ظلمة مما بدا على السطح. عندها قال جاسم لأخيه:...

- لكن يا أخي أنا أعرفك حق المعرفة، أنت حافي القدمين. من أين لك ذلك؟ كيف ستدبر المبلغ؟ من أين لك كل هذا، أن كنت تستطيع تدبير ذلك المبلغ، لم لا تساعدني أن أعمل معك؟ لم لا تفتح لي مشروع أرزق منه لنعمل به معا، عسى أن أنزع عن جلدي لبدة الفاقة؟.
- أي مشروع وأنت لست داري بحالك غارقا بكأس الخمر، منقاد خلف الهوس وأشكال العبث مع الغانيات والمومسات من النساء دون أن تعير اهمية لذاتك. منزلق بكل شؤونك في وهدة الموبقات.. ثم المبلغ الذي تحت يدي ليس ملكا لي أنا، إنما هو ملك شخص مسؤول في أمن الدولة، يخاف أن يظهر نفسه أمام الملأ، لكي لا تتشبث باسمه التهم، أستغني وحاول تشغيل ماله معي ومع غيري.
- إلا تهاب من أن يسألك عن أمواله أين ذهبت؟ وكيف صرفتها؟ ووووو...ثم لماذا لا تستنجد به لينقذ محمد من الخطف؟؟
- إلى حيث، وهل هو داري بنفسه كم سرق!!! دعه يقتلني، المهم محمد يكون في سلام ويرجع للبيت. أم محمد بعد أن فقدت أخوها حسن ومقتل عامر ابن هدى، قلقة جدا على مصير أبنها، وأني أخاف أن تصاب بجلطة، فهي لا تكف عن الولوجة والبكاء عليه ليل نهار.
- ثم أنني أن استنجدت به، لن يستطيع مساعدتي، الأمر خارج إرادته، نحن نعيش في غابة فوضى.
- طيب وما هو المطلوب مني أن أفعله؟
- أن توصل الأموال للخاطفين.
- لم لا توصلها أنت بنفسك؟
- لأنك شخص معتوه في نظرهم، كسيب، تعبان، مهتوك، لا تجلب الأنظار إذا ما حملت المبلغ بيديك، كل الذي يراك سوف لن يشك بأمرك، سيتوقعها اسمالا من عهدتك.... ثم

هم طلبوا مني ذلك، وكأنهم على معرفة بنا، ما عليك سوى الوقف أمام صيدلية المنارة في شارع السعدون، هم سيتعرفون عليك، وأكد هم يعرفونك مثلما يعرفونني، الموعد غدا الساعة الرابعة عصرا.

- وهل تثق بي أن أوصل المبلغ؟
- لا.... ولكن هم يريدون ذلك، ولا حل سحري تحت يدي!...
- ماذا تريد أن افعل؟ أأجرع السم وأسكت؟ ثم أن المختطف هو محمد، ولا أظنك تخلي بي وتتخلي عن محمد.
- أطمأن يا أخي أطمأن، غدا بإذنه تعالى أمر عليكم وقت الغداء لأوصل المبلغ إليهم مثلما ترغب. أطمأن؛ حتما سيعود محمد سالما معافى.

وفي اليوم التالي حظر جاسم لبيت أخيه، استقبلته أم محمد استقبالا مشرفا لأجل عين أبنها الغائب الحاضر، غائب عن العين وحاضر في القلب والروح، المثل يقول "يُكْرَمُ الكلب لأجل أصحابه".

كانت قد خلعت القلادة عن جيدها الناصع خوفا من لجلجة جاسم المقرفة، استقبلته استقبالا منيفا وبرقة وتوسل، شعر بالفارق الشاسع بين استقبال اليوم واستقبال أمس، أصبح ذا أهمية، هم من يبحثون عنه ويتوسلون به، الدموع تترقرق في محاجر الأعين، الآه تكاد لا تهدئ من الهم وشفط الأنفاس، من الشجن المسيل في الوجوه والرعب اللائذ في النفوس، يكاد الهوس يتبع سجدة الروح الحائرة وهي مشكولة بشؤم نعيب الغداف..

بعد أن تغدى وقرب موعد التسليم، قال جاسم لأم محمد ...

- والله لن أسلمهم المبلغ إلا ومحمد في يدي، أطماني، هؤلاء الأنجاس لابد لهم من قصاص، لابد أن تتكشف أساليبيهم الخبيثة، مجرمون، لا يعرفون حدود الله، أين سيذهبون من

عقابه، حتما سيعريهم الله يوما ما، سنتكشف أوراقهم
وأساليبهم الخبيثة، حسبي الله ونعم الوكيل.

خرج من البيت وكأنه بريء لا صلة له باختطاف محمد، ولا علاقة
له في تأجيج القضية، خرج بنفس المنتصر وهو يحمل كيسا أسودا
(كيس نفايات) لف به المبلغ ليدراً عنه الأعين، ليسلم من لغز الشك
والمعاينة القبيحة، متجها لشارع السعدون للقاء الخاطفين أمام
صيدلية المنارة حسب المخطط الذي كان قد أعده ورسمه.

لم تمض سوى دقائق حتى وقفت أمامه عجلة تكسي صعد بها ومن
ثم توجه إلى الكرادة... وبعد ساعة الخامسة مساءً تم إطلاق سراح
أبنهم محمد، بعد أن عصبت عيناه بقطعة قماش سوداء ومن ثم
وضع في جيبه مبلغا قدره عشرة آلاف دينار أجرة طريق، كي
يستدل بها طريقه ويعود للبيت بسلام.

تم أنزاله في منطقة نائية جنوب مرأب النهضة، والتي لا تبعد
كثيرا عن سكناهم، ليستطيع العودة بيسر للبيت، ولتكلل عين والديه
بالفرح المنغص.

أضحى الحسد طابعًا ولونًا وهوية لأبي عصام، حتى غدا صيت السيد قاسم طبلية تُقرع في كل مكان، يتردد صده في المجالس والأسواق، جعله علكة يعضها في حديثه، يتسلى بها في كل محفل، حتى صار شغله الشاغل، يؤرقه ليلاً ونهارًا. لا ينفك يسأل عنه من هبّ ودبّ، يستفسر عن أصل غناه من كل من له صلة أو معرفة بقاسم، يطرق أبواب المعارف والجيران، يسأل أخاه، أصدقاءه، الناس، الولدان... ولو أتيح له أن يسأل الشيطان لفعل، فقط ليُرضي ذاته المتعطشة للوصول إلى مبتغاها.

غدا همه الأول معرفة سر غناه، أن يفك أحجية لغزه المحير، ذرب لسانه بمفردات الحيرة والعجب، ودّ أن يضع حدًا لسقف حيرته، أن يعلم مصدر علاقاته وسر غناه ومكانته. صار يسأل ذاته ويجيب:

"كيف استطاع أن يصبح غنيًا في ليلة وضحاها؟ كيف انتقل من قنفذ يعيش في الكور إلى بعبع تهابه الناس ولا يجاريه أحد؟ إنها مسألة محيرة.

كيف بدّل أجواء ترحه المتوشحة بالغم إلى أجواء فرح وسرور؟ كيف طوّر دكانه من خيب أسمال إلى أناقة وذوق وكراستال؟ كيف تجاوز مستنقع الشح ليرتقي سلم الرفاهية؟ من ذا الذي غشّ فيه ومد له يد العون؟ كيف تحول بهذه السرعة من رجل محنط بئس إلى رجل ذو طاقة وترف، لرجل شريف، ميسور الحال، يحسد الناس طلته، ويستمتع القاصي والداني لللعة صوته؟"...

ساخت أهواؤه، جنّ جنونه، اغضنت عيناه، بات يردد مع نفسه كلامه بين الحين والحين، والحقّ يدور في رأسه:

" هل يمكن أن يكون قد عثر على كنز سليمان؟ هل توصل فعلاً إلى لغز السلطة؟ كيف تعرف عليهم وهم غرباء؟ وهل هذا زمن يؤتمن فيه أحد! ليأتي شخص مرموق، مسؤول، ميسور الحال، سياسي مقتدر كما يدّعي قاسم، متحكم بضلع من أضلاع السلطة، ويؤمن ماله عند شخص تافه، رذيل، صعلوك مجهول كهذا؟ هل هذا معقول؟ هل يدخل في مجال العقل والنقاش؟..."

هكذا جره الهوس إلى دروب الخيال. فلولا الفارق الزمني بين الأمس واليوم لصدقه وكذب نفسه! ولكن لا بد من سر غامض انتشل هذا المعتوه من واقعه المذل، ورفعته إلى قمم الروابي، حاك بساط قدره برواق، جعله يتربع على كرسي الرفة مرفوع الرأس.

فكر كثيرًا في ادعاء قاسم، دون أن يصل إلى نتفة تقنعه بما تفوّه به. تأكد مع ذاته أن قاسم ودّ تظليله. عاد يفكر في طرق غنى قاسم، وأصبح شغله الشاغل الذي لا يمل منه:

"هل ما يدعيه قاسم من أن رجلاً مسؤولاً في أمن الدولة موله بالمال صحيح؟ هل المسألة تدخل في مجال العقل من حيث قيمة الفائدة التي سيجنيها من هذا الصعلوك؟ هل قاسم رجل منزله كي أصدق ما يدعيه؟ وهل كل ما ذكره يصب في مجال الحقيقة؟ ربما مؤه كلامه لغرض إبعادي عن طريقه.

وهل يمكن أن يتجرأ شخص مرموق، بمركز حساس، أن يستند إلى بئس مهتوك لتنمية ثروته دون أن يفضح؟ دون أن تقضحه الأهواء يوماً ما على الملأ؟ كيف وضع ثقته وماله بعنق بئس لا يستطيع الدفاع عن نفسه؟ وإن كان مقتدرًا كما يدّعي قاسم، لماذا ينتشل شخصًا تعيش من واقعه المريض؟ إن كان هو بذاته لصًا ومواربًا، يستطيع سرقة أموال الدولة، فمن أين جاءت النزاهة

ونزلت عليه الرحمة؟ لا بد في العقدة ألف "إن" و"لكن". ثم هل يحتاج اللص أن يشغل ماله ليزيد غناه؟ ههههه... إنها نكتة.

المسألة محيرة، فيها الكثير من اللغط واللبس والنفس الشيطاني، والقليل القليل من صبغة الرحمن. ورغم كل ذلك، يبقى قاسم هو الشخص الوحيد المستفيد من المعضلة الدائرة حوله، الوحيد الذي حافظ على اتزانه بين معارفي، رغم أنه اختل بسلوكه في تعامله معي، إلا أنه بقي بذات العهن، يستمد صبره من ضعفه وشكمه.

هكذا أخذته الظنون، ظل يطرح الأسئلة، يحاول أن يستسيغ منها فكرة توصله للحقيقة، فكرة تبين له مسلك تأمين ذاته، ليغتني كما اغتنى قاسم، حتى لو تنازل قليلاً عن كرامته. استمر يحرث ذهنه في كل المجالات، ثم ردد قائلاً:.....

- هذا الشخص إطلاقاً غير مناسب لأن يُصَفَّ مع شلة الأغنياء، تنقصه أمور جمّة، تنقصه الهيبة والنظارة وبعد النظر. ألا يمكن أن أكون أنا ذلك الشخص المناسب لذلك المترف الغبي؟ دعني أقلب المعادلة قليلاً لأيسر فهمها: ألا يمكن أن يكون قدر تلك الشلة التعيسة التي اقترنت بقاسم أن تقترن بحظي؟ أن تختارني أميئاً لها بدلاً من هذا المعتوه الذي لا يفقه شيئاً من أمور الحياة المستقيمة؟ أن نعمل معاً على سبيل التعاون المشترك وتبادل المنفعة التي أجيدها أفضل من قاسم بكثير؟ فأنا أكثر شطارة ودراية وحركة منه في الأسواق، وأكثر نشاطاً ومعرفة بكل المراكز، أكثر نباهة وحنكة وفكراً في التعامل، حتى أكثر منه باعاً وعلاقات وخفة دم وشطارة.

قد تكون الاستقامة التي يجيدها قربته من أهل السلطة، ولكن كيف إن لم يكونوا هم بذاتهم مستقيمون؟ لا أدري إن كنت قد يسّرت الأمر أم عقدته، فالمسألة محيرة بالنسبة لي. لا أدري إن كانت

العقدة تكمن في عقلي أنا، أم في سلوكي ونمط معيشتي، أم في عقل ذلك المترف الغبي.

أرى هؤلاء الأغنياء، أو بالأحرى العميان للصوص، أغبياء جداً إذا صح كلام قاسم، ضعيفي البصر والبصيرة. ألم يجدوا شخصاً أرقى وأفضل من هذا البليد، البارد، الذي لا يكش ولا ينش، ليكون أميئاً على أموالهم؟

ألا يمكن أن نستبدل الحظوظ قليلاً بيني وبينه ولو لفترة وجيزة، حتى أستطيع أن أجاري عسرة الظرف المحيطة بي بيقين أكثر جدارة مما أنا فيه؟

أراني أتسكع هنا وهناك، كي أخيط فتق جيوب الفاقة التي خلفتها الأنظمة السالفة فينا، والتي ما عادت تُغلق لتقي أفكارٍ وشطط بصيرتي، لأعيد إلى نفسي شيئاً من التوازن المفقود مع عجلة الزمن السريعة التي ما عدت ألحق بها.

- ترى، أيمكن للحظ أن يستيقظ بلحظة غفلة، يغازلني، يلاطفني، يكلمني، أعاتبه برفق، ليشفق عليّ بجزء من كنز سليمان مثلما أسعف قاسم؟ أم أن الجيوب المفجرة كجيبني تخاف لسعة الغنى، فلا توطدها الحظوظ أبداً، تهجس بها جيوب مخرومة تأويها العقارب؟ جيوب غبية، لا تأبى أن تمتلئ بفتات الفضلات، ولا أن تأبى أن تمسك بزمام الأمور وبتنايا الحظ.

- ترى، من أين أتى بمصباح علاء الدين السحري ليكشف لي سر غنى قاسم؟ أين أجد ذلك المارد ليرفق بي بنصف ما أرفق به قاسم؟ الحكمة تقول: من بقي ساكناً في محله، بقي متلحقاً بلحافه، بقي متخلّفاً عن الركب، كما قالها قاسم بوجهي.... وها أنا لازلت في محلي القديم، خائف من الأجواء الباردة والحارة، أقف على ذات الحجر السليط، أنتعل ذات النعل القديم، أتأمل أن يغمرني الحلم

برذاذ مطر الحظ، رغم أنني أرى الناس تركض من حولي،
تجاوزت حدودي، سبقتني أذرعاً وأميالاً، وأنا ذاك العبد العنيد،
أتبع أنفاس هذا وذاك بغل...

صار يندب حظه، يلوم نفسه...

- كأني لم أتعلم الدرس مما دار ويدور من حولي. الوضع تغير،
والناس تبدلت أساليبها، وأنا لم أزل راكباً راحلتي القديمة، محافظاً
على مساري دون تغيير، لازلت على ماكنت عليه أرثجي عطف
السماء وتحقيق المراد، هذا الأوضاع لا ترتجي الخنوع. الأفاق
متهية للتغير بسبب ضياع مفاتيح السلطة، بسبب احتراق المبادئ
والقانون والعدالة بلظى المدفع، البلد يغلي تحت حكم الغاب دون
شرائع وقوانين، حاويا الوحوش والتماسيح والكلاب إلى جانب
الأرانب والفئران.. لا أريد أن أبقى أرنباً أو فأراً بين أنياب تلك
الوحوش. أن لم تكن وحشاً افترستك الذئاب. التمني وآمل ممكن
في وضع الاستقرار والسلام، أما في ظرف العراق فأن الرزق لا
يأتي إلا ببذل جهد مضني، إلا بالقتل أو بالسرقة أو بالنصب
والاحتيال، أو أن تكون محظوظاً كحظ قاسم.

هذه هي المعادلة، وليس لها حل وسط، الأمور معقدة أمامي، تود
أنسانا من نوع آخر، جباراً، أنساناً فضاء، فضائياً، أكثر جرأة،
وأكثر صبراً وصلابة، أكثر قساوة وتجربة وشراسة. تحتاج لنوع
آخر من البشر منزوع العاطفة والرأفة، يحمل القسوة كسيف بيده..
أنا لم أقتل حيواناً فيما سبق، كيف بي أقتل أنساناً؟ الأحرى أن أنتمي
للمقاومة في قتل أعداء الوطن المحتلين على أن أقتل أين بلدي.

لكن في محاربة المحتل سأضع نفسي في بين الفرضة والشعيرة،
أضعها في مرصاد هؤلاء المتنفذين، سألاحق من قبل الجن الأزرق
والشيطان الأحمر، تلك الميليشيا السائدة والتي صار عددها لا

يحصى وعناصرها تجيش في الأرض كالديب، هي يد المحتل الطويلة. لان المحتل لا يستطيع أن يصل لكل نقطة يريدتها إلا بالتضحية، أما الخونة تجدهم يجيشون في الأرض، تدافع عن المحتل لترتقي بأنفسها، وبفرض هيمنتها.. فوجودها مرهون بوجود المحتل الغاصب. والاحتلال أيضا مرهون بوجود هؤلاء الكلاب.. كلاب سائبة تحمي بعضها البعض، تتجول في البلد هنا وهناك، تبحث عن ضالتها بين العيون الناعسة والنائمة، تلاحق المقاومين ومنسوبي الحكم السابق، كما تلاحق عناصر ضباط الجيش والمحاربين القدامى وكل قامة لها تأثير في الوطن، وهي بذلك تنفذ أوامر أجنات وقوى خارجية لها مآرب في العراق....

إذا دعنا من المقاومة الغير مجدية مع الكم الهائل من معارضيها.... لا العمر ينفع ولا الجيب يقطع. كما أن عملية النصب والاحتيال تحتاج لشخص فطن وذو بصيرة ولباقة وشجاعة وقلب راكز وذا خبرة في المجال، وأهم نقطة في ذلك الخفة التي لا أجيدها والخبرة التي أفتقدهما، فالنظام السابق كان حاذقا وحادا مع هؤلاء الدجالين، ليست لي في صفة من صفاتهم.

أظن باب السرقة هو الأقرب إلي والأفضل والأسلم والأسرع والأمن على المدى القريب والبعيد....

هكذا فكر وقرر أن ينفذ قراره حيث في قرارة نفسه حل كل شيء لصالحه...فقال لذاته:.....

- هناك من يحلل القتل، دعني أحلل السرقة لمرة واحدة في حياتي ومن بعدها أتوب، وعسى أن يعدل ميزان الحياة المائل بي منذ الصغر. عسى أن أعيش مرموقا ببقية عمري، عسى أن أهيء مستقبل معطاء لي ولأولادي. نعم أنها أسهل الطرق وأقلها ضررا بحياة المتضررين وأقلها تأثيرا فيهم....

ثم يا أبو عصام؛ ماذا سينقص من رجل يملك الملايين إذا فقد ألفاً أو ألفين؟.. لا شيء، أكيد لا شيء، أنها نقطة من بحر ... الغني سيبقى غنياً كما كان وقد لا ينتبه على مقدار ماله المفقود، بنفس الوقت أكون قد غيرت من وضعي البائس نحو الأحسن، أغير من وضعي من حال ل حال أفضل. أما عرف المجتمع دعني اتخطاه لمرة واحدة.

أليس هذا تبريراً معقولاً يا أبو عصام؟ ثم هؤلاء الأغنياء لشدة الجشع لا يتصدقون على الفقراء، دعني أعتبر ما أسرقه منهم هو صدقة من قبلهم عليّ، فهم كلهم بخلاء...

وهل توجد عدالة في المجتمع كي أمنع نفسي عن الخطأ؟ أهجس بكل هؤلاء الاغنياء هم لصوص بطريقة ما، البعض يسرق الناس دون أن تدري، والآخر يسرق البنوك ويتاجر باليمنوع وينهب ما يغفل عنه الشعب... الخ".

"الخطأ صار سمة يتمثل بها الكل على الإطلاق، كل منا يرى المقابل على خطأ.... هناك من هم أصحاب شهادات وعقول نيرة يسيرون في آخر الركب، خلف الرعاع، خلف العمامة أو خلف نصاب ومحتال ينير لهم دروبهم. هناك من لا يستحق الحياة وصار يلعب بمقدرات الناس وبالأموال كيفما يشاء.

ناس تدهن جلدها بالنعم، وناس تهرش جلدها بسبب طفح الجذم.

لَمْ أمور الحياة تجري بطرق متعاكسة مع أناس ومتوافقة مع أناس آخرين؟ البعض تعاندهم دنياهم، وآخرون تضحك بوجوههم أقدارهم..

دائماً ما ترى هؤلاء مكليين بالزهو والغنى الفاحش في مقابل الذين يشحتون في الطرق، على الرغم من أنهم قد ابتدأوا حياتهم معاً من

الصفير، من لا شيء، لكنهم تخطوا واقعهم، وخطوا حدود مستقبلهم بخطوط براءة لامة.

أليست المفارقة واضحة؟ ترى هل لعدالة السماء وجود بين هؤلاء وهؤلاء؟ هل عدالة السماء لها موضع قدم بين البشر في ظل الفوضى الدائرة كفوضى العراق؟

استغفر الله وسبحان الله لا أأدخل في حكمته، ولكن تجاوز ظلم البشر على عدالة السماء أنسانا سره..

إذا يجب أن أكون جزء من هذه الفوضى، يجب أن أنتمي إليها كي أتجاوز أزمتي وأعيش مترفا بين البشر. يجب أن نلتف عليها قبل أن نلتف علينا وتضييق الخناق على أعناقنا، قبل أن نضيع تحت مداس أقدام الغرباء...

يجب أن أمسك بالعصا من منتصفها، بحيث لا استكين ولا أتهور، شيئاً فشيئاً أتجاوز قدرتي وأغير من مصيري، على أن أكون كتوما وأستر نفسي بالمحظورات...

يجب أن أتحرك عن موضعي كما قال لي قاسم، عليّ أن أبدأ بأقرب نقطة لي.. دعني أجرب حظي بسرقة دكان صاحبي وغريمي السيد قاسم!، لقد أحرق قلبي دون أن يخبرني بالحقيقة، أنه أناني، لم يفكر بي كجار وكصديق عمر حين أغتنى.. أنه لم يدلن على طرق السعد، دعني أكتشف الحقيقة أن كان صادقاً معي في ادعائه أم هناك سرا ما يخفيه عني؟. لربما يحتفظ بالكنز في داخل دكانه، دعني أسرقه ودع الغني الذي يستند عليه يعوضه خسارته."

... بات يهين نفسه ويمهد الطريق أمام ولده عصام البالغ من العمر عشرين عاماً، يلقعه بصفقة العمر. لذا أتفق مع سائق بيك آب يعمل بالأجرة على نقل بضاعة تخصه من منطقة الميدان لمنطقة

السيديه، على أن يحضر حمل البضاعة فجر الأحد في تمام الساعة السادسة صباحاً أمام محله لنقلها. كون ساعة الفجر المبكرة أكثر أماناً من التي تليها، حيث بمعية لسعة البرد الصباحية تتجنب الناس الخروج للشارع، إضافة لتخوفهم من غدر المارقين والمجرمين ومن دهم اللصوص أو تربص الماجورين بهم، من أن تكيل بهم عصابة ما فتحيل أملاكهم لخبر كان.

كما أن قاسم في تلك الساعة يكون متدثراً بفراشه، حيث أنه تعود أن يفتح محله بعد التاسعة صباحاً من كل يوم، هذا سيجعل العملية في مأمن، وسأحرق قلبه عندما يأتي صباحاً ويرى دكانه خال من البضاعة والكنز الذي لا اعرف سره.

أتفق أبو عصام مع أبنه عصام على سرقة دكان قاسم فجر الأحد، على أن يحضرا إلى مكان الجريمة قبل ساعة الصفر بنصف ساعة على أقل تقدير، للاستحكام بالوقت ولكسر أقفال دكان قاسم قبل أن يحضر سائق البيك أب للنقطة المحددة المرادة، ليوهموه بأنهما ينقلا بضاعة دكانهما.

فعلا حضرا بالوقت المناسب من فجر الأحد، بعد يوم واحد من خروج محمد من شرنقة عمه جاسم. حينها كان قاسم لازال تحت تأثير صدمة اختطاف أبنه، لازال مجهدا نفسيا، مرهقا فكريا. لذا وجد ذاته لا تستطيع متابعة رزقه في الدكان، في ذلك اليوم بقي حبيس البيت، يتداول مع أبنه لفائف العقدة عسى أن يستدل على خيط يوصله لمأربه، إذا منح ذاته إجازة يناقش فيها أصل الوجوه التي خطفته وعددهم وأعمارهم، عسى أن يستدله على واجدا منهم، عسى يعرف شيئا عن المكان الذي أودع فيه، والسلوك الذي تصرفوا به معه.

في صباح ذلك اليوم المشؤوم تمكن أبو عصام برفقة أبنه عصام من كسر أقفال دكان قاسم ببسر باستخدام منشار حديدي، وبعد دقائق من إكلال عملهم بنجاح؛ حضرت عجلة البيك أب بالموعد لنقل البضاعة المراد نقلها، كان السائق منضبطا جدا؛ بحيث جاء ملهوفاً للعمل لقلة الأعمال في تلك الفترة بسبب قلة الأمان.

طلب أبو عصام من السائق البقاء في العجلة لترتيب وتسفيت البضاعة في العجلة، بينما هو وأبنه يتبادلان الأدوار بنقل البضاعة، صارا ينقلان الاسمال بشكل عبثي وعلى عجلة من أمرهم، دون تنسيق أو ترتيب، ودون ضبها وحزمها في كراتين.

تم نقل معظم البضاعة المخزونة والمعرضة من دكان قاسم إلى العجلة. العبثية ظاهرة بوضوح على عملهم وسلوكهم، القلق بائن على محياهم، ارتباك واضح ملازم لسلوك الأب والأبن نتيجة العجالة من جهة والرعب الكامن في دواخلهم خوفاً من تفشي سرهم من جهة أخرى. وكأنَّ خلف هذه السرعة والفوضى التي كانوا عليها كائن شيطاني يحرك ذوائبهما فيزلهما في شطط الفضيحة، يحثهما على الإسراع قبل أن يكتشف سرهم للعلن من قبل الجيران أو المارة، أو من قبل قاسم بذاته، عندها ستنتطبق عتلات المصيدة على أعناقهم كفئران لم تراع حرمة الدكان...

كأنَّ عملهم مبني على استشعار داخلي، ينبئهم بفوضى عملية نقل البضاعة وما يرافقها من عبثية واضحة بسلوكهم المخل.. ذلك ما جعل صاحب عجلة البيك أب يرتاب من عملهم، ويشك بنياتهم، نتيجة عدم الاتزان وحالة الهرج والمرج الدائرة في وسطهم، مستغرباً من العشوائية المشاعة والتي تفرز بوضوح مسلمات الغاية المرادة من خلال عبثية نقل البضاعة وعدم الاعداد المسبق لها وترتيبها.

عدم الاعداد المسبق لنقل البضاعة دون ضيها في أكداس وصناديق محكمة لتكون جاهزة وسهلة في النقل؛ يدل بأنَّ الحالة غير طبيعية وقرية السرقة. ربما هم في حالة سرقة حقيقة، في مهمة خطيرة.. ربما يخافون من انفلات الحالة الأمنية المقلقة، صيغة العجلة وحالة الارتباك الواضحة تدل على أنَّ أبو عصام شخص موارد.

كان عليهم تجهيز البضاعة قبل يوم أو يومين من موعد النقل في كراتين محكمة وأكياس محبوكة، لأجل أن لا تتلف خلال النقل والطريق ومن ثم التخزين. لكنَّ العشوائية توحى بأنَّ البضاعة ليست بضاعتهم... ربما هم لصوص يسرقون غيرهم.

هذا ما طرأ على فكر سائق البيك آب.

ترى لم يحاولون توريط الغير في أعمالهم الصيبانية !!؟؟؟...

بات الشك يتلاعب في قلبه وفكره، تصرفاتهما توحى بأنهم غير اسوياء.

لكنه لن يستطع أن يحكم جزافا.. لا يستطيع أن يشير إليهما بالتهمة، أو ينبس بشفة، لأنَّ ما تعتريه مجرد شكوك لن تصل ليقين مطلق، إضافة لذلك إن كانوا من اللصوص، فحتما اللصوص يتسلحون بمختلف الاسلحة خلال عملهم، تجنبنا للمحذور. لذا ود تجنب الاصطدام بهم في تلك الساعة الحرجة، كما تجنب من أن يتهممهم أو يسألهم جزافا عما يفعلون...

ولكن لم هذه العثية في نقل البضاعة؟ فإذا ما سألهم؛ قد يفسروا سؤاله بشكل آخر يدل على اكتشاف سرهم، فيغدروا به..... لذا فضل التمعن والسكوت وتحمل الموقف وبيان استخلاص عملهم، وقد يعود في يوم آخر يستفسر عن حقيقة البضاعة التي ينقلها.

وقبل أن ينهيا عملهم من تفريغ محل قاسم من البضاعة المتبقية، باغتتهم عجلة بيك أب أخرى تابعة لأحدى فصائل الميليشيات المسلحة.. وما أن ادركتهم حتى فتحت النار عليهم دون سابق إنذار... جرح السائق في ساعده ورجله، فيما اصيب أبو عصام بإطلاقه في جبهته، سقط على أثرها ليخرج بدمايه أمام دكان قاسم دون أن يرمش له جفن.... فيما تمكن عصام من أن ينسلت من قبضتهم بين أزقة بغداد القديمة هاربا بدهاليز منطقة الميدان المتشعبة قبل أن ينتبهوا عليه، وقبل أن يكون ضحية أبيه هو الآخر.

بتلك العملية أنهى أبو عصام حياته نتيجة حسده وطمعه الغير محدود، كما يقول المثل "حسدهم قتلهم" فدفع عمره ضريبة غيظه وتتبعه لجاره بعد أن شغل فكره طويلا بتغيير أحواله، فجنحت نفسه المريضة خلف ثروة جاره قاسم، فتنبع غايته المسمومة حتى جنى عليه هوسه وفعله، كما جنى بدناءة نفسه على حياة سائق (البيك أب) المسكين بعد أن أعاقته رصاصة في قدمه.

العصابة التي أجهزت على أبو عصام كانت تجوب الشوارع بحثا عن الفرص المتاحة والمغشية بعتمة الغبش لاقتناصها، وكان من ضمن تلك المجموعة أبو عادل وأبنه..

بعد السيطرة على الموقف؛ تحول أبو عادل من عجلة (البيك أب) المسلحة إلى عجلة (البيك أب) المحملة بالبضاعة، لينطلق بها خلف العجلة المسلحة خلف مآربهم ومرأبهم الخفي.

كان أبو عادل قد تيقن من أنهم لصوص يسرقون بضاعة جاره قاسم، وهو يعرف بأن هذا الدكان هو دكان قاسم، لذا قرر قتل السُّراق في موضع الجريمة.. لكنه كفرد مستجد ضمن شلة العصابة لا يحق له اتخاذ قرارا لوحده دون أن يكون القرار لأمر الجماعة التي ينتمي إليها. هذا ما جعله يرضخ لقرار الجماعة بسرقة العجلة ببضاعتها دون أن يفصح لهم بأن صاحب الدكان المسروق هو وجاره قاسم.

ففي ساعة القسمة والمصير تحذف العدالة والرحمة من قواميس الشخص، حيث لا مكان للرحمة ضمن رفوف المجرمين، ولا جدوى من مجادلتهم بالأمر، لأنهم بطبعهم لصوص وحرامية وقتله مأجورين، فلن يترجعوا عن الهبرة التي قدمت لهم. هذا هو أصل عملهم السيطرة وتعبئة الزنبيل..

مجمل أعمالهم تدخل ضمن إطار الفوضى العارمة الدارجة في البلد، وقد سنحت أمامهم فرصة سهلة ومتاحة للاستغلال، فكان عليهم استغلالها.. لذا حين طُلب منه أميره قيادة العجلة المحملة بالبضاعة رضح عن طيب خاطر، فقادها لمقر ميليشياتهم الكائنة في قاطع الكمالية.

مثلما استغرب أبو عصام بتبدل أوضاع جاره قاسم؛ استغرب أبو عادل أيضا بتبدل وضع قاسم بليلة وضحاها. مثلما كان للاستغراب علامات مرسومة على وجه أبو عصام، وشمّت تلك العلامة جبين أبو عادل، تطابقت العلامات والظنون بذات الوشاح والغرابة....

لقد جنحت نفس أبو عصام لسرقة جاره قاسم، مثلما جنحت نفس أبو عادل بذات الصيغة لسرقة جاره قاسم، الفرصة كانت قد حلت بين الاثنين بذات اللحظة والمسافة، بعد أن تبادلوا الأدوار في لعبة تغيير المراكز. لا اختلاف بينهما سوى بالشكل فقط، حيث أبو عصام بدا كأهبل في سلوكه نتيجة الغيرة التي جلدته، بنخافة جسده ونشاز طوله وبياض شعره وبشرته بان كأر عن في ساحة الميدان، فيما أبو عادل الجعسوس، بقصر جسده وبدانته التي يتميز بها وسمرة البشرة، تهجس به كشيطن أخرس كتم غيظه داخل نفسه.

الفرصة التي هيئها أبو عصام لنفسه، سطا عليها أبو عادل قبل أن ينفذ زمنها، سرقها بذات اللحظة التي ود بها أن ينفرد بها ويفوز بها لينطلق خلف غايته المسمومة. الفرص كانت سانحة للآخرين معا بذات الخطوة، لكنها كانت أقرب إلى الأجدر والأشرس. هيئها أبو عصام واستغلها أبو عادل. فطين من يستغل اللحظة بوقتها بشكل تبعد عنه الالتباس، ونادرا ما تكرر ذاتها الفرص، ولا تسنح للذات البائسة التي ترتاب من خيوط الشمس ان تكشف أسرارها.

لقد وجد أبو عادل اللحظة المناسبة قبل أن يركب مركبها أبو عصام، ربما هذه اللحظة أدرجها الرحمن في طريق الأثنين ليفضح بها غاية ونية أبو عصام الذي خطط لها للذيل من صاحبه قاسم. ويغل ضمير أبو عادل، كونه عرّف نفسه لذاته بخسته ومقدار انحداره أمام نفسه التي تجاوزت الطيبة والاخلاق، لم يكن قد جربها في واقعة تحدي سابقة، لكنه بلعها.

الفرصة التي أودت بأبو عصام وعرت أبو عادل؛ كانت قريبة جدا من غاية الأثنين، وكانت أقرب للطنن في اللحظة الحرجة المارقة، لذا جنح إليها أبو عادل قبل أن يمسك بها أبو عصام ويفل في طلاس المسألة. لقد وجد أبو عادل الحدث أمامه يشرح نفسه والحقيقة دون عناء وتمحيص، فانحنى لتفسيرها فالتقطها، فاستعان برشاشته دون أدونات وتقديرات تؤجل مسعى قراره. ما جعله يميل إلى الفطنة الجلية، ليكون الأسرع والأقرب إلى اللحظة والفرصة والبضاعة من صاحبه الذي استعان بالشيطان على إتمام سرقة دون أن يجده بقربه.

كان قد أبتعد كثيرا عن الفرصة بسبب جشعه وطمعه الغير محدود والذي أصرّ بتفريغ بضاعة المحل عن آخرها، ثم بسبب العشوائية في سلوكه المشين الغير مدروس، والفوضوية التي جاء بها في تخطيطه ونقله البضاعة، نتيجة الارتباك والخوف، هجس الكل يشك فيه.. لذا قرر أبو عادل أن ينهي أحلامه وأن لا يتخلّى عن الفرصة، فتمسك بها تمسك الأعمى بعصاه....

كان حضور أبو عادل في تلك اللحظة، قبل أن يتم أبو عصام عملية السرقة قدرا إلهيا.. كأنه كان مسيرا من قبل طاقة خارجية، خارقة غير معروفة المصدر، لينال أبو عصام جزائه على فعلته الخسيسة.. طاقة دفعت به بسرعة تفوق سرعة مرام أبو عصام، ليصل الحدث بالوقت المناسب، ليكون جزء من آلية الحدث في

موضع الجريمة، ليقترض من أبو عصام على جريرة نفسه الأمانة بالسوء، ليفضح دناءة نفسه من جهة و لينهي مسلسل طمعه من جهة أخرى...

ربما الله قد هيء لأبو عادل وزمرته السبل ليصلوا المكان في الوقت المناسب وفي اللحظة الحاسمة وإلا ما معنى وصولهم المكان بالوقت المناسب، ثم لم لم ينحرفوا عن اتجاههم الموافق لاتجاه ابو عصام قبل أن يفلت الخسيس بفعلته الخسيسة دون دليل يلاحقه.. لذا كان القرار إلهيا ليكون عبرة لمن اعتبر، وليدرك قاسم من هم أعدائه المحيطين به وإن كانت شكوكه دغدغته.

كما أن بعض الأقدار لا تؤجل، وبعضها تؤجل حتى تكتمل فصولها.

"وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ" صدق الله العظيم

تركت جثة أبو عصام المسجى على الرصيف مخرجة بدمائها، مطروحة أمام دكان قاسم المفلوج كبئس (بابه) حتى قدوم لجنة التحقيق، الدكان الذي خلا من البضاعة تماما، صار شاهد عيان بنفسه على فعلة أبو عصام الخسيسة، فيما نقل سائق البيك أب من قبل أهل الخير إلى المشفى.

كما أن نجاة عصام من شبح الموت، هو الآخر بات خير دليل على تلطخ يده ويد والده في جريمة السرقة، كما كان شاهدا على براءة المجني عليه سائق البيك أب من التهمة بعد أن تمكن والده من إيهامه بنقل بضاعته لمكان آخر.

سجل بلاغ السرقة في مركز شرطة الرصافة وتم إسعاف السائق المغدور من عاقبته.

كان لسرقة الدكان وقع آخر سيء أصاب السيد قاسم في مقتلته، وكأنَّ للمادة التي حصل عليها نفس شيطان، سر جلب له المصائب، وكأنَّ الأقدار لا تبسم لفقير يعتلي الصرح إلا وفي كأسه تتجسد مرارة العلقم ليتجرعها على مهل....

كان قبل ذلك مستورا، معافى، مرتاح البال، لا أحد يفكر به ولا هو يفكر بأحد سوى بتدبير علاقة البيت- أما الآن فأنا القلق بات يسري بفكره ودمه أشبه بالسرطان. لا يستطيع أن يضع رأسه على الوسادة وهو خال من حشرجات التفكير والعقد، إلا وتشكمه مصيبة ما تغز ذاته وتشغل باله وتسهد حذقاته.

قلقه ذلك زاد من وتيرة ضغطه النفسي، زاد من ارتفاع مخزون الادرينالين والسكري في الدم، جعله يهتز أمام ضعفه ووضع المتقلب ومستقبله المبهم، مرتعبا من عمليات الخطف والسرقة والتكيد الذي تعرض له والتي تكمل بها بشكل منافي لواقع غيره تماما.... ذلك ما استنزف طاقته وحوله لرجل مريض مهموم يسرط حبوب الضغط والسكر التي هرشت جسده بعد أن كان سليما معافى قبل عثوره على الكنز...

ربما ستتعبه عمليات أخرى دون أن يدرك ذلك. هناك لغز لا يفهمه متعلق به أو بالمال الذي تحت يديه، بحيث اجتمعت عليه المصائب بغثة بعد عثوره على ذلك الكنز، جعلته يقلق من الوقع القادم، حائرا بكيفية المحافظة على ما تبقى من المال تحت يديه، أضحي يشعر بذاته أنه مشروع انتقام متداول بفكر المجرمين، معرض للاغتيال بالسيف أو بالعين الحاسدة، بات يشعر أنه ملاحق من قبل عدو مجهول يحاول أن يفتك به.

تلك الحالة أوصلته لدرجة الانزواء والعقد، خطرت في باله فكرة الهرب لجهة مجهولة، أن يهجر بغداد ليأمن حياته، لقد جلبت المادة

عليه عناكب الحسد و عقارب الويلات و ثعابين الجزع، لم يستطع مواجهة جيش الاعداء وحيدا.

عقد ومشاكل لم يكن يفكر بها أو ينتظرها، لقد أحتار في معالجة أزماته، تلك التي ترتبت عليه بعشوائية، صارت تجرجه ورائها، منذ أن قتل حسن قبل سنة من الآن تقريبا ولغاية سرقة دكانه لم يشهد راحة بال قط. والله أعلم ما سينظره غدا. حزم الويلات جاءت به غتة، صبت جام غضبها على رأسه، لاحقته الأقدار في شعب الطرق على الرغم من انه مستكين في محله أغلب الأوقات، منزو في حجره كالفأر، يتأفف من لهب الحسد، مجرد تماما من الحلول، معلول أمام شدة العقد.

كأن في المال المخزن في بيته نفس صاحبه أو سخط الوطن، ذلك الشيطان الخفي الذي يوسوس له عن الحلال والحرام لا ينفك عنه إلا بجره لواحة المأساة، تلك التي يهابها والتي لا حدود لعذاباتها..

لكن يا ترى!.... هل يستطيع أن يتجرد من المال ويتخلص من شره؟ أليس المال هو الذي يجلب السعادة؟.... وهو كذلك يجلب النحس والحسد، لقد ضاعت عليه الحسبة تماما، حين كان فقيرا كان سعيدا في بيته، وحين أغتنى هجرته السعادة.

كلا وألف كلا، أنه متعلق بها دون أرادة، قوة خفية تجعله يتمسك بما تبقى، ولن يتنازل عن حقه بالوطن مهما ساءت النتائج، انه قدر و عليه تكملة مشواره....

ماذا لو كل الناس صاروا أغنياء أو صاروا فقراء!.... ترى هل يكون للحسد موطئ قدم بين الناس؟ أنكون للسرقة غاية في نفوسهم؟ أيكون للجرم والقتل لباس يفصل على أبدانهم؟

أعتقد ستختفي كل تلك المساوئ مقابل اختفاء مظاهر الحياة الأخرى من أفراح وأتراح وبيع وتجارة وأعمال تخدم المجتمع، أي ستكون الحياة رتيبة لا طعم فيها، ستكون مكلة، الملل هو الطابع والسمة الغالبة على حياة البشر.

لذا حين ذكر الله في كتابه العزيز، قوله تعالى: "اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ" [الرعد:26]. صدق الله العظيم. أراد في حكمته أن تكون الحياة متاحة، والفرص متاحة للذي يعمل بجد ودون رتابة. ود أن تتخلل الحياة الفوارق بين الناس حسب ارادتهم وعزمهم، لتظهر ألوان الحياة للأعيان بأشكال قوس قزح، ملونة، مختلفة باختلاف النسب في تصرفات البشر فيما بينهم.. ليبرز عامل الحسد عند البعض وعامل الغيرة في مقابل الإحسان والمعروف عند آخرين، وهكذا هلم جرى.

لتكون للقيم وسط، وللخسة والنذالة وسط، وللطمع وسط، وللسفالة وسط، وللجرم وسط، وللشرف وسط، لتبرز للعيان قيمة الأشياء على حقيقتها، ليكون للخير قمم تتحرك إليها النفوس العفيفة والقلوب المؤمنة، على ضوء ذلك تتم المفاضلة في تصنيف البشر لمسألة خيارات الجنة والنار.

إذا تدرج قدره مرة أخرى واستقر في هوة عميقة، ليخسر هذه المرة محله بمحتواه، لم يبق من دكانه سوى جدران هامدة. لقد دفع الجاني عمره جراء فعلته الخسيصة، أما الجاني الآخر المجهول والمتخفي تحت ستر الفوضى والأمن المستباح؛ الله سيتولى امره، سيبقى مجهول الهوية حتى يعاقبه الله على جريرته ويكشف خسته...

أي أن الشكوى إذا ما قدمت للشرطة ستكون معلقة على حيطان مراكز الشرطة، تلك الخاوية من دساتير القوانين ومن البأس في

ظل فوضى الاحتلال- وبالتالي لن يتمكن من استرداد ما فقد،
أضحت بضاعته المسروقة في حالة نصب بالفتحة المقدرة على
آخرها، لتكون في يقينه بمحل خبر كان متأخر...

صار يركن ذاته إلى حدود الصفن والتفكير العميق، مراجعا
الأحداث التي عطف عليه ولوت ذراعه واحدة تلو الأخرى، صار
يكلم نفسه ويحاسبها على تقصيرها خلال مراحل حياته، كإهماله
لأمه لفترات طويلة بعد زواجه، صار يحاسبها على وحدته وقلة
أصدقائه ومعارفه، او على ضعف مجاملاته وركاكة علاقاته
وشحة زكاته وصدقائه... الخ...

.....أيعقل أن يعيش الإنسان في عالم لا يحتوي على ذرة أمان
واطمنان؟

أيعقل أن يعيش الإنسان تحت ظل كابوس مرعب طوال حياته؟

أصبحنا نتصور الخوف شبح يعيش في ذواتنا كالبكتريا المتطفلة
على اجسادنا، أنه أمر مثير للقلق، يزيد من هرمون الأدرينالين
الذي يظهر مفعوله من خلال خفقان القلب وسرعة نبضاته، نتيجة
حجم القلق والخوف المستمر من المجهول..

الخوف فعلا موجود في كل مكان ككائن حي اسطوري، يتجول
بيننا كالظل، مجهول الهوية، كائن يتخلل أحلامنا كطائر العنقاء،
يتربنا، دون أن نشعر به، يزورنا بصور مختلفة، بالقتل والهدم
والتفجير والسرقة والاختطاف والموت والملاحقة والمداومة
والسجن، يجعل الفرد يستسلم لها جسده سواء رضينا أم أبينا،
مستسلمين؛ حتى أنه يتهيأ للشخص في أحلامه ككوابيس مزعجة
تلاحق الشخص في منامه.

..ألم يذكر سبحانه تعالى بان الشيطان كائن حي؟ لكن؛ هل شوهد كحقيقة؟... لا.. لكننا نستشعر بوجوده وهو يتبع أهوائنا ليحيلها عن سراطنا المستقيم....

كذلك الخوف أنه كائن أسطوري يتبع أحلامنا، كابوس يعيش في مخيل وقلب كل عراقي. نلتمسه بهيئة أفراد ميلشيا دخيلة، أو جند المارينز، أو عصابة إجرامية، أو قنبلة موقوتة، أو لغم طائش، أو رصاصة طائشة، أو لص، أو قاتل...الخ، فلو تجاوزت كل تلك المطبات فلن نتجاوز فايروس الحقد والكراهية أو الحسد والبغض المزروع في قلوب الجيرة والمعارف والأقارب والأعداء ابداء. أنه يطفح في عيون البشر بمجرد أن تتعافى وتظفر بالسعد، قد يلاقينا على هيئة فايروس مرضي ككرونا اللعين أو فلافونزا الطيور نتيجة الإهمال التام في مجال الصحة، حيث شاعت المزابل والمجاري أن تغزو الشوارع والأزقة مثلما انتشرت تلك العاهات بألوانها على مساحة الوطن.

أضحت السياسة في نظر الناس امرأة عاهرة لا تستحي أن تفلج فخذيها وصدرها دون حياء لمن هب وشاع، هكذا تبدو لي. لقد احتلوا الوطن بحجة الديمقراطية، ثم باتوا يسرقون النفط علنا. نصبوا الحفاة والجياح على سدة الحكم ليكونوا عوناً لهم في نشر الفوضى وزعزعة الاستقرار، فصار هاجس الواحد منهم هو البحث عن سبل جديدة ويسيرة للنفوذ والسرقة.

اليوم سمعت حديث أحد شيوخ المتنافسين على السلطة يدراً زميل له من ذات الصنف في الفيس بوك حيث قال وحسب ما يدعيه....

.... بأن وفدا حكوميا ذهب إلى هولندا من أجل شراء دواليب الهواء لتوفير الطاقة الكهربائية والتي دمرتها أمريكا عام 1991 أبان الحرب الأولى التي شنتها على العراق ضمن تحالفها الدولي

البغيض بعد دخول العراق للكويت. والتي أصبحت قصتها أشبه بقصة فروة السبع، لقد صرفت على الطاقة الكهربائية عشرات المليارات من الدولارات دون أن يفلحوا في إنارة شارع واحد... معروف بأن الشركات المصنعة معظمها أهلية تنتمي إلى القطاع الخاص، وقد طلب رئيس الوفد العراقي من مدير الشركة الهولندي أن تخصص الشركة له نسبة 5% من قيمة العقد كمبالغ تضاف على حسابه الشخصي كي يوافق على إبرام الصفقة مع الشركة. فكان رد الشركة بأن يطرد الوفد المفاوض من هولندا، حيث تبين لها بأنهم مجموعة لصوص يريدون المنفعة الذاتية على حساب تعمير البلد المنكوب، لقد تقننوا في سرقة الشعب، أضحوا أصحاب خبرة. هذا غيظ من فيض.

....كأننا قد ابتلينا بالحياة، لا نحن نعيش لحظاتها بسلام ولا نحن ميتون في دهاليزها بقناعة، أضحينا كفقاعات تدحرجها ريح الاحتلال بين شعب وأزقة النقم بين أشواك الغل والحقد، ننتظر أن تفقأ فقاعاتنا عارض ما لننهي تعلقنا بهذه الحياة المعقوفة، التي لا تحرك ساكنا في مجالات أحلامنا. حيث لن نستطع تغيير موضع مسمار في ألواح حياتنا الرتيبة بعد أن سيطرت القوى الخارجية على زمام الأمور، وكأن الظرف المجحف قد جثى على كل أمل نتبعه، فلن نستطع أن نشترك بسباق فروسية اليوم ولا أن نعدل شيء من ميزان الغد.

...صرنا نحسد الدول الآمنة، وكأن النفط أضحى وبالا علينا، ابتلينا به، نهجس به الشر بعينه، جهنم يصلينا... لا حكوماتنا أسعدتنا به ولا المحتل رأف بحالنا بعد سرقاته..... أنها البلوى بعينها، وكأن الله قد خبأ الفواجع تحت تربتنا ولن يصلح لنا شأن؛ إلا إذا تجاوزنا العبث في ديننا وأفكارنا، إلا إذا تجاوزنا الطائفية

المقيتة والقومية البغيضة التي باتت تلسع أجسادنا وتقسم وطننا
بسموم النار والمحاصرة الطائفية.

هكذا سلم قاسم أمره للقدر، لتلتف عليه العقد دون أن يجد مفتاح
السعد، الذي أسره وقيد مساعيه، صار يفكر بحلول بعيدة عن الواقع
المسير، كالهروب من الوطن ليحتفظ بما تبقى له من رصيد في
الجيب الزمن.

بعد مقتل عامر خلال احتدامه مع جنود الأمريكان وبعد مقتل أبوه صفاء على يد عناصر الغدر مدعمة من قبل المحتل وقوى خارجية، لم يتبق لدى هدى ما هو مهم في حياتها لتعيش من أجله، لم تعد تمسك بالعصب الذي يمد عمرها في الحياة أو ما تستند عليه. بالأحرى لم تجد دافع لديمومة الحياة أو سبب وجيه يفرض عليها التشبث بها وهي مكلومة، حزينة، سوى بقاء أبنيتها ريم ذات الخمسة أعوام في حياتها.

تراكمت الأحزان عليها والتفت حبال الفاقة على يديها، الحسرات سلبتها لون البهجة، أشدت العناء وتفاقم العجز في طريقها وتشتت الفكر، بانث أثار الانكسار والهزيمة واضحة على قوامها وملامح وجهها، غدى لون بشرتها أشبه بطفح جلدي أو حساسية ما لكعت وجنتيها ومحاجر عينيها بالعتمة والحزن.

القهر والفاقة والظرف اللعين وفقدانها حبيبها وأبنها؛ جرداها من متعة الحياة، جزلت إرادتها عن مواصلة التحدي والبقاء بعد أن أسودت الأفاق أمامها، أصابها عجز في المخ وضعف وهزل وضياغ وحيرة وتشتت في السلوك والبصيرة، تجمعت عليها لفف العُقد لتتشكم أحلامها، بل المطارق صارت كدبابيس الفلاة تشك أقدامها، غزت أحاسيسها وتفكيرها وروائها، جعلت من الوحدة المقيتة صبغة لمشاعرها الراكدة، دعتها تصل في تفكيرها إلى أنهاء هذه الفوضى المحتدة في حياتها بالانتقام من مسببيها.

كانت قد عاشت مكرمة معززة بكنف زوجها، حين افتقدته هجست بكرامتها لا تسمح لها بأن تستجدي لقمة لتعيش بها حياة ذل إلى جانب أبنيتها، حياة تجبرها على الركوع والخنوع، كرامتها تمنعها طلب المعونة من الناس وأصحاب المعروف، أو إذا ما أحتمت

تحت ظل أخيها والتي لا تعرف عن أخبار غناه شيء. لا تعرف شيء عن الكنز، كل ظنها بأنه مكسور الجناح، متذبذب في معيشتها. وهي لا تريد أن تثقل عليه كاهله، لقد عاشت حياة عز وغنى وبحبة ونعيم تحت ظل زوجها قبل قدوم الاحتلال، كانت حياة كريمة، فترة دامت عشرين سنة من الزواج دون عقد.

على الرغم من أن قاسم أبدى مساعدتها على فترات متفاوتة بعد فقدانها زوجها، لكنه لم يفض ذاته لرعايتها، ولم يجد متنفسا حقيقيا يعينه على التفكير بها، لقد تكبل بالويلات المتعاقبة، جردته من حالة التفكير السوي، المصائب حلت على رأسه تترا، رشفته بوابل من السخط والخوف والعناء، لاحقته الرعونة في طرق مسعاه، راوغته الحماسة التي أبداها خصومه وحساده، اصطادته المطارق في مكامن عدة لم يتوقعها، صار يرتعب من تواجده بين الوحوش السائبة، أضحى في قرارة نفسه فأرا، لا يجرو أن يغادر جحره إلا متخفيا بظل الرجاء، بقي جرد لا يجري المواجهة، متى ما حاول الهرب لاحقته القطط الجائعة دون أن يتمكن من تخطي حدود عجزه، المصائب طرقت بابه دون أن يفكر بها.

حطت العقد على قياسه وبين يديه كقالب مغلفة جاهزة، ما أن يفتح شناعة العقد؛ حتى تتفجر عليه قرؤها، تحرقه سمومها، تبيد أحلامه، تنهي آماله، مشكلة بأثر أخرى طقطقت عظام رأسه، تحلقت بجيده كسلسلة عناء طوقت زناقته، شلت قدراته، لأنه الرأس والهرم والشاهد في سلم العائلة.

المشاكل التي تبعته، ركبت قدره. حددت له مصيرا محتوما بين اليأس والاستسلام، جرفته سيول الفوضى إلى وهدهتها، غمرت أقدامه وأفكاره بنتن قرؤها، ثم ارتفع منسوبها مع تفاقم الاحداث حتى حزمته ثم حلقت به بعد اختطاف ابنه محمد. صار أشبه بالغريق الذي يستتجد بقشة، يرتعد من الهول والحوار الدائر حوله، يهيجس

بذاته مكبل بقيود الظرف، مهزوم كنعامة لا يجد بدءً من دفن رأسه في خواء صمته وسكوته، ليباعد قليلاً عن المجتمع وعقده.

تلك المشاكل تستنبط عقدها من رحم سابقاتها، كأنها تستجد بروح الذكرى وبنمط التحري، تنمو بعرف جديد مُبتدع مع تطور الاحداث وتقاوم الخيبة، تختلف عن سابقاتها عما حملته من نكد وغيض وفتن وخواء وهتك تهلك البدن.

هكذا تدحرجت الأيام في مجراه، حملت له نكال الفواجع، صار يخاف من بزوغ فجر يوم جديد فيظله بما لا يتوقع، لما يبطنها من مفاجآت قد لا تسر قلبه، لا يستطيع ردها أو مقارعتها. حالات جعلته لا يركز على موضع قدم، لا يستكين على وجه راحة أو ظهر صبر، أضحى الوجس سمة يقمص هاجسه، شبح ما، لابد في ثنايا فكره وثيابه، انين يشك مشاعره، يبرز أمامه من حيث يحتسب أو لا يحتسب.

كأنَّ العقد التي تبعته ترتدي طاقية الإخفاء، تختفي بظل هيئة صديق ما يجماله، أو بهيئة زبون ما يرفقه، أو بصفة حجر يتعثر به، أو قدر يتقصده... هكذا صارت تميط به المخاوف دون أن يتمكن تجنبها، هكذا صار يمتطي المصائب كراحلة اسفاره.

الهوس المتداخل في فكره يتبعه كضباب الفجر، يرهقه. أضحى يشك بأي طارئ يصدفه. صار يتخيل شكل المصيبة القادمة في مخيلته. ود تجنب ذاته الاهوال، فحجر ذاته بالحدز والانزواء، يتجنب مطالعة وجوه الناس ومقابلة البشر، حصن ذاته داخل البيت.

أحياناً يتوقع المفاجأة قابعة في طرف عينه، في شعب الطرق، متخفية بين ثنايا الأشجار، في حشائش الحقائق، أو تحت رصيف الانتظار، بركان ينفجر عليه، أو قدر يعصف به... أو ما شابه ذلك من لفائف تلتف عليه، بحيث تجرده من راحة البال تماماً.

لا أدري أن كان يستطيع أن يصارح النوم لسويغات أم لا؟ لينتزع راحة من كربيه وعذاباته، أضحي ذلك الصدع ملازما له يرفع ضغطه، بل صار لا ينفك عنه، تراه بين فترة وأخرى يمص شريحة ليمونة أو يلهم طماطم ليخفف عن ذاته ضغطه ووقع الصداع الذي بات لا ينفك عن رأسه، حيث دائما ما يشعر بوشوشة تغلق منافذ الأذن بطنين ينبئ بالخطر.

بات يشكّل بصفاته وهي تتماها أمام عينيه، خائفة بمنعطفات الخوف، بعيدة كل البعد عن شخصيته الحقيقية، بات يراها أشبه بسراب يضمحل أمام شدة العتمة، تنكسر مع غروب الشمس، تنزوي مع ضعفه وعجزه في الدفاع عن نفسه..

أضحى يتشبث بالظل كي لا يربكه النهار، يتحلا بالصمت كي لا يفقد تركيزه، مرتديا الوحدة ثوبا له، هاربا من لسعات العيون التي تترصد ظنه وتتبع عناه.. أضحى يعيش في عزلة تامة لا تزيده سوى عقدً على عقد، حيد سلوكه، كأنما الأقدار زرعت فيه كصبير في قفار صبره، أودعته كحظالة مرة تقتل رغباته، عاجز، مشتت الظن، لا يركن سلوكا إلى الخلاص والنبات؛ العضلات بددت تأملاته..

قسى عليه الزمن من لحظة نهوض حظه يوم وجد الكنز، تلك القطعة التي غافلت سراقها لتتبع هواجسه، كأنها ودت أن توضح له الفارق بين مأساة الغنى وسعادة الفقر، توضح له طبيعة الحياة المرة أمام شكل واستقرار الذهن، تبين له أهمية القناعة بالكفاف أمام الغيلان والطموح في تتبع وملاحقة مراكز الرقي على سلم الطمع.. على الرغم من أن تلك المسألة لم تكن من أولويات حياته، لكنها فرضت عليه، فتقمص أدوارها وإشكالاتها وبات يمثل أدوارها..

لحقت به المعوقات والمشاكل كآثار أقدامه في الطرق، التقته مصادفة في مشاويره هنا وهناك، أرغمته على تقبل آثامها ورعونتها عنوة، دون أن ينظر للنتائج والمستقبل... كان من الأجدى به أن يترك بغداد مباشرة بعد عثوره على صرة النقود.. كأنها ودت أن تخبره بأن الحياة تحتاج إلى حركة وثقة بالنفس، وتفكير متجدد لمسيرة الأحداث، كي يستطيع مجاراة عقد الحياة والتغلب عليها.

..كل تلك الأمور شغلته وجردته من التفكير بأخته هدى، كون زوجها صفاء في وجوده ما كان يسمح بذلك لعزة نفسه، وذلك بعد أن تسنم مناصب مرموقة في مواقع الجيش على مدى وظيفته.... فيما باتت تحتضر في فكرها وتتململ من الوضع السائد والفاقة التي التصقت بها بعد فقدانها زوجها، الخنوع لاحقها في بدنها وفكرها ونفسياتها، حيث صَفِرَ جيبها، أضحت تعيش على حافة الهاوية بين لسعة الموت وعسرة الحياة.

خلال تلك الفترة وبعد سرقة دكانه، أعاد قاسم دكانه لسابق عهده ببيع البالات، إلى الكار الذي تعود عليه، الذي أرتزق منه راحة البال خلال سنين القحط والحصار، كان قد وجد فيها النعمة والبركة كما يقال. الكار الذي تعرفه أفضل من الكار الذي لا تعرفه. فمن صبر على رزقه فتح الله له أبواب الفرج والسعد، ومن تنطط فلن يجد غير صرة الفشل تخذه، هذه هي قاعدة الرزق.

كان قد تجرع السم من أقرب أصحابه، ومن العيون الوقحة الدائرة في حلقته؛ التي أحرقت شكل البراءة في أوكارها... جاره سرقة وآخر نكل به، ولا يعلم بطبيعة مصادر الكوارث الأخرى التي حلت به وخاصة مسالة اختطاف محمد وعدم معرفة الجاني الحقيقي في سرقة دكانه، تلك الأحداث جعلته يدور في حلقة مفرغة. صارت شكوكه تطال كل معارفه وأصدقائه، فلا يستثني منهم أحدا.

أما جاسم فإنه أنتشى بمال أخيه، تحسنت اوضاعه، غير من شكله وقوامه أمام نرجس، دهن بلعومه ويديه بزفرة أخيه، بابتزاز أخيه.. ما جعل نرجس تقنع به زوجها لها، تلك الغانية التي تخطط لمآربها.. كما أنه غير من شكل ومنهج عمله، فبدل شقاء الجمالة ودفع عربة النقل ونقل البضائع بين التجار ومرائب السيارات، صار يشتري البضاعة من التجار ويسوّفها في عربته في زاوية من زوايا سوق الشورجة ضمن معمعة تلك الزحمة، بذلك كف ذاته عن مشقة الحمل والجمالة وأذلال النفس بتربعه على كرسي التجارة.

أستغل زاوية من سوق الشورجة، نصب لعربته أعمدة ترفع غطاء من حصير النايلون كمظلة تقئه اشعة الشمس ورشقات المطر - أي بما يسمى في اللهجة الشعبية بـ (الجمبر) أو (الكشك) - يبيع البضاعة بالمفرد للذين يأوون إلى الشورجة بحثا عن المفرد، وبالجملة وبسعر أعلا من المصدر للذين يطلبونها على عجلة، حيث معروف عن سوق الشورجة أنه سوق جملة بشكل عام.

أحب نرجس حبا جما بعد مرادتها، استغلت حبه وولعه بها، صار كالخاتم في أصبعها، المثل يقول (وافق شن طبق)، الأثنان تلاقيا في مصب واحد، همهما الخمر والبذخ والتسلية، أكثر من أن تكون بينهما علاقة حميمية وبناء أسرة. ولكن الأقدار لا تترك أحدا بسرره، لقد سرق أخوه، فسלט الله عليه من يسرقه بارادته، لقد عرفت بأنه خسيس ونذل وحرامي؛ لذا تماشت مع رغباته لتصل غايتها..

شغلته تلك الغانية عن محيطه، كما دأب في عمله الجديد بشكل يومي، لذا وجد صلته بذويه ذاويه، صلة مقطوعة تماما، فلا أحد يسأل عليه ولا هو يسأل على أحد. فليس له ارتباطات تشغله سوى ارتباطه بعلاقة وثيقة مع صديقيه جعفر ورشيد، كان قد قطع صلته بأقربائه بعد وفاة أمه... كما هو يدرك ذاته جيدا، حيث يعد نفسه من

الذين" إذا حضر لا يعد وأن غاب لا يفتقد" قدره بين الناس صنعة الفاقة والظروف المتخللة وسلوكه المخل.

كانت نرجس قد جنحت بنفسها خلف المادة فتركت صغيرتها في بيت والديها ليربهاها، بعد أن أعلمتهم بأنها ستتزوج من رجل غني لا يرغب بوجود طفلتها بينهما. لذا باتت تدفع لهم معونة تربيتها كل شهر، في الوقت الذي به تكون قد تطمأنت عليها في مأمن من مخالب الشر. إضافة لذلك أعطت لذاتها مساحة وحرية أوسع لممارسة البغاء بسرية أكبر مع صديقتها سعاد.

كان جاسم قد وضع مسعاه لجعفر ورشيد بنية زواجه من نرجس، فباركا له سعيه وقراره، وتقديرا للموقف الجديد؛ تركا السكن له ولمؤنسته مع استمرار مراجعته والتسامر معه.... بذلك رجع كل منهما لثكنته الأولى، ولا ضيز من معاونته في تصريف البضائع في محل عمله. بذلك استمرت الصحبة والمراجعة والضيافة الدائمة بينهما. لشدة الألفة التي جمعتهم؛ يكاد أحدهما لا يستغني عن الآخر إلا لظرف طارئ أو لسبب جسيم.

لقساوة الظرفِ وثقلِ خطِّ القدرِ الذي التصقَ بها وخطَّ على كاهلِها على حينِ غفلة، تبدلت اوضاع هدى، صارت تتقدُّ كشعلة غضبٍ في دارها، ناقمةً على الظرفِ المجحفِ وما شاقَّها من عناءٍ بعد مقتل ابنِها وزوجِها على يدِ جنودِ الاحتلال. العاقبةُ التي لحقتُ بها أثقلتْ همومَها وحددتْ مسارَ تفكيرِها، جعلتْ منها بركانَ غيظٍ متوهج، حانقةً على الزمنِ الأهوجِ وعلى جنودِ الاحتلال، وعلى عصاباتِ الميليشيا الرائجةِ في الخفاء، وعلى كلِّ من دَنَسَ تربةَ الوطن.

بقيتْ وفيَّةً لخطِّ زوجِها في مقارعةِ أعداءِ العراق، وظلَّتْ تلكِ الشعلةُ التي أوقدَها في نفسها تضيءُ روحَها وفكرَها بذاتِ المَدِّ الذي سارَ عليه. لم تنسَ تعاونَها واشترَاكَها معه في ربطِ فصائلِ المقاومةِ ببعضِها، حينَ كانتْ تجدُ صعوبةً في التواصلِ مع الفصائلِ الأخرى بسببِ غيابِ شبكةِ اتصالاتٍ تفي بالغرض، ولحداثةِ دخولِ الموبايلِ إلى العراق.

صار الزمنُ يرهقُ ظنَّها، يلاحقُ صفوئَها، يخيفُها، يرعبُها كيبعب مارِدٍ ينتظرُ أن ينتقمَ منها. وجدتْ الأوضاعَ النفسيةَ والماديةَ والفكريةَ تسوءُ يومًا بعد يوم، في ظلِّ غمامةِ احتلالٍ غطتْ على روحها وكَبَتْ فوقَ رأسِها وعلى الوطن. لم تجدْ ما تستندُ عليه لمواجهةِ الظرفِ، في الوقتِ الذي اشتدتْ فيه قسوةُ الوحدةِ التي باتتْ تفترسُ شبابَها وأحشاءَها من الداخل، مثلما جرشتْ فكرَها.

تلكِ القساوةُ جرَدَتْها من ألوانِ الطيف، ضيَّقتْ عليها مصادرَ الرزقِ والتعفف، وجدتْ نفسَها معقوفةً على ذاتِها كصفيحٍ مطعج، أسيرةُ العقد، خاليةُ الوفاض، صفرتْ جعبَتَها تمامًا من الحبِّ والرزقِ

والعاطفة، مكبلةً بسلاسل الوحدة والحزن والكآبة، لا تحتملُ عصف الزمن.

أضحت أسيرة الظنّ والفكر المشتّت، لما عانتُ من نكد الدنيا ونكاية الظرف الذي أرهاقَ مساعيها. لذا، قررتُ هدى أن تنهي حياتها بطريقتها الخاصة.

قرأت المشهدَ وأقرتُ بأنها أصبحت جزءًا من صيغة الحالة الميؤوس منها، وها هي الأوضاعُ المأساويةُ تلاحقُها من الداخل والخارج، تضيقُ عليها الخناقُ يومًا بعد يوم. ومن خلال التجربة، توقعتُ أن سيلَ الأيام القادمة سيكونُ أشدَّ وطيشًا وبطشًا وقسوةً، سيجرفُ ابنَتها من حضنها، سيجعلُها أسيرة العناء والرحمة، أو سيتكفلُ بها أخوها قاسم أو عمّها فريد من بعدها. قررتُ أن تأخذُ بثأر ابنها وزوجها من جنود الأمريكان، الذين دمّروا سعادتها وأسرتها، هم من عاثوا خرابًا في البلد، هم من قلبوا موازينَ الوضع رأسًا على عقب، لم يرحموا عزيزًا ولا فقيرًا في الوطن.

المسائلُ المعقّدة لا تُقاسُ بالمادةِ فحسب، بل بطولٍ وعرضِ الأحداث، تعد معنويًا واجتماعيًا وأمنيًا... فالمحتلُّ لم يُعوضِ الضباطَ المنصبَ ولا رفقَ بالجاه ولا المرتبَ لمن فقدَ جاهه ووظيفته. "الملوكُ إذا دخلوا قريةً أفسدوها" صدق الله العظيم. فكيف بجيشٍ جلُّ أعضائه لصوصٌ وعصاباتٌ مجرمة؟ الدمارُ أصابَ كلَّ القطاعات، أثقلَ كاهلَ الشعب، لا يُوصفُ لجسامته وهولِ وقعه. تلك المأساةُ وُزعتْ كأرزاقِ التموين على الشعبِ المسكين بالتساوي، لذا وجبُ أن تكونَ هناك ردةُ فعلٍ رادعةٌ ضدَّ القتلِ المجرمين.

تلك الأوضاعُ لم تُرهِقْ هدى فحسب، بل قضتْ على كلِّ معطيات الحياة. خسرتُ أعزَّ ما تملكُ في الدنيا: زوجها، وقلدة كبدِها،

ومصدرَ رزقها. آفةُ الفقرِ والذلِّ تبعثُها لذاتها، أكلتْ حَصيفَ فكرها، ختمتْ وجهها بوشاحِ الحزن، أعقَلَتْها بحزمةِ التيه، جرَدَتْها من مشاعرها وأحاسيسِها. هجستْ بالنارِ تجري في عروقها، تلسعُها دونَ هوادة.

في قرارها الداخلي، كانت قنوعةً جدًّا، بأن هذه الحياةَ رغمَ قصرها غدتْ عقيمةً، سوداء، لا تروقُ لها، تجاوزتْ خطَّ الأمان، هجستْ بأن السعادة تبخرت منها نهائياً ولم يبقِ سوى المرحلة السوداء من الحياة. إذاً لا بدَّ من إيقافها. لا بدَّ أن يحينَ موئُها، عاجلاً كان أم آجلاً، بسببِ تقلبِ الأوضاع، سواءً بتتبعِ المجرمين لها، أو بسببِ تعاونها مع المقاومين، أو تنفجر داخلياً بسببِ ما حلَّ بها من قهرٍ وتدميرٍ نفسيٍّ وذهنِيٍّ. حيثُ النميمةُ والوشايةُ تحيِّطُ بها، فلن تستطيع أن تفلتَ من العقاب، لا بدَّ أن تصيبها شرارةٌ من هنا أو من هناك. حتمًا ستحترقُ وتتفحَّمُ حياتُها مهما استكانتْ أو انزوتْ بعيداً عن الأنظار، خاصةً وقد غدتْ بمصابِها معروفةً للجميعِ بفقدانِها زوجها الضابطَ وابنتها المقاوم.

هذا الخيطُ يمكنُ أن يستدلَّ به الواشونَ للنيلِ منها، حتمًا سيصلونَ إليها في وقتٍ ما، ولن يطولَ ذلك الوقت.

بعد دخولِ المحتل، انتمتْ وزوجُها لفصائلِ المقاومة، أو بالأحرى كانت تعملُ كطيرٍ مرساليٍّ بين شُعبِ الفصائل، بسببِ ضعفِ شبكاتِ التواصلِ بين المقاومين، لعدمِ وجودِ خطوطٍ سلكيةٍ ولاسلكيةٍ فعّالةٍ لمراكزِ الهواتفِ التي دُمّرتها الحرب، وبسببِ ندرةِ الهواتفِ المحمولةِ وضعفِ شبكاتِها الجديدة. من خلالِ عملِها، تمكّنتْ من كسبِ ثقةِ المقاومين والتعرّفِ على قادةِ الفصائلِ ومعرفةِ أوكارهم، فهي كانت أهلاً للثقةِ فيما سبق. استمرَّ هذا التعاونُ مدةً عامٍ تقريباً، وها هي تدخلُ في أواخرِ شهرِ شباط من عام 2005.

لم تمنعها الظروف طوال تلك الفترة من اتخاذ قرارٍ شجاعٍ كالانتحار، إلا وضع ابنتها ريم من بعدها. وقد فُكِّرت فيها وفي مصيرها جلياً قبل أن تقرّر نهايةً مسلسل حياتها. وجدت من خلال التحليل أن بقاؤها في الحياة يعني موت ابنتها جوعاً وتشرداً، ولو تركتها بيدِ القدر، حتماً سيعتني بها عمّها أو خالها، واللذان حالتهما المادية أكثرُ استقراراً من حالها. وبذلك ستعيشُ عيشةً كريمةً لا تستطيعُ توفيرها لها لو بقيت أسيرةً جبر أمّها، فهي لا تملكُ من اليقين ذرةً أملٍ في أن تُسعف ابنتها بسعادةٍ أو ب حياةٍ كريمة.

كما أنه، ومن خلال قراءتها للوضع العام والمهيمن على مجريات الأحداث، أدركت أنه إن لم تمت ميتة عز وشرف، فسُتلاحق وتُسحق في دياجير السجون كثائرة. ستطاردها الوشاية، وتنهشها أيدي العصابات العميلة المتعاونة مع قوات المارينز. أما ابنتها، إن بقيت في جبرها، فلن تقاوم الفاقة، وستُصاب حتماً بشتى الأمراض النفسية والمزمنة، عاجلاً أم آجلاً، وستذبل أمام عينيها في ظل انعدام الرعاية الصحية في زنازين السجون.

لذا، وفي خطوة جريئة، قررت في قرارة نفسها أن تأخذ بثأر ابنها وزوجها من جنود الاحتلال الغاشم، علّها تمنح لابنتها فرصة عيش كريمة تحت رعاية عمّها أو خالها، أو أحد الخيرين من أبناء الوطن، وعسى أن تحظى بمستقبل مشرف ومشرق من بعدها.

اتصلت بأبي علي، قائد إحدى مجموعات الفصائل المقاومة، وشرحت له رغبتها في تنفيذ عملية استشهادية. طلبت منه تدريبها على استخدام الحزام الناسف لمدة يومين. وفي اليوم الثالث، احتضنت ابنتها ريم، حتى كادت أن تُدخلها في جوفها، أغدقتها بعاطفة حميمة منقطعة النظير، كادت أن تنثني عزمها لولا شدة المأساة التي أثقلت متنها وفؤادها، وأرقّتها، وحشرتها في زاوية ضيقة من الأمل.

احتارت في اختيار المكان الذي يمكن أن تترك فيه ريم أثناء تنفيذ العملية، فلم تجد فسحة أمان من جارتها أم عائشة. وفي يوم التنفيذ، تمكنت من إقناع ابنتها بالبقاء عند الجارة، وأوهمتها بأنها ذاهبة إلى السوق لشراء بعض الحاجيات، وأنها لن تصطحبها خشية عليها من العاصفة الهائجة خارج المنزل، ومن مفاجات الطريق.

أخذت بيد ريم، تلك الطفلة المطيعة التي اعتادت الإصغاء لكلام أمها، وقادتها إلى دار أم عائشة، وهي تنظر إلى براءتها بعين العاطفة والحنان، بعد أن افقدت والدها وأخيها. قبلتها قبلة طويلة، وترقرق الدمع في محجر عينيها، ثم طرقت باب جارتها وهي تكاد تنهار من الداخل، نتيجة عصف الشوق لحظة الفراق الأخير.

فتحت أم عائشة الباب، وما إن رأت هدى بشحوبها، حتى أصابها اندهاش تام من منظرها الذي فضح هواجسها، وعكس حجم الصراع والتناقضات المدفونة في جوفها، إلى جانب عزيمة وإصرارها. كانت تكاد تصرخ في داخلها من شدة الهم والألم المخزون في أعماقها، تعيش اللحظة الحرجة، تدور في رحاها، تصطلي في جوارحها بين قدحة البرق وهدير الرعد المنفلت منها.

كانت لحظة مشحونة بالخوف، معبأة بالرعب، بالانتقام، محملة بعبء الشجن ولوعة الآهات أمام ظرف جلاد لا يرحم. إنها القمة التي ليس من بعدها قمم، تلك التي تقف عليها الروح شامخة، تنتظر لحظة العدم، تنتظر إلى الفضاء الممتد وكأنه ساحة وغى، تمهد لذاتها طريقاً مستقيماً كخط وصل بين الدنيا والآخرة، حيث تجد في رحابها زوجها وابنها فرحين بها وبقرارها.

قالت لأم عائشة بصوت مرتجف، تخالطه خيفة خفية:

– السلام عليكم...

– وعلیک السلام، خیرًا یا هدی؟ أراكِ لستِ علی ما یرام، تفضلي، ادخلي للدار...

– لا، لا، لیس وقت ضیافة، إن شاء الله بعد عودتي من مشواري سأجلس معكِ. لا تقلقي، إنه مجرد ضيق یعتري صدري باستمرار... حبيبتي أم عائشة، أود ترك ریم عندكِ حتی أعود من السوق. ترين الجو عاصفًا، ولا أريد أن أحتار بها وهي برفقتي، وقد أنشغل بالبضاعة.

– علی الرحب والسعة... تعالی حبيبتي ریم، ادخلي، العبي مع عائشة.

– خذي هذا الرقم، رقم أخي قاسم، لربما یمنعني القدر من العودة. الحياة أصبحت غیر آمنة، وإذا ما تأخرت، اتصلی به. الوضع لا یسر، والناس باتت تخاف من المفاجآت المدفونة فی الطرُق.

– لا تقولي ذلك، إن شاء الله تعودین بالسلامة. أدعي الله ألا یصیبك مکروه، یکفي ما أصابكِ. اقرئي آية الكرسي، تحفظكِ من شر الأشرار.

– شكرًا لكِ، الأوضاع مقلقة، والحذر واجب...

ثم أخذت جارتها بالأحضان، وودعتها والدمع یتترقرق فی محجریها.

– مع السلامة...

– مع السلامة، قالت لها ریم:

– ماما، لا تتأخري...

– لا، ماما لن تتأخر، كوني عاقلة، ولا تزعجي عائشة، لا تعلمي فوضى
أو مشكلة، سأعود حال إنجاز شغلي.

– صار، ماما...

خرجت من البيت في يوم عاصفٍ هفيفٍ، يتخلله رذاذ مطر ينبئ
بيوم غير عادي. خرجت وهي في قمة عزمها، لكن بقي صوت
ريم عالًّا كأقراط في أذنيها، ذلك الصوت النغام جلل صوان
أذنيها بإيقاعه.

كانت لقرعة القوارير وصفير الريح المجتمع في ذلك المكان رهبة
في النفس، حيث لم يهدأ ضجيجها طوال الليل، إلى جانب الشجر
المجنّة بحفيفها. ارتجاج درف النوافذ وصك مصاريع الأبواب كان
له وقع على النفس كأنها في زفة عرس، صرّت وزمجرت وهي
تمازح عبث الريح ووقع صخبه، لتزيد طقطقة الرعب في القلوب
الضعيفة، ولتشد من عزم هدى تجاه هدفها.

شمسٌ ناحلةٌ تتدحرج في الأفق، منزويةٌ خلف غيومٍ سوداءٍ عابرة،
خجلةٌ من إطلالة هدى وعزمها، تكاد لا تُرى إلا وهي مغشاةٌ بمظلةٍ
السحب الكامنة، مجترّةٌ وقع ذلك اليوم الأخير من حياة هدى، كأنها
تعزُّ عليها ألا تراها ثانيةً، فتتكبُّ حزينّةٌ خلف هالات الغمام... لا
يزال الوقتُ مبكرًا في ذلك الصباح الأخير من شهر شباط، والرياحُ
الشتويةُ المقلقةُ تصفرُّ في أبواق النفير، معلنةٌ حالة الوجل العام ليومٍ
ملبّدٍ بالمفاجآت. الأشجارُ توافقُ الريحَ في عزف حفيفها، تنذرُ
العصافيرَ والطيورَ التي لم نعد نسمع لها زقزقةً ولا هديلًا في ظلّ
طقسٍ قمطريّ، محتبسٍ، عبوسٍ.

كأنّ الطيورَ قد تهيأت هي الأخرى لتنزوي خلف المدى، مرعوبةٌ
من مواجهة غلّ شتاءٍ أجوف، قانطةٌ في أعشاشها الهشة، لا يُشعرُ
بوجودها، ولا تُرى ترفرف في سماءٍ بغداد كما اعتادت. كأنها

هجرت المكان والزمان إلى أماكن أكثر أمناً وسحراً وهدوءاً،
تبحث عن السكون الذي ظلّ طريقها في متاهات دروب الاحتلال.

هكذا شعرت هي الأخرى بتغيّر الأجواء من حولها، فلم تعد تروق
لها الفوضى والأمكنة القديمة، بعد أن خلخل أجواءها وهز
حصونها عصف البنادق والمدافع المغتظة التي حطّت على بغداد،
وبالذات في ذلك الحيّ المشبوه المسمّى بالأعظمية، إحدى بؤر
المقاومة السنية الشرسة في بغداد، حيث تحولت أزقتها إلى كور نار
مشتعلة، لبراكين غضب عنيف تلفظ حممها في وجه الغاصب
المحتل.

شعرت بالزمن المعلول يعاكس سراطها، يسرّج شعرها الأصهب
بأسنان مشاط الخوف، يلبسها جلباباً أبيض لزقتها الأخيرة. الوجوه
من حولها معقّرة بالألم، كلّ غارق في همّه، وهي غارقة في همّها،
ونجاح عزمها، وثأرها القادم. الناس منشغلة بظلف العيش وأمور
الدنيا، تركض خلف هاجس تدبير الرزق اليوميّ في تلك
الصباحات الرتيبة، المتكرّرة، بعيداً عن همجية القدر، متمنّية عودة
الأمان من رحلته الطويلة. كلّ صباح تخرج من البيت ولا تضمن
عودتها سالمة، معتمدة في سعيها على إيمانها بالقدر والنصيب.

رجل مسنّ يدفع عربةً تحتوي على بضعة أنواع من الخضار
والطماطم وكيس بادنجان وقليل من خضرة الكرّفس والرشاد
والفجل والبصل. آخر يحمل على ظهره كيساً من الخيار، يبدو ثقيلاً
على عمره الخمسينيّ وجسده النحيل، ولا بدّيل آخر يقنعه. أولاد
بعمر الزهور، على قلوبهم، يلعبون في جانب من الزقاق قرب
بيوتاتهم. الناس بشكل عامّ زائغة في جحورها، مغشاة بجلد
الخوف، محتارة بين تجنّب الرعب ورتابة تدبير لقمة العيش. وجوه
بائسة، تهجس ببقاعة طافحة عليها، مفتقدة نضارتها، أشياء مبهمّة
غير ملموسة تكمل إدراكها. الكلّ يستفسر، يبحث عن سمة مفقودة

بين سلوكيات البشر، جرّاء غلّ فوضى الاحتلال الذي جاش بين الناس، ملتزمة جامّ حقه وكراهيته وغضبه. نفوس متذرّعة تبحث عن الكرامة والأمان بين أقدام المحتلّ المشبعة بالمسامير الخادشة، كأنهم تعودوا على تحمّل جهم اليأس بسبب الكبت الذي مُرس ضدّهم من قبل السلطات الأنفة فيما سبق. باتت تشعرُ باليوم التالي القادم؛ سيكون أسوأ من سابقه، هكذا ظلّ يعاني الشعب وهو يتنفّس الصبر المرّ عبر العقود والحقب دون علاج.

بعض الدكاكين بدأت تفتح أبوابها لترزق، أكياس النايلون الملونة متطايرة في الأفق هنا وهناك، وكأنّ اليومَ مهرجان فرح ستشرع بطقوسه هدى. ستشرع الاحتفالات من موقع جنود المارينز، ليكونوا هم أوّل من يبتهج باليوم الجديد على طريقة هدى. سيكون مهرجان نصرٍ وزهو حين تأخذ بثأر حبيبها وفلذة كبدها، يجب ألا تذهب دماؤهم سدى.

خرّت الطرّق بيقين وهي تحفّ الخطوات خلف مصيرها المجهول، كلّها أملٌ أن تلحق ذاتها بركب عزيزيها، تراه في مخيلتها يسايرونها جنباً إلى جنب، يوازيرونها، يحتوئها على المضىّ قدماً، يشجّعنها على المبادرة والوصول إلى الحياة الجديدة الأجمّل والأوسع ملاذاً ممّا تملك. تهجسُ بهما ينتظرانها خلف حاجز الذاكرة، لا يفصلها عنهما سوى برزخ ضبابي يغشي عينيها، عليها أن تقتحمه بعزم لتلتقي بهما، إنّها الجنّة التي تشتاق.

القلب مطمئنّ، القرار صائبٌ من وجهة نظرها، لم تعد تملك قيد شكّ في ذلك، لم تعد تنظر إلى الدنيا وما يدعوها أن تعيش لأجله. ثمّ إنّ الجهاد ضدّ المحتلّ فرضٌ وواجبٌ وسنةٌ لا بدّ منه، وهو من مسلمات المسلم المذكورة في القرآن الكريم: {وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ} - الحج 78، صدق الله العظيم. وكما قال تعالى: (الَّذِينَ

آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَغْظَمَ
دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ) - صدق الله العظيم.

إذاً، فهو شرع الله في الأرض، ليعزز الإنسان كرامته، ويطرد
المحتل، ويرفع راية "الله أكبر" خفاقة في السماء. هذا يعني أنها
سترافق زوجها وابنها إلى رياض الفردوس، حيث لا ظلم ولا قهر،
بل طمأنينة وسكينة أبدية.

كانت تقرأ الآيات بصوت خافت، يختلط بنبض قلبها، وهي تجتاز
الشوارع متجهة نحو نقطة عبور قريبة من جسر الأئمة، حيث
يتجمع جنود المارينز الأمريكيين، في موقع استراتيجي يربط بين
الأعظمية والكاظمية، ليسهل عليهم السيطرة على المدينتين
والمنطقة بأسرها. جسر الأئمة، ذلك المعبر الرئيسي الذي يصل
ضفتي بغداد، الكرخ والرصافة، صار الآن بوابة عبورها إلى
مصيرها المحتوم.

في تلك اللحظة، لم تعد ترى شيئاً أمامها سوى هالة سوداء ترشدها
إلى مكان التنفيذ. إنها اللحظات الأخيرة من حياتها، وذهنها منصبٌ
نحو الهدف القريب، البائن أمامها، ذلك الذي صار لها كشارع
الموكب لترتقي تاج القمة، بات شراع مركبها يلوح في الأفق.
عينها مبيضتان، لا ترى فيهما سوى طريق مستقيم، معبّد إلى قبة
الهدف. سيقانها مبرجتان على تناسق الحركة، تتحركان كآلة
ميكانيكية، تتسابقان الخطوة بترنيمية ثابتة، لا تشعرها بالكلل أو
الملل، ولا بالجهد المبذول، كأنها مغدّاة بشحنة طاقة إيجابية من
الإصرار والتحدي.

كانت ممسكة بقرارها بيدها وبقلبها المعلق بأبنتها بيد، يكاد الخوف
يرتعد منها، لا يردعها رادع عن تنفيذ خطتها. حاضرة بكامل

كيانها، بعزم لا يلين، كجبلٍ أشمّ لا تهزه ريح، ولا تقلت من عضده العواصف.

في طريقها، اقتنتت من بقالة ثلاثة كيلو غرامات من البرتقال، عبّأتها في كيس شفاف، ومضت خلف سعيها الذي يسبقها بخطوات عديدة. اقتربت من حدود خط النار، حينها تراءى لها الهدف عن بعد، أشبه بتفاحة ترنو إلى قضمها قبل أن تتدحرج في منحدر الفشل. وضعت يدها اليسرى على زناد الحزام الناسف تحت عباءتها، بينما تحمل باليمنى كيس البرتقال، متجهة بشكل مباشر ومستقيم نحو أقرب سيارة همر جاثمة في زاوية مدخل الجسر.

ما إن رآها جندي المارينز حتى صرخ بها بصوت زعيق أجش، مصوّباً سلاحه نحوها:

!Stop –

تحجّرت في مكانها، رفعت حاجبها كإشارة ودّ منها، وأطلقت ابتسامة شفافة مشرقة طفحت على ثغرها الجذاب. بان وجهها الجميل مشرقاً بنوره، كالبدرد في ليلة الزبرقان. كان ذلك النور كاشفاً لبراءتها، ومثيراً لغبار الرغبة المكبوتة في نفوسهم الجانحة، أولئك الذين غطى الظلام الجنسي على أيامهم، وأثار غيرة الشهوة في يومهم الكالح. فمنذ أن وطأت أقدامهم أرض العراق، وهم في حالة صيام تام عن الرفث والفسوق، يلهثون خلف أي ومضة أنثوية تذكرهم بما فقدوه.

حينها، تركت كيس البرتقال على الأرض، ثم دارت وجهها عائدة أدراجها، ممسكة بمسار عودتها، كأنها تراجع خطواتها الأخيرة في الحياة، أو كأنها تمنحهم فرصة أخيرة لفهم ما لم يفهم.

نادى عليها ذات الجندي مرة أخرى...

Stop. come back -

رجعت إليهم بخطوات بطيئة، والغبطة أغشت قلبها بنسيم الفرح. كانت قد غرست تلك الغبطة بابتسامة مشرقة، ما دعا الجندي إلى استيقافها؛ شكه وارتعاده من المفاجأة، وما دعاه إلى العدول عن قراره، غريزته الجنسية وتلك الابتسامة الشفافة التي لسعته بها، وما أراح شكه تركها لكيس البرتقال في محل وقوفها... ذلك ما عدل من وجهة نظره للموقف. استلذ بإشرقة وجهها ولطافة ابتسامتها، فطلب منها العدول والعودة إليهم.

في الوهلة الأولى، كانت ترتعب من الغدر، وكانوا هم يرتعبون من الغدر، كلُّ هوى فكره نحو غدر الآخر. بعد أن وجدوا أنها تركت لهم كيس البرتقال، توقعوا منها حسن نية، وبعد أن تراجع في قراره، طلب ودها والعودة إليه. حينها توقعت منه خسة ونذالة ونزوة غريزية أرهقت مشاعره. كانت قد استعدت لذلك بعطرها ومكياجها وإشرقة وجهها... الفراسة حاضرة، ومن خلالها قرأت المشهد، قدّرت شكل الغاية المدفونة في جعبهم، ولون مآربهم الخاوية.

كانت للابتسامة دور في كشط هالة الشك عن الأذهان، كان لها وقع قدحة زناد الغريزة في حطب الفؤاد، أوقدت ذبالة خستهم، فباتوا يتأملون لظى نور وجهها المشرق. أضحت الابتسامة إشارة ود ورضا، كلغم بعثرته في أحضانهم، وهي تدرك جيداً أن المتواجدين هم من فئة الشباب، ممن يعشقون النساء والخمر والجنس واللهو، كما أنهم متعطشون فعلاً لذوات الجنس اللطيف، لترويح الذات بعد فترة صيام جزلت قواهم وشغلت تفكيرهم في عملهم المكلفين به.

إنها بكيانها فرصة مواتية أتاحت لهم، أتت براحل قدميها تبحث عنهم دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عنها. هم يدركون جيداً

أنهم لا يستطيعون المجازفة في ممارسة البغاء أو البحث عن الجنس في دوامة الخوف التي باتت تحيط بهم وتلاحقهم في أوكارهم، حيث الأماكن كلها ملغمة.

كيس البرتقال طمأنهم، والغمزة حرّكت هواجسهم، والوجه المشرق أغراهم وحرث أفكارهم وحرك عواطفهم، وكأنها دعتهم للتراخي والتأني والعدول إلى ملاطفتها. وقد انصب تفكيرهم إلى إتمام جريمة خستهم داخل عجلة الهمر المتهيئة لمجموعة من الجنود، أو جرّها إلى نقطة استقرار فصيلهم التي لا تبعد كثيرًا عن موقع حراستهم.

أقبلت عليهم بوجه باسم، ضاحك، منشرح، لتقابل به ربها وزوجها وابنها. عندها أدركت غايتها، ها هي تقترب من تحقيق مأربها، ما هي سوى ثوانٍ معدودة والأمر سينتهي، ستصبح في عداد خبر كان، بعدها لن تشعر سوى بصفاء الضمير.

ما أن وصلت على بعد خطوة قريبة من المجموعة، وهي ترى بسمه فرح طرأت في وجوههم بعد أن تجمعوا حولها خمسة شبان لاستقبالها، في الوقت الذي طرأ على وجهها ابتسامة شفافة بنجاح مهمتها؛ حتى تلاقت الابتسامات على وقع تفجير عاصف شرشر أجسادهم إلى أشلاء متناثرة، تحولت مع العصف إلى نثار غطّى مساحة الحدث، اختلطت الدماء الزكية بالفاسدة، في بقعة ارتفعت بها النار بعد أن جرفت عجلة الهمر بما فيها إلى واقعها.

كانوا أربعة جنود وسائقهم، أصبحوا في لحظة العصف إلى ركام، تطايروا في أرجاء الكون كغبار متناثر، ذرتهم على بقعة واسعة شذر مذر، تقطعت أشلاؤهم لأرب في أرجاء المعمورة، تبخروا مع دخان العصف بلحظة واحدة، لم يُترك في المكان سوى أثر العصف والنار المضرمة بالعجلة، والدخان تسلق عنان السماء

ليشهد على انتهاء المهمة. كل شيء تفحّم بلحظة العصف، تهتك، لم يُعثر من بقاياهم سوى على نثار عباؤها السوداء.

أخيراً، استقر ضميرها، جنحت بنفسها لوهدة الانتقام، ثارت لابنها وزوجها، ذهبت شهيدة مطمئنة إلى مصيرها الأخير. {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} - آل عمران 169. صدق الله العظيم.

أما أم عائشة، فقد بقيت تنتظر عودتها حتى ساعة الأصيل دون أن تعود. لم تجد لها خبراً يطمئنها، لكن خبر التفجير سمع به القاضي والداني في الأعظمية، تناقلته الأنباء بسرعة البرق: تفجير عجلة همر ومقتل عدد من جنود المارينز.

لم تجد مناصاً من أن تتصل بقاسم. كان قاسم قد سمع بالخبر عن طريق مكالمة مجهولة في تمام العاشرة صباحاً، مع ساعة الانفجار. كان وقع الخبر عليه كالصاعقة، جعله يدور في دوامة حيرته، وكان الخبر مختصراً جداً في عنوانه ومفاده:

{مبروك شهادة أختك هدى}

الصدمة هزّته، أيقظته من غفلته. كيف استشهدت؟ أين تركت ابنتها ريم؟ الخبر يقول "مبروك"، فمن اتصل به؟ إذاً في الخبر تكمن أسرار. ربما لم تُقتل مطلقاً، بل قامت بعملية استشهادية خالصة، ربما ثارت لابنها وزوجها. كيف يتحرّى عن الخبر؟ كيف يذهب للمنطقة ويسأل عن أخبارها؟ ربما بيتها مراقب من قبل الأمريكان، بذلك سيعرض نفسه للمساءلة والملاحقة والسجن.

بقي أسير نفسه، ينتظر الفرج وهو يتابع الأخبار عبر المذياع. لم يستطع أن ييوح بالخبر، كتمه عن زوجته، خشية أن تثار برودة فعل تقضح نفسها وتقضحه. صار يكلم نفسه وهو في ذهول تام: دعني

أهيئ فرصة لذلك. لا يستطيع أن يسأل عنها في منطقة سكنها، لا يستطيع أن يسأل عنها من جيرانها، الخوف من المجهول والحذر باتا واجبين، بل صار لزاماً عليه أن يتخفى عن الأنظار، أن يتخفى بالحذر، أن يبتعد عن الناس.

وفي تمام الساعة السادسة من مساء ذلك اليوم، كلمته أم عائشة، أخبرته عن تأخر هدى، قائلة له:

– أخ قاسم، السلام عليكم. أختك هدى ذهبت للسوق وتركت ابنتها ريم عندي، وهي منذ الصباح الباكر وحتى هذه الساعة لم تعد. وقد أخبرتني أنه إذا ما أعاقها قدر أو تأخرت لسبب ما، أتصل بك وأخبرك. الوضع غير مطمئن وقلبي يخفق عليها. نسيت أن أخبرك، أنا جارتها أم عائشة.

– شكرًا لك يا أم عائشة. هي... هي في المشفى. حبذا لو استطعت أن تجلبي ريم معك غداً صباحاً إلى مشفى النعمان، لقد تعرضت لحادث مؤسف وهي في غيبوبة. سأنتظرك عند باب المشفى في العاشرة صباحاً.

– لا إله إلا الله، وكيف حالها الآن؟

لم يستطع أن يذكر لها الحقيقة، فلحيطان آذان كما يقول المثل.

– كما قلت لك، هي في غيبوبة، فاقدة الوعي.

صارت تدعو الله بشفائها، وهي تقول:

– هذه المرأة المسكينة، كأنها ملاك طاهر، كأنها كانت تعلم علم الغيب المسبق بمصيرها.

وفي صباح اليوم التالي، انتظرها قاسم عند باب المشفى في سيارته. لم تتأخر عليه أم عائشة، حيث تعرف عليها من خلال ريم، ابنة هدى. حينئذ ناداها باسم الدلع:

— ريمه، ريمه...

التفتت إليه ريم:

— عمه، عمه، هذا خالو قاسم.

فتح باب سيارته وأجلس ريم في داخلها، ثم تحدث مع أم عائشة التي يلتقيها أول مرة قائلاً لها:.....

- السلام عليكم. شكرا لوفائك وإيصالك ريم لهذا.
- أخبرني عن هدى كيف هي الآن، وهل أستطع زيارتها؟
- لا لا - لن تستطيعي رؤيتها، أرجوا منك أن تمسكي أعصابك وتخفصي من صوتك، كي لا يشك بنا الأمريكان والجواسيس الذين يراقبون الناس، والذين يشمون الأخبار عن بعد، فكلابهم البوليسية منتشرة في كل مكان. هدى تشكرك وتبلغ السلام، أرجوا أن تكوني صبورة على وفاءك اتجاهها، لأنك لن تتمكني من رؤيتها مرة أخرى، لقت انتقلت لجوار ربها...
- لا لا تقول ذلك.. نزلت دمعة من عينيها.
- يوم أمس هي من فجرت نفسها في مجموعة من جنود الأمريكان، هي من أوقعت بهم خمسة قتلى وأحرقت عجلة الهمر. أرجوك لا تتصلي بي مرة أخرى، لا تتكلمي بالموضوع نهائياً، فلوا عرفوا بأن ريم كانت مختبئة في داركم أو شموأ خبراً من هذا القبيل، سيشمك الاتهام، سيسجنونك، أي اشاعة تطلق ستجرك لمعترك السين الجيم، ربما سينتقمون منك ومن زوجك وأولادك! أرجوك أكتم

السر وأدعي لها بالجنة، هي الآن بأمس الحاجة للدعاء، لقد حددت مصيرها واتخذت قرارها.

- حاضر أخي، أنك فاجأتني بالخبر (صارت تعيد شريط الأمس وما دار بينها وبين هدى)، كانت فرحة مبتهجة، مسحة من الحمرة الشفيفة تغطي وجنتيها وشفتيها، استغربت من سلوكها، كانت جميلة، أرادت أن تقابل ربها بأحسن وجه، الله يرحمها. لا تهتم هي أختي وعزيزة عليّ، فهي جارتني منذ خمسة عشرة سنة.

مسحت بأتراف كفيها دمة انحدرت على خدها الناصع البياض، وكأنها قطرات ندى انحدرت على نضارة ورق شجر غض، حينها ودعته والحزن يكاد يتقطر من صحن وجهها، وفي صدرها حشيرة أهات محصورة تكاد أن تخرق جدار الصمت المغشي بالحزن لولا مخافة الفضيحة.

الفصل الخامس

لَمْ يَكُنْ جَاسِمٌ يَعْلَمُ بِكُلِّ مَا أَحِيطَ بِهِ أَخُوهُ قَاسِمٌ مِنْ عِبَاءٍ وَزَنْقَةٍ
وَمُطَبَّاتٍ أَرْعَبَتْهُ، أَرْدَمَتْ حُلْمَهُ، قَوَّضَتْ صَبْرَهُ. ذَلِكَ الْمُنْسِي لَمْ
يَعْلَمْ حَتَّى بِاسْتِشْهَادِ أُخْتِهِ هُدَى، وَلَمْ يُخْبِرْهُ قَاسِمٌ بِذَلِكَ خَوْفًا مِنْ أَنْ
يُفْشِيَ سِرَّهَا لِزَمَلَائِهِ بِهِدْيَانٍ يَجْرُهُ بِهَا لِعُقْدٍ جَدِيدَةٍ هُوَ فِي غَنَى عَنْهَا.

فِي الْحَقِيقَةِ، هُنَاكَ بَوْنٌ شَاسِعٌ بَيْنَ الْأَخَوَيْنِ كَانَ قَدْ فَرَضَهُ جَاسِمٌ
عَلَى أُخِيهِ قَاسِمٍ دُونَ قَصْدٍ مِنْهُ، سُلُوكُهُ الْعَبَثِيُّ الْمُشِينُ غَيْرُ
الْمَسْئُولِ وَعَدَمُ التَّزَامِهِ وَاخْتِرَامِهِ لِلْقِيَمِ بِشَكْلِ عَادٍ؛ جَعَلَ قَاسِمًا
يَضَعُ جَاسِمٌ فِي إِطَارٍ خَاصٍّ خَارِجٍ فِكْرِهِ، ضِمْنَ دَائِرَةِ الْقَتْلِ. فِي
كُلِّ مَا مَضَى لَمْ يَنْتَبِهْ إِلَى سُلُوكِ جَاسِمِ الْعُدَوَانِيِّ، إِنَّمَا انْتَبَهَ عَلَى
غَبَائِهِ الْعَبَثِيِّ الْعَشَوَائِيِّ.

كُلُّ مِنْهُمَا عَاشَ فِي عَالَمٍ مُنْفَصِلٍ عَنِ الثَّانِي، كُلُّ لَهُ أَهْوَاؤُهُ وَتَهَيُّوَاتُهُ
الْمُخْتَلَفَةُ عَنْ شَفِيقِهِ، هَذَا غَارِقٌ فِي فِتْنِ نَرْجِسٍ، مَهْوُوسٌ بِعِيقِهَا
وَطَرَاوَةِ جَسَدِهَا وَحُلْمِ السَّعَادَةِ، وَذَلِكَ مَرْتَعٌ بِالْعُقْدِ الدَّائِرَةِ حَوْلَهُ...

وَبَيْنَمَا نَرْجِسٌ كَانَتْ كَبَعُوضَةٍ الْأَنْوْفِلِسُ بِالنِّسْبَةِ لِجَاسِمٍ، تَمْتَصُّ دَمَهُ
دُونَ أَنْ يُدْرِكَ الْهُوَّةَ الَّتِي سَقَطَ فِيهَا. دُونَ أَنْ يَشْعُرَ بِنُوعٍ وَعُمُقٍ
الْكَارِثَةِ الَّتِي أَحَاطَتْ بِهِ وَقَرَحَتْ قَدَمَيْهِ بِسَوَادٍ مُلْحِ الدُّنْيَا، دُونَ أَنْ
يَشْعُرَ بِسَعَادَةٍ تُحَرِّكُ مِيَاهَ صَبْرِهِ. كُلُّ ذَلِكَ نَتِيجَةُ الْجُرْمَانِ الَّذِي
عَاشَهُ.

صَاحِبٌ أَنَّهُ هَشٌّ وَفَارِعٌ وَابْنُ هَوَى، لَكِنَّهُ فِي الْآخِرِ هُوَ إِنْسَانٌ،
يَحْمِلُ فِي ثَنَائِيهِ أَخْلَامًا وَزُرْدِيَّةً وَمَشَاعِرَ جَيَّاشَةً، وَدَّ أَنْ يَعِيشَ فِي
ظِلَالِهَا كَبَاقِي الْبَشَرِ، وَدَّ أَنْ تَكُونَ لَهُ أُسْرَةٌ وَكِيَانٌ خَاصٌّ بِهِ، يُدَافِعُ
عَنْهَا وَيَتَعَلَّى بِهَا. وَضَعُ يَتَحَسَّسُهُ، يَشْعُرُ بِوُجُودِهِ كَطَرْفٍ فَعَالٍ فِي

الْمُجْتَمَعِ، كَحَقِيقَةِ تَحْتَمِلِ الْأَضْوَاءَ، وَلَيْسَ كَظِلِّ زَائِلٍ مَعَ غُرُوبِ الشَّمْسِ.

مَا كَانَ يَنْقُصُهُ وَأَثَرَ فِيهِ؛ هُوَ بِنُرِّ الْحَرَمَانِ الَّذِي شَرِبَ مِنْهُ وَمِنْ ثَمَّ سَقَطَ فِيهِ كَحَجَرٍ صَوَّانٍ، لَمْ يَرْتَوْ مِنْ شَفْعِهِ، لَمْ يَرْتَشِفْ سِوَى غُرْفَةٍ أَوْ غُرْفَتَيْنِ وَبَيْنَ الْأَحْيَاءِ... ذَلِكَ الَّذِي سَعَى خَلْفَهُ لَمْ يَكُنْ شَهِدًا؛ إِنَّمَا دَبِقَ الشَّهْوَةَ، تِلْكَ الَّتِي ظَلَّ يَلْعَقُ بِهَا وَيَتْبَعُ أَثَرَهَا حَتَّى أَتَهَكَتْ جَبِيئُهُ، فَصَارَ السُّمُّ يَجْرِي بِدَمِهِ، يَغُزُّ فُؤَادَهُ.

بَقِيَتْ غَوَائِثُهُ تَنْحَدِرُ بِهِ نَحْوَ الدَّرَكِ كَكَابُوسٍ مُزْعِجٍ يُورِّقُ ذَاتَهُ وَيَعْصِبُ عَيْنَيْهِ، مُتَّبِعًا أَنْفَاسَهُ الْعَطْشَى، جَانِحًا خَلْفَ مَلَذَاتِ الْهَوَى بِذَاتِ الْإِرَادَةِ وَالْهَلُوسَةِ. مُتَحَمِّلًا نَزْفَ صَبْرِهِ الْمُرَاقِ فِي سِرِّهِ، وَالَّذِي لَا يُعِينُهُ عَلَى الْجَلْدِ، سِوَى أَنْ يُلَامِسَ جَسَدَهُ ضَوْءُ أَنْتَى فَاتِنَةٍ، كَفَيْضِ نَرْجِسٍ أَوْ سَعَادَةٍ.

أَضْحَى بِكِيَانِهِ لَوْحَةً عَبَثِيَّةً غَيْرَ مُتَجَانِسَةٍ، خَلِيطَ وَهْمٍ وَشَبَقٍ وَنَزْفٍ وَرَجَاءٍ وَإِغْوَاءٍ وَعَنَاءٍ، كُلُّهَا تَصُبُّ فِي كَأْسِ نَرْجِسٍ... لِذَا تَجِدُهُ مَهْزُورًا بِوَاقِعِ ذَاتٍ، مَهْزُومٍ فِي دَاخِلِ نَفْسِهِ، مَزْكُومٍ بِرَائِحَةِ انْتَى، مُحْزُوزٍ بِمِفَاتِنِهَا، كَقَطِّ يَتَحَايِلِ الْفُرْصِ مُشْبِقٍ بِهَا حَدَّ الْعَنَاءِ، قَنَعَ بِحَجَرِ لُطْفِهَا، قَانَطَ بَيْنَ لَتَعَةِ الشَّوْقِ وَجَمُوحِ الرَّغْبَةِ، شَغُوفٍ بِأُنُوثَتِهَا وَجَادِبِيَّتِهَا، ضَالَعٍ بِحُسْنِهَا، تَائِهٍ فِي فَلَائِهَا.

بِذَا خَرَّتْ صَنَائِبُ جُودِهِ وَكَرَمِهِ عَلَيْهَا كَسَائِلُ عَطْفٍ، حُبٍّ، وَمَادَّةٍ، وَرَغْبَةٍ، وَثَنَاءٍ، وَاشْتِيَاقٍ، أَرْتَمَى فِي حَضَانَتِهَا كَطِفْلٍ أَرْعَنَ، انْحَدَرَ لِشَوَاطِئِ بَحْرِهَا الطَّامِي دُونَ يَقِينٍ، كَقَارِبٍ يَخُوقُ فِي مَوْجِهَا الْعَالِي...

جَذَبَتْهُ الْمَفَاتِنُ فَعَرَقَ فِي سِحْرِ عَيْنَيْهَا الْمُسْتَفْجِلِ، صَاعٍ فِي قَامَةِ الْجَسَدِ الْبُضِّ، بَلْ إِنَّهُ دَفَنَ قَامَتَهُ وَشَخْصِيَّتَهُ وَمَالَهُ بَيْنَ سَلِيطٍ فَخَذَيْهَا،

كَيْلًا تَمَلُّهُ، كَيْلًا تَهْجُرَ مُعَاشَرَتَهُ، كَيْ تَبْقَى سَلِيلَةً صَبْرِهِ وَصَمْتِهِ
وَ عِصْمَتِهِ وَوَلَّهِ...

كَانَتْ الْمَادَّةُ الَّتِي يُبَذِّرُهَا عَلَيْهَا تَزِيدُ مُدَاهَنَتَهَا لَهُ، تُجْعَلُهُ يَشْعُرُ بِذَاتِهِ
سُلْطَانُ زَمَانِهِ عَبْرَ لَحْظَاتِ الشُّوقِ الْعَابِرَةِ. تُلْسَعُهُ، تُغْزُهُ، تَتَلَوَّى بَيْنَ
يَدَيْهِ كَأَفْعَى نَاقِمَةٍ، تَسِمُ بَدَنَهُ بِأَنُوتَيْهَا، تَمْتَصُّ دَمَهُ، تُرَاوِعُهُ، تُورِّقُهُ،
تُغَارِلُهُ، تُسْتَبِيحُ صَبْرَهُ وَأَحْلَامَهُ؛ حَتَّى يَسْتَسْلِمَ لَهَا بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ
جَبْرُوتٍ وَبَاسٍ وَسُلْطَانٍ، فَيَشْكُمُ أَنْفَاسَهَا بِمَخْرُونٍ جَبِيهِه...

تِلْكَ الْحَالَةُ بِذَاتِهَا نَقْلَتُهُ مِنْ وَاقِعِ النَّبِيهِ لَوَاقِعِ الضَّيَاعِ وَالنَّشْوَةِ
وَالْعَرِيْزَةِ، أَنْسَ بِهَا، تَشَبَّثَ بِهَا، أَنْسَتْهُ مَشَاكِلَ حَيَاتِهِ، ضَعَنَ
لِمُتَطَلِّبَاتِهَا وَرَغَبَاتِهَا كَمَا تَشَاءُ...

خِلَالَ صَوْمِهِ السَّابِقِ لَمْ يَتَذَوَّقِ اللَّحْمَ الْمُقَدَّدَ أَبَدًا، لَمْ يَذْهَبْ بُلْعُومَهُ
بِالسَّمَنِ الْغَرِيْزِيِّ الْحَيَوَانِيِّ. لَمْ يَسْتَنْشِقْ عَبَقَ النَّشْوَةِ وَالشَّهْوَةِ، لَمْ
يُصَاحِبْ مَثِيلَةَ لَهَا؛ لِذَا أَغْدَقَ عَلَيْهَا كُلَّ مَا يَمْلِكُ، فَلَمْ يَهْتَمَّ لِنَزْفِ
النُّفُودِ الْمُرَاقَةِ فِي حَجَرِهَا وَعَلَى جُحْرِهَا؛ فَتِلْكَ الْمَبَالِغُ الَّتِي حَصَلَ
عَلَيْهَا عَنْ طَرِيقِ ابْتِرَازِ أَخِيهِ لَمْ يَشُقَّ بِهَا، لَمْ يَسْتَشْعِرْ بِقِيَمَتِهَا، لَمْ
يُبْذِلْ جُهْدًا جَهِيْدًا فِي تَجْمِيْعِهَا.

لِذَا بَاتَ يُسَخِّرُهَا بِسَخَاءٍ أَمَامَ رَغَبَاتِهِ وَرَغَبَاتِهَا، وَبِالنَّالِيِّ صَارَ
يُخْسِرُهَا بِسُرْعَةٍ دُونَ مُبَرَّرٍ وَدُونَ مَرْدُودٍ، مُقَابِلَ أَنْ يَضْمَنَ بَقَاءَ
فَاتِنَتِهِ تَعِيشُ بِقُرْبِهِ، رَغْبَةً بِأَنْ يُلْتَمَسَ قَنَاعَةٌ ضَافِرُ الْعَدِ وَهُوَ
مَطْرُوحٌ بِحَجَرِهَا.

لَقَدْ عَاشَ فَنَرَتَهُ دُونَ تَقْيِيمٍ وَدُونَ حِسَابٍ، فَلَمْ يُنْتَمِمْ دَوْرَتَهُ الْفَصْلِيَّةَ أَوْ
الْمَرْحَلِيَّةَ إِلَّا وَجُدْرَانُ خَزِينَتِهِ قَدْ وُشِلَتْ مِنَ التَّعِيمِ، إِلَّا وَقَدْ فَرَّغَتْ
جُعبُهُ تَمَامًا مِنْ مَخْرُونِهَا، طَوَيْتْ صَفَحَاتِ الْوَلَامِ...

فَلَمْ يُتَمِّمْ سِوَى بُضْعَةٍ أَشْهَرَ مِنْ زَوَاجِهِ الشَّكْلِيِّ، الصُّورِيِّ، حَتَّى
أَسْفَطَتْ شَحْمَهُ وَلَحْمَهُ. جَعَلَتْ أُثُوثُهَا مَرَّةً، مِرَاةً تُرَعُّهُ بِهَا، عَصَا
ذَلِّ تَهْتِشُ بِهَا عَلَيْهِ، أَوْقَعَتْهُ فِي شَبَاكِ الْحَيَرَةِ وَالْهَزِيمَةِ...

جَعَلَتْ الْعَلَاقَةَ بَيْنَهُمَا صَمْعِيَّةً، مَا أَنْ يُشَلَّ مَطَرُهُ؛ حَتَّى تَشِفَّ وَتَجِفَّ
رَغْبَتُهَا بِهِ. تَلُوبُ أَمَامَهُ فِي سَكْرَةِ انْفِصَالٍ وَبُعَادٍ، تَمَلُّ وَجُودَهُ،
تُضَايِقُهُ بِسِحْرِهَا، حَتَّى تُوصِلَهُ لِمَرْحَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالتَّوَسُّلِ، كَطَفْلِ
كُسِرَتْ لُعْبَتُهُ...

أدرك أخيراً أنها لن تكن له إلا بقدر ما يملأ جيبها من مال. فما إن
تتبخر النعم من صحنه، حتى تتبخر الألفة والوشائج، وتغدو العلاقة
جافة لا يُقاوم صومها. بات يشعر أن المسافة تضيق عليه من جهة،
وتتسع من جهة أخرى، بين رغبته بها ورغبتها فيه. وجد الفقر
يتبعه كحد السيف أمام شكل العلاقة التي يرتبط بها مع نرجس، إما
أن يقطعه أو يقطعها.

كانت تبتعد عنه كلما جفت المادة، وتزداد الهوة اتساعاً كلما كشت
يده عن مداها. العلاقة أضحت مجروحة، لا توصف بالحميمية
إلا حين يستمر البذخ في ترطيب جلدها، متشحة بالخوف والظلام،
تزداد غلاً مع مرور الأيام، وتتحول إلى علاقة بغیضة ومذلة حين
يجف الترف.

نرجس، برعونتها وطلباتها، جردته من بريقه ومن وجوده الفعلي
في الحياة. شلت عناصر قوته، وتركته يسبح في جرف العلاقة دون
أن تتبذه، بل تحثه على جلب المزيد من المال. كانت تشكمه
الوتوات، والجشع الكامن في حدقات عينيها، تلك التي نخرت جسده
وفكره كسوسة، تذكره بهوانه وضعفه، ترهقه وتصدعه. وفي
قرارة نفسه، لم يجد وسيلة لمجاببتها سوى بلغة الاستسلام.

ما إن أفرغت صحنه، حتى بدأت تحثه على توفير المزيد لاستمرار المعاشرة الزوجية. لم يخبرها سبل طرق توفير ثروته، لكنها بفراستها أدركت أسرارها، وبألاعيبها أنهكتها وفرغت جيوبه. وهو الآخر، زاد من استهتاره وعبثه مع صديقيه، فهدر ما سلبه من أخيه، ولم يفق إلا وهو خالي الوفاض من المال والعشرة والقدّر.

في أعماقها، كانت نرجس ترسم أهدافاً بعيدة عن حدود جاسم وتفكيره. لم يكن سوى قنطرة صادفتها في طريقها، محطة استراحة، وسيلة رجاء تمتطيها لبلوغ هدفها الأسمى. لم يكن هو الهدف، بل مجرد مرحلة عابرة نحو حلم بعيد المنال، حلم لا تبلغه ضفائر جاسم ولا تلامسه شمس تلك الحقبة الباهتة.

كانت العقدة والاستحالة في ظرف شائك، وهي أنثى فاتنة، جميلة، تهجس بذاتها، محاطة بوحوش دون معين حقيقي. لذا رأت هدفها يشبه لآلئ صدف مكنونة في جوف بحر عميق، عسير المنال. وجاسم ليس سوى غطاء للهدف.

سرت هواجسها إلى صديقتها سعاد، التي تعيش ذات الشائكة. فاتفقتا على الهرب خارج العراق، بمجرد أن تمتلئ جيوبهما بمبالغ دسمة، عبر ابتزاز جاسم وأمثاله من خلال أوكار البغاء التي تطرقانها في الخفاء...

ظلت ملتزمة بالمنهج، طالما جاسم يدرّ عليها بما تشتهي النفس. قبلها الطمع بأن تبقى تحت ظله حتى تسقط لحمه وشحمه. لا ضير في أن تعيش معه فترة ضياع أخرى، تحصّن بها ذاتها، وتللم بها أشلاء فكرها من دروب المنغصات. هكذا رأت الحياة: لعبة شطارة، والشاطر من يصل في نهاية المطاف إلى خط النجاة.

بعد أن حلّ الاحتلال، تغيّر الوضع العام، اهتزّ، جلجل، وخلا من الروائح العطرة، من الابتسامة، من الأمان، ومن الحياة. أضحى

وضعًا غامضًا، جديدًا، متقلبًا، لا يروق أحد من الرعية، خاصة مراودي الملاهي ودور العهر والبيغة. التغيّر الذي حلّ في العراق جاء بطعم الحنظل، إذ أصبحت الدولة بلا أسوار، لا تحمي ذاتها من همجية الذئاب. فتنت بها شلّة من أصحاب النفوس الضالة، المتشحين بالحقّ والزهد معًا، ذوي العمائم والحفاة، ومجموعات أخرى تحمل نوايا دفينّة، أصبحوا مؤثرين في المجتمع وفي صياغة القرار.

قد يستفتون بظلال وجودهن، ثم ينتقمون منهن بحجة البغاء. صار للعمامة شأن وقرار مؤثر، يعبث بمطرقة العدالة كيفما يشاء. حينها، قد تُباح أجسادهن لهؤلاء الجرذان دون مقابل، وقد يُوضعن تحت الإقامة الجبرية، وسخط الأحذية، والاستغلال، والبيغاء، والمتاجرة بأجسادهن كأصحاب الرقيق. كما حصل لاحقًا، حين استغل البعض الفوضى الدائرة لمصلحته وهواه.

بل إن البعض شرع في توسيع دور البغاء والملاهي تحت مسميات متعددة، وقد تُسفك دماؤهن بإشارة من أولئك لتفعيل الفوضى. وقد... وقد... سلسلة من احتمالات مجهولة تفرض شؤونها عليهن، دون أن يتمكنّ من إنقاذ أنفسهن من تلك الشباك المحاكّة، والمحاكمات المقامة حولهن بلا قواعد تحميهن من العبث والخبث الدارج والواضح في أقسام السلطة.

تلك الأوضاع أوصلتها إلى قناعة تحمي ذاتها من قبضة المجرمين بالزواج، حتى لو كان زواجا شكلياً من جاسم. لم يكن زواجها منه سوى ستر وغطاء الغاية من جهة، وفرصة بزنس تغطي بها أعين المارقين والمغازلين والمغليين ولجاجة الظرف من جهة أخرى. كان تفعيلاً لفرصة اغتناء متاحة أمامها أشبه بالوجبات السريعة التي تلتهمها، لتتسلق بها سلم الغنى وتطرّد أعين الحشرات الدائرة حولها.

وما أن يشلّ جيبه، حتى تطفح العقد والمشاكل فوق سطح العلاقة الزوجية كـرغوة الصابون. فتجلده بعصا الغريزة الجنسية، تجبّ نفسها عن معاشرته، تمنع عنه حليب صدرها وشهد عسلها، تحرق فمه بفتيل الشهوة حتى يستسلم لها. أضحت تفتش عن الثغرات التي تجلده منها، ترميه بحجر أنوثتها، فتصيب مشاعره بدقة.

ذلك ما أدى إلى اختلال التوازن في العلاقة، حتى أجبرته على مدّ يده عليها، حين صفعها على وجهها بعد أن طفح الكيل. أوجعها، وترك أثر قسوته على جسدها البض. شعرت حينها بلسعة الإهانة المرة، خارت قواها، وتخلّت عنه بعد أن قارنت بين شموخها تحت ظل زوجها المتوفى وبين قدرها تحت ظله. هجست بانحراف محور الزمن الذي قوض بهجتها، وجعلها تصمت تحت أقدام جاسم وقدرها المرّ السليط حفاظاً على سرية الغاية. استهجنّت الحالة وهي ترتدي أسمال الذلّ والمهانة.

تلك الإهانة دفعتها إلى النفور من البيت والهروب من قبضة بعلها، لتستقر مؤقتاً مع صديقتها سعاد. مثّلت دور الخصام بإتقان، متبعة خطة انتقام، وجعلت من هروبها فترة نقاهة لها تذلل بها جاسم.

جاسم لم يصبر على فراقها، حاول إصلاح شأنها واستردادها، وإعادة المياه إلى مجاريها. ركع تحت قدميها متوسلاً، إلا أنها أبّت العودة إلا بشروط محكمة: عليه أن يحترمها، ويدفع لها مبلغ خمسة آلاف دولار مقدماً حتى ترضى به زوجها. اعتبرتها ضريبة القسوة التي استخدمت ضدها، وثمناً لاسترداد كرامتها بعد ما لحقها من إهانة وبطش بغيض.

يقال: الحب أعمى، بصير، طفل تائه في دروب العبث. وكان جاسم قد غرق في بحر نرجس الطامي، تأوّه بعد أن لسع شهد منحلها، هام بها كهيام قيس بليلي، صار يتأمل أن ينقذ عجزه من سيل مجراها

المدمر. لم يسبق أن شعر بعطفة أنثى حوته، دهنت غريزته، أو نسمة أرخت أنفاسه وخففت عنه شرود ذهنه وشياطين قلبه. لم تشذبه امرأة من واقع عذابه وولعه وغريزته سواها. لم تنكت هموم عواطفه أنثى غيرها، ولم يأويه ملجأ سوى ملجئها.... لذا وافق على شروطها وطلباتها جملة وتفصيلاً، على أن تعود له حتى تسنح له فرصة ترتيب وضعه وتجهيز المبلغ المطلوب. عادت إليه تحت تلك الشروط، سيدة تُعامل بالحسنى.

وبعد يومين أو ثلاثة من المعاشرة الزوجية، وبعد أن التصقت أقدامه بغراء اللذة والنسيان، وبعد الزنّ الزائد على أذنيه بصوت الشغف والغريزة والرقّة، اتصل بصديقيه جعفر ورشيد لترتيب عملية خطف جديدة، دون أن يعلمهما بأن الشخص المقصود هذه المرة هو أخوه الأكبر، قاسم. أدار الدفة نحو عملية اختطاف جديدة، رتب العمل وخطط مع صديقيه بدقة، ولم يبخل عليهما ماديًا كما في العملية الأولى. مثلما أبدع في كرمه في المرة الأولى حد النخوة، سيكون كذلك في المرة القادمة وربما أكثر.

خضع لطلبات نرجس التي زاحمت فكره وأرهقته بثقلها، وهان عليه ابتزاز أخيه مرة أخرى.. طالما يستطيع دفع المطلوب منه بيسر فليخوض التجربة مرة أخرى. جنحت نفسه خلف هُل أخيه المسكين، خطط بغزوة الثانية على أن تكون أكثر دسامة من الأولى.

طلب من جعفر ورشيد عدم حلاقة ذقنيهما مدة أسبوعين، ونصحهما بالتخفي والابتعاد عن الأماكن العامة وميدان العمل وسوق الشورجة بالذات، وأوصاهما بعدم الظهور في منطقة الميدان وباب الشرقي، كما شدد على التكتّم والاختباء، وعدم مراجعته في بيته بتاتًا.

كانت نرجس، بإحساسها المرهف، تعرف أن جاسم لص أو مجرم، لكنها لم تكن تعلم أنه نذل وحقير إلى درجة ابتزاز أخيه وتجريده من نعمه. لم يكن يهمها من أين يأتي المال، المهم أن تملأ جيوبها بما يكفي ويليق بها، لتعد ذاتها للخطوة القادمة. وعسى أن تحين الفرصة قريباً للهروب من دائرة الفوضى إلى دائرة الضوء خارج حدود الوطن، قبل أن تلفها الفوضى بعباءتها وتقضي على هواجسها ومشاعرها ورغباتها وتأملاتها، وبالتالي على حياتها.

"لن يهلك العبد حتى يؤثر شهوته على دينه." العيب ليس فيها كامرأة جشعة، بل في الأعمى الذي يركض خلف ملذاته العاطفية. والشاطر من يستغل الفرصة المتاحة أمامه. وقد أحكمت استغلال هذا الأعمى حتى تكتمل عناصر خطتها لتنفذ بروحها. باتت تخطط قياسات ثوبها ليلائم طولها وقامتها، وعسى أن ترتدي حلتها قريباً حين تتحرر من الوضع المعقد، بعد أن تمكنت من تفصيل صيغ علاقتها مع جاسم على مقاسها، وبحسب تخطيطها وظنها وفكرها وغايتها.

كان الزمن قد عرج بها إلى تلك المنعطفات مع شلة الذين خسروا البيت والوطن، دعس عليها برفقة الفوضى التي لم ترحم، حتى التقت جاسم في وكر البغاة قبل أن يلفها الظرف بسواد الحظ. فقيمتها بالنسبة لها لا تتعدى ضرراً مسوساً قابلاً للقلع متى حان القرار، وها هي الأيام تقترب من نهاية مسلسلها.

انقضت على واقعها المريض، باتت تركض خلف أحلامها النرجسية دون توقف، أضحت قاب قوسين أو أدنى من الإمساك بقبس شمسها، ترى سرج الأحلام تسطع في سمائها كالنجوم السابحة في فضاء المجرة. تهجس بها قريبة منها، وشيكة من ظنها وهواجسها، تتراءى لها كفكرة ملموسة، أو لعبة تتقن لعبها، أقرب

إليها من حبل الوريد. ها هي تستنشق قداح عطر الغاية المرادة، رغم أن هلالها لم يكتمل بعد.

كانت هي وصديقتها سعاد قد استخرجتا جواز سفر قبل أشهر، واتفقن على السفر عبر أربيل ثم تركيا، ومنها يمكنهن التنقل لأي بلد لاحقاً. هكذا خططن وجنحن بأفكارهن لانتشال أنفسهن من المأزق المجهول المحيط بهن والوطن، قبل أن ينزلن في مستنقع التيه والهواية.

الفوضى عارمة، في توسع دائم كالمجرات، تزحف على كل شبر من الوطن، ولن ينجو منها إلا من حافظ على روحه في علية مغلقة بإحكام. وهنّ أصحاب كار مشترك، يستطعن تسوية أمورهن في عالم الغربة بيسر.

في زيارة خاطفة لأخيه في الشورجة، تفاجأ قاسم بتبدل حال جاسم، أبهره تحوله من حمال إلى تاجر صغير يتاجر بالخردوات. أعجب بجمبره أو كشكه، حيث يقصده الناس لشراء حاجاتهم الشخصية بالمفرد، بينما أصحاب الدكاكين يبحثون عن الحاجات بالجملة. الباعة القدامى يعرفون طريق الجملة، أما الجدد فتتعرثر أقدامهم بجمبر جاسم، فيلجؤون إليه لتسليك أمورهم.

في هذه الأكشاك، يسهل على المتبضعين العثور على مبتغاهم، لأن المحلات الكبيرة منزوية في متاهة الأفرع، ولا تبيع بالمفرد، وأسعارها مرتفعة. لذا وجد جاسم الفرصة لفرش كشكه بأدوات خردة متنوعة، من أدوات مطبخ وصيانة ونواعم تمثل الحاجات الشخصية، كالملاقط والمقارض والكريمات والصابون وغيرها. التنوع يفسح المجال أمام الزبون في البحث عن ضالته بين تلك الأشياء المختلفة. إضافة إلى بعض اللوازم المعروضة بصيغة الجملة لمن يرغب.

علم قاسم بزواج أخيه، ولاحظ التغير في شكله ولبسه وسلوكه. شكر ربه على هذا التغيير، وصار يدعو له بالخير، فالأخ يفرح لأخيه ويحزن له. لكنه عاتبه على عدم دعوته لحفل الزواج، وسأله عن مصدر المال وهو الذي كان لا يجد لقمة يسد بها جوعه.

فرد جاسم بذكاء:....

- تعاتبني وأنا لم أفعل ما يثير بغضك، لقد تزوجت دون احتفال، دون بهرجة، كان زوجي مجرد اتفاق بيني وبينها، أنها أرملة أرادت أن يتم الأمر سرا.. ثم الوضع لا يسمح بالاحتفال، ولا المكان يشرف ولا الحال.
- أما أن كنت تسألني عن الكشك الذي تراه، أنه من أتعابي، لا تظن ظن السوء بي، قسم من البضاعة تعود لأصحاب المتاجر أقوم بتصريفها لهم، أنها مجرد عملية سمسة، أبيع البضاعة بسعر المفرد وأسلمهم قيمتها بسعر الجملة.
- ثم ألا يكفي بأني عشت عمري أركض خلف الرزق والفاقة تركض خلفي؟ إلا يكفي أنني خسرت عمري بين البحث عن معنى السعادة التي لم أرَ وجهها ولم المس جلدها. يكفي الفاقة أتعبتني، رسمت الجوع في محجر عيني كهالة سوداء. إلا يكفي أنني بقيت أسير الصمت والسكوت عن كل ما مر بي من بؤس وشقاء؟ ألا يكفي أنني منقطع عن العالم الكائن من حولي والذي لا يكن لي ولوحدتي التعيبة بصلة؟
- ومن دفعك إلى ذلك غير تهورك، وعدم اهتمامك الأولي بالحياة. كنت طول عمرك جاهل، طائش، تبحث عن المشاكل هنا وهناك، وأن لم تجد مشكلة تشغل ذاتك فأنت تخلقها.. كم وكم من مصائب هزت كياني وأنصبت على رأسي من جراء تهورك وتصرفاتك المشينة في العمل أو مع الجيران. كم لاحقتني العقد كوني أخوك الأكبر.. هذا ما

كان بحد ذاته سببا كافيا لطرد النعم من دروبك وعدم تقبل الآخرين لك. الحمد لله على تغير أوضاعك نحو الاستقرار والسكينة وعساها أن تستمر معك.
- تستمر أنشاء الله.

ثم تركه راجيا له التوفيق في حياته العملية والزوجية.

وبعد يومين من زيارة كشكه؛ خطرت في باله فكرة أن يقوم بزيارة خاطفة لبيته، ليطلع على أحوال زوجته. والبيت بالأساس هو بيت والدته المرحومة، الخرب.

وخلال زيارته فتحت له الباب امرأة جميلة تشع بهاء ونورا، امرأة كعارضات الأزياء، حسناء، يشع من ملامحها أنوثة سليطة، وجه مشرق وطول ممشوق، ترصع صدرها المتدفق بالبهاء والطلاوة والرقّة والحيوية قلادة ذهبية متميزة تطوق جيدها! فيما يتلأأ في أذنيها قرط كبير أشبه بالهلال.. سألها من أنت؟ ردت عليه:..

- ومن تكون أنت لتسأل؟
- أنا قاسم أخو جاسم.
- أخوه!!!!.. لم يذكر لي بأن له أخ محترم، تفضل أهلا وسهلا.... أنا نرجس زوجته.
- وأخيرا الحظ أبترسم لأخي ... ما شاء الله، جمال ورقة وبهاء وغنى!
- من أين ... يا حسرة! هذا الذي تراه من ميراث زوجي السابق، أخوك حافي لا يملك شيئا.
- أن كان حافيا لا يملك شيئا؛ لِمَ تزوجته؟
- مجرد ستر وغطاء لا أكثر.

لم يقتنع بكلامها، والدليل الذي حيره أثاث البيت الفاخر، والطلاء الجيد المعني للبيت، كل ذلك هزه وجعله يفكر بالتغير الذي طرأ

على أخوه في فترة وجيزة. لم يلبث طويلا، خرج ولم ينبس بشفة بعد أن قدم لها هدية زواجها مبلغ من المال... الحيرة عصفت بفكره، جعلت الشك ينط على حجر أمس القريب، زيارته تركت لأخيه رسالة سرية مفادها بأنه صاح في ثكنته، لازال يداعب الغفلة بعصا الطيبة. وأن الزمن كفيل بكشف المستور المغشي تحت الحقيقة الضائعة. الغفلة التي داعبته وهو غير محترس من الشر؛ قد تتحول لسوسة تأكل بدنه، وتقضي على طيبة قلبه وجميل طبعه.

اليوم شك وغدا قرار ويقين والمسافة بين الشك واليقين قصيرة تعتمد على الفطنة، قد تطول وقد تقصر حسب الظرف والبحث والمعرفة. إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ، وإن الله لن يترك عبده تائها.

بعد أسبوعين من الترقب والمتابعة والمراقبة، انقضت فترة اختفاء جعفر ورشيد، وحان موعد تنفيذ عملية الاختطاف الثانية؛ الجريمة التي ستكشف ملامح جاسم على حقيقتها: كشخص واطئ، خسيس، لن يظهر أمام نفسه إلا كظل مشوه، ولن يستطع قراءة المشهد إلا ككائنٍ منزوع الكرامة، مبتز، لا قيمة له. باختطاف أخيه الأكبر يكون قد وصل لدرك الحضيض، يعيد الكرة كما فعل مع أبنه؛ بذاك يكون قد حكم على نفسه بالخسة والنذالة والتجرد من الإنسانية.

المسافة بين الذروة والحضيض طويلة جداً تأخذ مدى سنوات ضوئية من التفكير، غير إن المبتذل يقطعها برمشة عين. مسافة لا تُقطع بغفلة، بل بإرادة تُجتاز العقل والمشاعر حين ينزع المرء جلاباب كرامته، وغيبرته، وعزته، وإيمانه بلحظة. حين يسير في طريقٍ تعاكس خط البهجة العام، عندها يدرك ذاته المهزوزة وهي تنزّ خسة ونذالة من خلاصة تفكيره ومنهجه المريض.

ولأن الارتقاء لا يأتي إلا بعد المرور بمنغصات السفالة والحقارة، فإن هذه الحالة لا تولد فجأة، بل هي تراكمات سلوك ونزف زمن، وعقد وانحراف تربية. فتضفي على صاحبها بريق أكاذيب وسطوع زيف مغشّى بالقدر. حالة الغياب تلك تنقل صاحبها إما إلى العلن والتظاهر والسلطنة، أو تقوده إلى وهدة العناء والهلاك دون إرادة.

لكن؛...

أبت النذالة أن تفارق أهلها

هي في العظام نخرٌ دميم

وصمة عارٍ تلتخ جبين صاحبها

وقيح نتن تزكم أنف النديم

تلك الخسة لا تبدل جلد أصحابها، ولا تقبلها شريعة أو قانون، لكنها حقيقة مغروسة في النفوس الضعيفة كالنخاع. هؤلاء، في سلوكهم، يجلسون قوام ذواتهم قبل أن يخزقوا نفوس الآخرين بحراب صخب افعالهم، فتنعكس عليهم وتصيبهم في الصميم. فشهادة العهر لا تعر إلا أصحابها.

كان جاسم قد رسم لصديقيه خطة الخطف مع صباح الاثنين الأخير من شهر أيار عام 2005، متزامنة مع لحظة خروج أخيه من بيته إلى محل رزقه. فقد درسوا جيداً مسار ذهابه وإيابه، إذ اعتاد المرور بأزقة باب الشرقي الملتوية، متجنباً الوجوه الغريبة الزاحفة في الشوارع، ثم يعرج على شارع الجمهورية مشياً حتى ساحة الميدان. كان يرى في هذا الطريق أكثر أماناً وسلامة، وهو بذاته يعتبر المشي رياضة تقوي عضلات القلب ومفاصل السيقان لمن تجاوز الأربعين، لذلك اعتاد على السلوك.

ما إن دخل شارع الجمهورية في تلك الساعة الصباحية الحرجة، حتى بدأ يسلك الرصيف بخطوات وئيدة نحو هدفه، تفرسه نسمة الصبح فتحرك في داخله نشوة النشاط، وهو لا يدرك بأن العيون النافقة تترصد خطواته. جعفر ورشيد كانا يتبعانه بعجلة التاكسي، بهدوء، دون أن يثيرا انتباهه. وهي ذات العجلة التي اختطف بها ابنه محمد قبل أشهر.

- عند المنعطف الأول، توقفت العجلة بجانبه. ترجّل جعفر وناداه، تبعه رشيد، فتحا له باب العجلة الخلفي، وطلبا منه أن يجلس دون ضجيج... دون مقاومة... دون أن يفسد المشهد الذي خطط له جاسم بدقة، كمن يكتب نهايته بيده

- تفضل أبو محمد أرتقي العجلة نحن نوصلك لمكان عمك!
- ومن أنتم؟
- ليس وقت جدال هيا أجلس، لنا معك حساب نود أن نصفيه.

ودَّ أن يتجنبهم ويبتعد عنهم، لكن رشيد أمسك بذراعه وسحبه، فيما جعفر طوّق ذراعيه ثم دلفه للداخل، مهدداً إياه بمطواة حادة إن هو حاول المقاومة أو رفع صوته. عندها انطلقت بهم العجلة في شوارع بغداد، بعد أن كمّم فمه بشريط لاصق، وألبساه كيساً أسود على رأسه.

انطلقت السيارة بسرعة البرق بين التواءات الطرق. لم يجرؤ على الحركة، فقد حُصر بين جندلين كالثيران، ضغطاً على صدره، فلم ينبس ببنت شفة. لقد باغته المفاجأة، هزّته، جردته من التركيز، ذهّل، تلبّد في مكانه وهو فاقد رشده، ولم يستطع استعادة وعيه أو ثقته بنفسه ألا بعد زمن. تكدّرت حالته، كُبل بالخوف، فاستسلم لأوامرهم دون مقاومة.

شعر أنها النهاية، كما أخبرته هواجسه المرتعشة. لم يسلم من مطبات الأمس، كأنها كانت تمهّد الطريق لسقوطه. إذن حان دوره أخيراً، بعد أن مرّت عجلة الأحداث على الكثيرين من حوله، دعست على أقاربه ومعارفه وهو يرى المشهد المتكرر أمامه. سنة ونصف من الكوارث دارت حوله دون أن تمسه، لكنها الآن إبت أن تتركه خارج مركبها.

بين غمضة وأخرى كانت الكوارث تفجعه، أحداث تهزّه. احتفلت به المصائب مراراً، توافقت مع لحظة عثوره على الكنز قبل عامين، والآن جاء دوره بعد أن انتهت الأدوار الثانوية التي طالت ذويه وأقاربه ومعارفه.

يا ترى، هل يعقل أن تحدث كل تلك المصائب دون تخطيط مسبق؟ هل هي مجرد أحداث اعتباطية خلقتها الظروف؟ أم أن هناك من يحركها عن بعد حتى يصل إليه؟ هل تسالت تلك العقد إليه من مخزون الكنز ذاته؟ هل هي لعنة المال؟ هل هو مال حرام؟ هل بقيت أنفاس أصحابه معلقة به، لتنتقم منه؟ صار يشعر أن المال ذاته يثأر منه... لا إله إلا الله، بدأ يشك في نزاهته وعفة أهل بيته.

غرق في متاهة من التفكير، بات يرتجف من الغدر الذي قد يحل به، من المصيبة التي وصلت إليه بعد أن التهمت أطرافه. كيف سيتلقى ابنه محمد خبر اختطافه؟ كيف ستكون حالة زوجته رقية؟ ماذا يريد منه خاطفوه، وهو الذي لا ينتمي لحزب أو جهة سياسية، ولا يلوذ بطائفة أو فكر متطرف، بل ملتزم بسرطاه المستقيم؟

وبعد أن شأقت نفسه بين جسدي رشيد وجعفر، وصلت السيارة إلى وكر الجريمة في منطقة الحسينية. رموه في ذات السرداب المظلم الذي رموا ابنه محمد فيه من قبل. تركوه يومين دون أن يكلمه أحد. أرادوا أن يستنفدوا طاقتهم النفسية والفكرية والإيمانية، ليقرّ بعدها بما يملك من ثروة، ويستسلم لمطالبهم طواعية.

أدخلوه القبو وهو منهار من الرعب، يرتجف، لكثرة ما سمع ورأى من قتل وتنكيل دائر على قدم وساق بين صفوف الشعب. تلك العصابات التي نهبت ونشفت البنوك، باتت تزحف على جيوب الناس لتجفيفها. أدرك أن نهايته قد أوفت، وأنه كان مراقباً منذ زمن من قبل الشيطان. زاد يقينه بعد أن اختطفوا ابنه محمد. عندها استسلم تمامًا، دون أن تسعفه فكرة واحدة لحل معضلته.

والحقيقة فترة اليومين التي قضاهما داخل القبو كانت كافية لاستعادة وعيه ورباط جأشه، خلالها أطمأن بأن الذين اختطفوه لا يودون قتله. لو كان لهم نية القتل ما تأخروا تلك المدة قط... صار يبحث

عن ثغرات تعري المكان والمختطفين، عساه أن يتمكن من أن يفلت من قبضتهم، بات يبحث عن علامات في القبو ليحفظها، يمكن أن تساعد فيما بعد، صار يدقق بمحيطه والجدران وهو يفكر في شكل الشخص الذي كتفه، كأنه قد تعامل معه مسبقا أو ألتقى به في مكان ما، الوجه ليس غريبا عليه، كأنما قُتِعَ باللحي، فبان أكثر سوادا وغرابة وسوداويا... ترى من يكون ذاك الشخص ذات الأنف المعقوف؟ يا ترى؛ أين رآه وألتقى به؟...

أسئلة محيرة أحتار بها، لا تسعفه الذاكرة في الإجابة عليها، كأنّ طيف خيال أزف ذهنه، عزف على أوتار ذاكرته، دون أن يستطيع أن يمسك بطرف الخيط.

أحيانا الإنسان تراوده أفكارا وخيالا يعتقد بأنها حقيقة واقعة ليصدقها. أحيانا يحلم بحلم يهجس بذاته قد تكرر عليه، أو مر به في زمن ما ليصدق الحالة.. ذلك ما صار يدور بذهنه ويتقلب بمخه، صار يهز كيانه ويشده إلى حيث الغياب الفكري التام تماما..

يا ترى؛ أين التقيته؟

متى تعاملت معه؟.....

أين؟ متى؟. أين متى؟.....حتى ضاع فكره في هدرة النسيان وغبرة الذاكرة، تاه في غشاوة اللوحة الرمادية المليئة بخطوط الأحداث المتسارعة عبر العمر المنصرم، أحداث متناقضة وظرف أهوج.

تلك المتاهة من الشك عصفت به كفتالة ريح، كإعصار، جردته من المبادرة والتركيز، فتلته بعصفها، لفته في ثناياها، جعلته لا يتذكر من وقائع أمس إلا تلك المصائب الثقيلة التي أثرت فيه، تاه بسواد الغمام الدائر فوق رأسه..... تلك المتاهة جعلته يبحث عن

الحقيقة بين شُعب الماضي المتعفنة دون أن يركن إلى حجر عثرة،
دون أن يمسك برأس الخيط المقطوع....

يا ترى؛ من يكون ذلك الشخص؟

من الذي حثه على اختطافي؟

لابد أن يكون أو يكونوا ذا صلة بي بشكل من الاشكال بي. مباشر
أو غير مباشر، لابد أنهم يعرفون الكثير عني....

رَأَوْتُهُ مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَسْئَلَةِ دُونَ أَنْ يَصِلَ لِنَتِيجَةِ مَا، لَمْ تَسْعِفْهُ
ذَاكِرَتُهُ الْهَشَّةُ الْمَلِيئَةُ بِالْعَقْدِ وَالتَّنَاقُضَاتِ عَلَى أَنْ يُدْرِكَ جُزْءًا مِنْ
الْحَقِيقَةِ؛ حَتَّى يَدْخَلَ فِي مَتَاهَةِ الرُّغْبِ وَالرَّيْبَةِ. تِلْكَ الَّتِي مَاهَتْ
بِعَصْفِ الْأَسِنَّةِ الْأَحْدَاثَ الْمُرَّةَ الَّتِي صَالَتْهُ خِلَالِ سَنَةٍ وَيَصِفُ مِنَ
الْأَحْدَاثِ الْمُشْحُونَةِ بِالتَّقْلِبَاتِ وَالْمُفَاجِآتِ، فَتْرَةٌ تُعْتَبَرُ أَمْرًا فَتْرَةً مَرَّتْ
عَلَيْهِ فِي حَيَاتِهِ.

كَانَ قَدْ أَغْبَرَ جَوُّهُ الْعَامَّ وَاسْوَدَّ فِي أَعْمَاقِهِ، حَالَةً ضَبَابِيَّةً طَوَّقَتْهُ،
بَاتَ يَحْتَاجُ لِفَتْرَةٍ هُدُوءٍ وَسَكِينَةٍ وَرَاحَةٍ بَالٍ لِنَتْفِشِغِ وَتَرْوُلِ تِلْكَ
الْعَمَامَةِ الَّتِي أَطْلَتْهُ، تِلْكَ الَّتِي سَوَّقَتْ فِكْرَهُ وَذَاكِرَتَهُ وَأَغَشَتْ
بَصِيرَتَهُ.

فِي ظِلِّ ذَلِكَ الظَّرْفِ الرَّائِبِ؛ ظَلَّ يَتَأَمَّلُ إِصْلَاحَ شَأْنِهِ، عَسَى أَنْ
يَتِمَكَّنَ مِنْ قِرَاءَةِ جُمْلَةِ الْأَلْغَازِ الْمُحِيطَةِ بِهِ وَهُوَ غَاطِسٌ فِي مُسْتَنْقَعِ
خَيْرَتِهِ، لَا بُدَّ مِنْ صَبْرٍ يُكْجَلُ بِهِ جَفْنَتِهِ وَيُعِينُهُ عَلَى الْخَلَاصِ.

جَالَتْ عَيْنَاهُ فِي الْقَبْوِ الَّذِي وُضِعَ فِيهِ، إِنَّهَا غُرْفَةُ سِرْدَابٍ، لَا مَقْفَذَ
لَهَا سِوَى شُبَّاكٍ صَغِيرٍ مُرْتَفِعٍ فِي قِمَّةِ السَّقْفِ، يَدْخُلُ مِنْهُ خَيْطٌ رَفِيعٌ
مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ، يَنْسَكِبُ عَلَى الْجِدَارِ الْمُقَابِلِ لَهُ، يُظْهِرُ الْجِدَارَ
مَصْبُوعًا بِلَوْنٍ تَبْنِي بَاهِتٍ، يَتَخَلَّلُهُ تَشَقُّقٌ عَلَى شَكْلِ عَلَامَةِ زَائِدٍ فِي

الوَاجِهَةِ الْمُقَابِلَةِ لِلشُّبَّاكِ، التَّشَقُّقُ كَأَنَّهُ رُمِمَ أَوْ لُبِحَ بِكُلِّسِ الْجِصِّ
الْأَبْيَضِ أَوْ بِمَادَّةِ الثُّورِكِ.

فِيمَا السُّلَّمُ الْمُؤَدِّي إِلَى السَّرْدَابِ مُرَكَّبٌ مِنْ قَوَالِبَ إِسْمَنْتِيَّةٍ، تَسْتَنِدُّ
أُطْرَافُهَا عَلَى مَحْوَرٍ مَحْجَرٍ دُونَ دَرَابِزِينَ، أَرْضِيَّةُ الْغُرْفَةِ مَصْبُوبَةٌ
بِقَوَالِبِ إِسْمَنْتِيَّةٍ مُرَبَّعَةٍ، وَالبَابُ مِنَ النِّيْلِ، مَصْبُوعٌ بِصِبْغَةِ بُوَيَّةٍ
رَصَاصِيَّةٍ.

حَفِظَ هَذِهِ الدَّلَالَاتُ فِي ذَهْنِهِ عَسَى أَنْ نَنْفَعَهُ يَوْمًا مَا.

كَانَتْ أُمُّ مُحَمَّدٍ قَدْ انْشَغَلَتْ كَثِيرًا بِغِيَابِ أَبِي مُحَمَّدٍ طَوَالَ فِتْرَةِ
النَّهَارِ، مِثْلَمَا انْشَغَلَ مُحَمَّدٌ بِهِ، لَمْ يَتَعَوَّدَا عَلَى تَأْخُرِهِ، حَيْثُ دَائِمًا مَا
كَانَ يَعُودُ فِي فِتْرَةِ الظُّهْرِ، فِتْرَةِ الْعَدَاءِ لِلْبَيْتِ، كَانَ قَدْ عَوَّدَهُمْ عَلَى
مَوَاعِيدِهِ الرُّوتِينِيَّةِ...

لِذَلِكَ قَرَّرَتْ رُفِيَّةُ أَنْ تَبْحَثَ عَنْهُ، ذَهَبَتْ مَعَ ابْنِهَا وَبَنَاتِهَا (فِيمَا رِيْمَةُ
ابْنَةُ هُدَى تَكْفُلُ بِتَرْبِيَّتِهَا عَمَّهَا فِيمَا بَعْدُ) إِلَى دُكَّانِهِ يَسْأَلُونَ عَنْهُ مِنْ
قَبْلِ حَيْرَانِهِ. كَانَ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَجِيئَ وَقْتُ الْغُرُوبِ بِسَاعَتَيْنِ، قَبْلَ أَنْ
تَنْشَقَّ النَّاسُ وَتَنْزَوِيَ فِي جُحُورِهَا، حَيْثُ النَّاسُ لَا تَنْجَرُّ أَنْ
تَخْرُجَ بَعْدَ أَنْ تَضْلُعَ الشَّمْسُ فِي صُورَةِ الْعَسَقِ، الْوَضْعُ لَمْ يَهْدَأْ بَعْدُ،
بَلْ إِنَّهُ أَرْدَادَ سُوءٍ عَنِ سَابِقِهِ، أَضْحَتِ الْحَيَاةُ لَهَا مَخَالِبُ تَخْدِشُ
الْوُجُوهَ دُونَ سَبَبٍ.

كَذَلِكَ فَإِنَّ خُطُوطَ الْهَوَاتِفِ مُتَوَقِّعَةٌ، فَهِيَ لَا تَعْمَلُ فِي مُعْظَمِ مَنَاطِقِ
بَغْدَادَ مُنْذُ اشْتِعَالِ نَارِ الْحَرْبِ، تَقَطَّعَتْ أَسْلَاكُهَا نَتِيجَةً شَدَّةِ الْقُصْفِ
الْمَطْرِيِّ عَلَى بَغْدَادَ. ٢٠٪ مِنَ السُّكَّانِ فَقَطُ مِمَّنْ تَمَكَّنُوا مِنْ اقْتِنَاءِ
هَاتِفِ الْمَوْبَايِلِ، حَيْثُ لَا زَالَ فِي أَوَّلِ عَهْدِهِ، لَمْ تَتَعَوَّدْ عَلَيْهِ النَّاسُ...
كَمَا كَانَ يُعْتَبَرُ عَالِي الثَّمَنِ قِيَاسًا لِلدَّخْلِ الْمَحْدُودِ الَّذِي يَتِمَتُّعُ بِهِ الْفَرْدُ
الْعِرَاقِيُّ، الَّذِي عَاشَ فِتْرَةً طَوِيلَةً تَحْتَ ظِلِّ حِصَارٍ شَدِيدٍ، فِتْرَةِ

ثَلَاثَةَ عَشْرَةَ سَنَةً مِنَ الْقَحْطِ وَالْجُوعِ وَالظُّلَمِ، مَنَحْتُهُ شَهَادَةَ بُؤْسٍ
وَعَوَقٍ فِكْرِي.

كَذَلِكَ فَإِنَّ هَاتِفَ قَاسِمِ الْخَلْوِيِّ بَقِيَ مُغْلَقًا طَوَالَ فِتْرَةِ الْخَطْفِ بَعْدَ أَنْ
جُرِدَ مِنْهُ مِنْ قَبْلِ خَاطِفِهِ رَشِيدٌ.

مَا أَنْ وَصَلْتُ لِمِنْطَقَةِ الْمَيْدَانِ الْمُكْتَظَّةِ بِالْمَارَةِ؛ انْتَهَيْتُ مُبَاشَرَةً إِلَى
دُكَّانِهِ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْزَوِيَ النَّاسُ لِمَخَابِئِهَا كَالْجُرْدَانِ؛ خَوْفًا مِنْ
الْقَطْطِ السَّائِيَةِ فِي فِتْرَةِ الْغُرُوبِ... كَانَتْ قَدْ وَجَدَتْ دُكَّانَهُ مُغْلَقًا،
اسْتَفْسَرَتْ مِنْ جِيرَانِهِ (أَبُو عَلِيٍّ) عَنْ أَخْبَارِهِ، لَمْ تَجِدْ إِجَابَةً تُشْفِي
غَلِيظَهَا، لَا أَحَدٌ يَعْرِفُ لَهُ خَبْرًا مَا... وَلَكِنْ الْعَطَارُ عَبْدُ الْقَادِرِ الْمُقَابِلُ
لِدُكَّانِهِ أَرْشَدَهَا؛ حَيْثُ قَالَ لَهَا:

— إِنَّهُ لَمْ يَسْتَفْتِحْ مَحَلَّهُ هَذَا الْيَوْمَ، لَمْ يَأْتِ دُكَّانُهُ هَذَا الصَّبَاحَ، عَادَةً
جِئْتُ يَأْتِي يُسَلِّمُ عَلَيْنَا، لَقَدْ شَكَّكْتُ فِي أَمْرِ صِحَّتِهِ، اسْأَلِي عَنْهُ مَرَاكِزَ
الشَّرْطَةِ أَوْ الْمُسْتَشْفَيَاتِ، رُبَّمَا حَدَّثَ لَهُ أَمْرٌ طَارِئٌ وَهُوَ خَارِجٌ مِنَ
الْبَيْتِ.

— لَا، مُسْتَحِيلٌ، كَانَ قَدْ اتَّصَلَ بِنَا!!!... لَقَدْ خَرَجَ بَاكِرًا، خَرَجَ إِلَى
دُكَّانِهِ بَعْدَ أَنْ فَطَرْتُ مَعَهُ وَهُوَ بِصِحَّةٍ جَيِّدَةٍ، وَدَعْنَاهُ وَهُوَ بِكَامِلِ
قُوَّاهُ، لَمْ يَعُدْ لِلْبَيْتِ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَيَّةَ إِشَارَةٍ عَمَّا حَدَّثَ لَهُ، وَلَمْ نَسْمَعْ
عَنْهُ خَبْرًا، تَرَى مَا الظَّرْفُ الَّذِي جَعَلَهُ يُغْفَلُ اتِّصَالُهُ بِنَا، لِمَ لَمْ
يَتَّصِلْ بِنَا... تَرَى أَيْنَ ذَهَبَ؟ يَا رَبِّ أَعْنِي...

— لَرُبَّمَا تَعَرَّضَ لِحَادِثٍ دَهْشَ أَوْ خَطْفٍ، لَا سَمَاحَ اللَّهِ، اذْهَبِي
وَاسْتَغْلِمِي مِنْ مَشْفَى مَدِينَةِ الطِّبِّ، أَوْ مِنْ مَرَاكِزِ الشَّرْطَةِ. بَعْدَ ذَلِكَ
أَصْبَحَتْ غَابَةً، الْإِنْسَانُ لَا يَضْمَنُ مَصِيرَهُ.

عَادَتْ تَجُرُّ أَدْيَالَ الْخَيْبَةِ دُونَ أَنْ تَعْرِفَ شَيْئًا عَنْ مَصِيرِهِ،
اسْتَأْجَرَتْ عَجَلَةً تَكْسِي إِلَى مَشْفَى مَدِينَةِ الطِّبِّ...

كَيْفَ تَنَامُ وَرَوْجُهَا قَاسِمٌ مُكَبَّلٌ فِي وَرْطَةٍ مَاءٍ، رُبَّمَا تَعَرَّضَ لِجُرْمٍ أَوْ خَطْفٍ كَمَا قَالَ جَارُهُ الْأَصْلَعُ، ربما قتل برصاصة طائشة، الإنسان ليس له قيمة في هذا الزمن والجثث المجهولة بدأت تطفح في الشوارع، الظرف جعل الإنسان يُدْعَسُ صاحبه مقابل ثمن زهيد كما يدعس على صرصور..

حبست دموعها في محجريها، لا تريد أن تفرع أطفالها. المسافة ليست بعيدة، لكن الزمن توقف عن الحركة، حتى غدت الحياة مجرد هاجس بلا روح ولا طعم. تراخت عضلات ساقها، وتمنت لو أن لها جناحين تطير بهما، علها تخرج من حالة الشك إلى يقين يُطمئن القلب. بات الظن السيئ يطفح في منسوب العقل، واللون القاتم يغازل ذهنها، يتلاعب بهواجسها، يعقف على قلقها، ويغوص في أعماق أحاسيسها.

تري، إلى أين يمضي بنا المصير؟ أين تجد قاسم في هذه الساعة العسيرة؟ أيعقل أن يكون هذا اليوم يوم فراق أبدي؟ أيمن أن يكون قد... مات؟ لا، لا، لا... الطف بنا يا الله، لا تجعل مصيرنا رهين القدر المشؤوم.

دمعة حفرت خدها، وسقطت في صحن الصمت، كتمت أنفاسها، فمسحتها بأتراف كفها المرتجفتين.

كل شيء جائز، فنحن نعيش في غابة كما قال الأصلع، كثرت فيها الوحوش والكلاب، وقلّ فيها الضأن والدواجن. غابة فيها القوي يأكل الضعيف. فيما مضى، كان قد قُتل حسن بدم بارد، تبعه عامر، وصفاء، وهدي، وفلان... والكثير من شباب المنطقة. القافلة لم تقف عند حد معين، تمضي والجميع مشئت البال في ركبها.

يا رب، الطف بنا، استر حالنا، لا طاقة لنا بفقدته. هو عمود البيت، والأطفال لا يزلون صغارًا.

وصلت عجلة التاكسي إلى مدينة الطب، ودموعها تنهمر بلا توقف، لا تستطيع كَفّ ينابيعها. المسألة شائكة، والقلب مضطرب لا يحتمل صدمات جديدة. رأف بحالها سائق التاكسي، دعا لها بالخير والتوفيق، قائلاً:

— اطمئني، إن شاء الله خير. لا تقنطي من رحمة الله... أتودين أن أنتظرك؟

— نعم، حبذا تنتظر. أنت إنسان تغلب عليك الطيبة.

دخلت إلى الاستعلامات، وبعد أن استفسرت منهم عادت بعد دقائق تجر أذيال الخيبة. لم تتأخر كثيراً، لكن الحزن بدى كغشاء يعتصر وجهها ووجه ابنها الشارد الذهن، لا تعرف ماذا تفعل ولا كيف تتصرف.

— أبشري يا حاجة... قال السائق.

— لا شيء؛ قالوا لا يوجد اسمه ضمن قوائم حوادث اليوم.

— عظيم، أبشري خيراً. إذا سيعود، ربما مانع ما منعه. اصبري قليلاً.

— لو كان بخير لاتصل بنا لطمأننا.

— ربما ظرف منعه... اصبري.

في زمن العسر تتكاثر التناقضات، الغريب في الموضوع بات الإنسان يفضل العاهة على الغموض، والعوق على الصحة، فقط ليبقى حياً في البيت، ليكون مرئياً، موجوداً، لا تبخله دوامة الغياب. أيّ دنيا هذه؟ التي يغدو فيها الغموض لعنة أثقل من العوق والمرض، بات الاختفاء أشدّ إيلا من الألم.

ليجبر خاطرها وليخفف وطأة القدر قال:.....

- "الحمد لله، لا تقلقي، كل شيء هين، سيعود إن شاء الله سالمًا معافى، طالما أنه خارج الحوادث فإنه بخير.

" لكنها ردّت، والقلق ينهش قلبها:.....

- "خوفي من أن يكون قد خطف من قبل المجرمين، هم لا يدعون الناس تعيش بسلام

- "تألمي خيرًا، التشاؤم يجلب الشر لحد باب البيت. ضعي ثقتك بالله وادعي له بالسلامة."

أومات برأسها، ثم قالت:

- "والنعم بالله. أخي، أرفق بنا وخذنا إلى مركز الشرطة، لنسجل بلاغ اختفائه."

- "وهو كذلك."

وصلت إلى مركز شرطة باب الشرقي الذي لا يبعد سوى أمتار عن دارها، سجلت بلاغًا عن اختفائه. ثم عادت إلى البيت مكسورة خاطر، أسيرة الهواجس، تسحب جسدها المثقل بالهم، وحيدة، لا سند لها سوى والدها العجوز. الشكوك تحاصرهما، الهموم تنهش بجسدها، حتى شفت الشكوى على شفتيها، لا تجد من تصبّ فيه حروفها، ولا سلة تحتضن نغزها.

لم ترغب بإقلاق والدها، فأثرت الصمت، ليبقى الهم كاتمًا على أنفاسها، يعتصرها في صمتٍ موجع. أين تذهب؟ لمن تشكو؟ أين سيستقر بها المطاف بعد غياب قاسم؟ أسئلة تقلقها، والحالة محرجة، مهزوزة، لا تحتمل الصمت.

مرت تلك الليلة ثقيلة، لم تغف لها عين، ولم يرف لها جفن. الحزن كَلَّل مآقيها، والدمع غمر وسادتها. صار فكرها يقفز على الاحتمالات: هل غُدر به؟ هل قُتل؟ من له مصلحة في إيدائه؟ من يكرهه؟ فقد كان رجلاً مسالماً، لا يشكو أحداً ولا أحداً يشكوه.

تذكرت محمد الذي خُطف سابقاً، ربما العصابة ذاتها طمعت بقاسم. القلق ينخر عقلها، يطوف بأشعة الجنون في رواق صبرها. تعيش في حلقة مفرغة، تدور حول نفسها دون أن ترى بصيص أمل. الآهات تشق صدرها، والألم يعتصرها في نفق ضيق، ربما هذه هي الحلقة الأخيرة في مسلسل حياتها مع قاسم، اللقطة الأخيرة من سيناريو المشقة المعد لها.

الجسد متأثر بالمحيط، يلفظ أنفاسه ككورة تلفظ سعيها. همومٌ جمّة تعيق حركتها، تثقل أطرافها، وتُرهِق عضلاتها. فقدت العزيمة، مالت النفس إلى وهدة الكسل، تهجس بشعورٍ يائس، باتت أقرب لنهاية المشوار. الإرهاق عصّب عينيها، أغشى فكرها، كل شيء قتم لونه، وضبح صوته. النياح ينبثق من مسامات وجهها، حتى الأمل صمت صمت مالك الحزين أمام مرآة الحقيقة.

في ظل غياب قاسم، البيت يُصفر أوانه، تهجس بالوحشة قد حلت صرة الدبابير والعناكب والخنافس والثعابين في أرجائه. باتت تزحف خلف سعادتها، تعيش في ظل صبرٍ مرّ، يختنق فيه صوت الرجاء، لابدة في جحيم سرها، مغشية بمهاوي الخوف والفرع، من عنفوانٍ قادمٍ مجهول، يدور في محيطها.. تهجس بجدران البيت تتحرك، كأنها شياطين تتربص بها، تعيق خطواتها، تقيد كقضبان سجن لا يُكسر. ترعبها الذكريات المتجسدة في الهياكل والأماكن، بنية أشباح تتمثل لها بقوام قاسم، يمازحها كما كان يفعل، فتختلط الضحكة بالدمعة، والحنين بالخوف.

البيت مأهول بالرعب والكآبة، تصيح أذنيها أبواق الفزع، لغو لا ينقطع، كأن الوحدة نفسها تتأمر عليها. الذكريات منشورة في الطرقات، ماثوثة في الأركان، تحيط بها من كل جانب، كأثر قديم يفزعها، يبيت الخوف في داخلها صمتًا وشجنًا رهبة.

ريبة متجددة الأفاق تسري في عروقها، تجيش في السكون الطاغي كعربة حصان تنط بين مطبات العقد، تتقفز أمام ناظريها، تميد بها كامواج شك دميم لا ترحم. هنا ضحكنا، هنا نمنا، هنا شُمت أصفادنا بالطيب والحنان. لا يزال رنين كركرته تخرق طبلة أذنيها، لا تزال تذكر يوم قلدها تلك القلادة المشؤومة، التي جلبت عليهم عناكب الشر من حيث لا تدري.

تسأل نفسها في الساعة اليتيمة:.... يا ترى؛ أين أذهب؟ أين أرمي تلك الذكريات الطويلة؟ هل أستنجد بأبو عادل؟ لا... لا وألف لا. إنه أكثر من ثعلب يدور حولنا كصياد لا يؤتمن، نعم لا يؤتمن أنه أبلis بهيئة بشر. دعني أنتظر حتى الصباح، ثم أخبر والدي.

لم ترف لها عين، والقدر ينعب في سرها. منذ أن خرج صباحًا هجست بوسوسة في الظن لم تهدأ، صوت أنين خر من صرير الباب الذي صك بعُفٍّ خروجه من البيت. الشك والقلق لا يبطلان نهش الفكر، كأن طارئًا ما كبل لسانها، وأغشى فكرها في حينها. لم يدرك حيز إحساسها الرفف، لكنها كانت تنعم بحاسة غيبية، تستشعر بها لحظات الحسم واليأس، كأنها من اللاتي يُوحى إليهن. ما شعرت بشيء قط إلا وحلَّ أجله، إنها مبروكة، تمتلك الحاسة السادسة... وربما السابعة.

تلك الجلجلة التي رنت في أذنيها كرثة الأقراط، لم تكن سوى هاجس القلق،

لسعة شعله من علم غامض ألهمها الله به. صفة تبهج صفاء الروح والنية، لكنها تتشكل كهلام من خوفٍ سائد، وقلقٍ يفيض على محيط الأسرة. إنها

لوّن من هوس الروح، ينبثق من الفوضى العارمة، ويواصل ارتعاشه في
داخلها بلا هدنة.

لم تهدأ وتيرتها في داخلها. تعلقّت بالأمل والصبر حتى وجدت
روحها تشعرها بلسعة الندم...

لِمَ لَمْ أمنعه من الخروج؟...

لِمَ كنت عاجزة على تحذيره؟

..لم أخرس لساني حين خرج؟..

لِمَ ولم....الخ.

كتم القدر أنفاسها، جردها من الفطنة، من القدرة على اتخاذ القرار.
خاطفها بخيط الصمت، جعل السر يختبئ في عمقها. كانت، حين
تحل العضلات، تزيج المعوقات عن دربها ببسرٍ عجيب، لكن
حين تتعقد الأمور وتشتد، تلقى في قلب كمهاوي صعاب حتى
تنهكها.

لا ينفع الندم الآن. باتت تلوم نفسها، وتزمر شفقتها في حسرة.
عجزت عن فهم صدى الخمول الذي يدور في جفنيها، لم يشفع لها
الظلام الحالك، ولا الجهد المبذول، لترقد قليلاً. شوائب التفكير
المتشائم سلبتها كل شيء، بقيت معصوبة العين، تركز ذاتها على
جر القلق، تتأمل المستحيل أن يتكور أمامها، أن يخضع لإرادتها،
لتبلغ الذرى. كيف يغمض لها جفن وزوجها يعاني في محنة؟ لذا
جفاها سلطان النوم.

الهم أنساها طعم الراحة، رغم شدة الإرهاق والأرق الذي شلّ
البدن. غدا الفكر جمرة توقد نار الصبر في فضاء العين، طرد من
الحدق أطياف الكرى. ومع مرور الوقت كانت قد استسلمت

لافتراضاته، صارت أتراس الشك تسحق بذور الظن، تهمل لحظات التأمل العابرة التي كانت تضيء ذهنها. هذا الوضع جردها من حريتها، حتى تجاوزت هالات الحزن حدود الصبر.

شعرت بحرارة محبة قاسم تمس جوارحها، لا تستطيع كبح جماحها، ولا تحمل فراقه. جسدها تعرق بلهيب الشوق، وارتجفت وهي قابضة في ركن غرفتها، عاجزة عن تجاوز العقدة، عن النياح بصوت عالٍ يزيح الغل عن صدرها، وعن الأطفال المحتمين بها.

غدت حالتها مشروخة في داخلها، كقطعة قماش هتكتها حرارة الشمس، وهف بها ريح الذاكرة بين أشواكها، فأصدرت حفيف شجن وأنين، بالكاد تسمعه. شجن داخلي ينفث مع صوت الفزع الكامن في أعماقها. حيرة، وقلق، وبؤس يعبث بفكرها وظنها.

العوائق النفسية تتكوم في حجرتها، في أركان البيت، على الجدران، كالعث يعبث بقدم الذاكرة. صمتٌ مريع قيد سعيها، وفي قرارة نفسها تود أن تصرخ، أن يصيح صوتها ليصل عنان السماء، لتلفظ بقايا ركام الألم ودخان الجاثم على صدرها. لكنها مقيدة بصوت الفزع، لا تود أن ترهب الأطفال، ولا أن يشمت بها الجيران. لا تستطيع التحرر من القيود التي عشقتها، ولا أن تجر فلذات كبدها خلف سكير النار الذي يجتاحها. لا زال في الروح رمقٌ أمل يحثها على الصبر.

قضت تلك الليلة قابضة على جحر اليأس، تداري صمتها بصمت، وصيرها المرّ بسكينة. حاملة بأن يشرق على جسدها المثلج بالخوف ضياء شمس دافئة من سماء زوجها، راجية من الله أن يرفق به وبها، رافعة كفيها بالأدعية، طالبة الرحمة والسلامة لقاسم.

كانت ليلة سوداء، لم تمر بمثيلة لها من قبل. كوابيس أرهقتها، وهي تتبع طيف قاسم في رواق البيت دون أن ينقشع ذكره. نوافذ الشك تقسم ظهرها، تريدها هوائاً فوق هوان، في قامة الصحة والبدن. ومن خلال الملاحظة، هجست بفارق الحس بين حلم أمس وحلم اليوم الهميم.

لم تنسَ قط حزنها على أخيها حسن، لا زالت ذكراه تعتصر فؤادها، لكن حزن قاسم مختلف. إنه يحمل طابع العشرة، طابع الديمومة. يحمل في طياته أضعاف ما شاققت في حياتها. فقدان قاسم يعني التشرّد، الضياع، والجنون. ها هي أخته هدى ختمت حياتها بعد وفاة زوجها، كانت أكبر تجربة وأصدق دليل أمامها. لم تصبر على فراقه عامّاً واحداً، فاختارت الانتحار على الوحدة، على أن تعيش في قالب الذل والهوان.

لم يختلف يومها الثاني عن الأول، جلست قلقة وأن لم يغف لها جفن قط، قامت بتدبير فطور ولديها، فيما استقل الفكر ينشغل بسر اختفاء قاسم دون أن تعلم سر اختفائه. هاتفت والدها بعد أن شعرت باليأس قد تجاوز حده، حضر أبوها مذهولاً لوقع المفاجأة، حاول أن يهديها لكنه لم يقدم لها حلولاً ناجعة، لا يملك عصا موسى ليحل معضلتها، لذا لم يخفف من واطئة قلقها وحزنها، بل ربما زاد من وتيره للجمود الذي طرأ عليه، ماذا بإمكانه أن يعمل في ساحة الفوضى، لا حلول سحرية، ولا طفرة تقاوم عسر الظرف المحيط بها، الظرف لا يفك سره إلا معجزة إلهية تذيب خيوط العُقد، أنه مثلها تماماً مكبل بالحيرة أمام هول المصيبة.

أما قاسم فإنه بقي يعاني من الوحدة والقلق بشأن زوجته وأطفاله، ولكن ما في اليد من حيلة، لن يستطيع تغيير شكل الوضع، الهدد اختفى من سماء بغداد بسبب الفوضى، ما عاد يبحث عن أمره وشؤونه، ما عاد يأمن سلامة الاجواء لينقل خبر اختطافه لزوجته

رقية، لا توجد وسيلة تقي بالغرض إلا الصبر.... ما شغل باله؛ قلقه من أن تصاب زوجته بجلطة ما ومن ثم يتشرد الأطفال. بقي عاجزاً، مضرباً عن الطعام، أبت نفسه أن تأكل، لكنه لم يحتمل سعي غل عطشه، فبات يقرع الماء لترطيب شفاهه التي يبست نتيجة حرد الخوف وحرد مناوئيه.

في اليوم الثالث جاءه جعفر لأثما فاهه بغترة، كلمه بعنجهية وبسخط، قائلاً له...

- أن كنت تود أن تبقى على قيد الحياة وتعود لزوجتك سالماً، عليك أن تدفع لنا مبلغاً قدره عشرة دفا تر أي ما يعادل (100000 دولار)، والمهلة أمامك أسبوعاً واحداً فقط!!!... (الدفتر يعادل عشرة آلاف دولار).

قاسم: لكني لا أملك شيء مما تطلب، أنا فقير الحال، متعب، لا أملك سوى دكان بالات.

وقبل أن يكمل حديثه، باغته بصفعة قوية على وجهه، سقط على إثرها أرضاً، دار الكون به كدوامة لا قرار لها. صرخ في وجهه:

— لا تكذب يا كلب!.. نحن نعرف عنك كل صغيرة وكبيرة.

كانت الضربة قاسية، أفقدته توازنه، تراخت قدماه، فجلس على ركبتيه مستنداً بيديه على البلاط البارد. لم يكن مستعداً لها، فاجأته، أشعرته بأن الأمر جاد إلى أقصى حد. تسلفت إليه مشاعر الذل والهوان، انهمرت دمعان دافئان على خديه، صار ينظر إليه من خلال ظلمة غشيت بصره، تراءى له كوحش مفترس، أسد يوشك أن ينقض عليه.

قال بصوت أجش مرتجف:

– لمَ ضربتني؟.. لمَ فعلت ذلك؟

رد عليه بحدة:

– لا تكذب! إن كنت تريد الحفاظ على كرامتك لا تكذب. وإن كذبت مرة أخرى، سأقطع رأسك! نحن نعلم كل شيء: بيتك، سيارتك، أموالك، ذهبك... تصرف كما نريد، والمهلة بيدك. وإلا...

ثم أشهر تهديده أمامه:

– هل فهمت؟

أجاب الرجل بصوت خافت:

– نعم، أملك بيتًا وسيارة قديمة، لكن لا أملك مالا. لقد اختطفوا ابني قبل ثلاثة أو أربعة أشهر، واضطرت دفع فدية إفراجه.

قال له:

– ستتصل بزوجتك الآن، وأي كلمة زائدة تعني أنك حكمت على نفسك بنفسك.

اتصل بزوجه عبر رقم قاسم، وما إن سمعت صوته حتى انفجرت بالبكاء، شعر بالألم يعتصر قلبه كما يعتصر قلبها، ترقرت الدموع في عينيه، وصار يشهق كما تشهق هي، لم يتخيل يومًا أن يفترق عنها بهذه الطريقة. قال لها بصوت يملؤه الحزن:

– يا أم محمد، أنا مخطوف...

ردت عليه بعويل وصراخ، لم تستطع أن تسيطر على نفسها. أخذ الهاتف منه وقال لها:

– يا أم محمد، اسمعي المفيد... لا تخافي على أبو محمد، فهو ضيف عزيز عندنا. نطلب فدية قدرها عشرة دقاتر، وعند وصولها سيعود إليك سالمًا.

توسلت إليه:

– فداكم الأموال، فقط لا تؤذوه، إنه كبير في السن، لا يحتمل الإهانة.

قال لها:

– لن تؤذيه، أمامكم أسبوع واحد لتدبير المبلغ.

ثم التفت إلى أبو محمد:

– هل تود أن تقول لها شيئًا؟

أخذ الهاتف وقال:

– اعتني بنفسك وبالأولاد... بيعي البيت ودبّري المبلغ.

ثم قطع الاتصال. عندها، انتهى كل شيء بالنسبة لأم محمد. تبخرت الأحلام التي راودتها، وكرهت الحياة التي سرقت منهم الأمان، خصوصًا منذ لحظة عثوره على كيس النقود. بغضت البلد والجيران والفوضى، وشعرت أن المصائب تعزف لحنا صاخبا في حياتها، وأن الدور قد حان على زوجها.

لم تعد كما كانت مشوقة القوام، خفيفة الظل والروح. عاد بها الزمن إلى مرحلة الشقاء، تحدّب قوامها، نغصتها الهموم. تكالبت المصائب عليها، أقحمتها في ظلمة الاحداث، دمّرت أحلامها. لم يعد هناك أمل تنشب به، ينقذها من وحل الهزيمة الذي سيطر على

نفسها ونفسية زوجها. صارت تهلوس، تبكي، تنئن في وضعها المزري، الإرادة مفقودة، والذات ضائعة في متهاتات الأقدار، كل شيء بات مقلوباً يتحدى وجودها.

صارت تحدث نفسها:

— يا إلهي، لُقمة الفقر كانت أرق وأنعم من لقمة الغنى. كنا نعيش براحة بال وأمان، لا أحد يفكر بنا ولا نفكر بأحد. كنا كالحمام المسالمة لا بددة في أيكها، نظير فوق أغصان السعد والجدول الأمان بفرح. وفجأة، تبدلت أوضاعنا، صرنا نبغض العش الذي يأويناه، ونهجس بكل من حولنا قطعاً وكلاباً تود افتراسنا وسلب حياتنا.

أخبرت والدها بما جرى، وطلبت منه أن يرافقها إلى السيد عقيل، صاحب البيت الذي اشتروه منه قاسم. فالمعاملة لا تزال معلقة، لم تُحوّل ملكية البيت إلى السيد قاسم بسبب تعقيدات مادية وكتابية لم تُستكمل.

توسلت إلى السيد عقيل، طالبة منه إلغاء عملية البيع وإعادة المبالغ المدفوعة، شارحة له ظرف زوجها المختطف، المعلق بين الحياة والموت، طالبة منه أن يسرع لإنقاذه...

رد عليها صاحب البيت عقيل:....

- لكنه لا يمكن إعادة المبلغ كما هو، وهذا يعني أخلال بشروط العقد، لذا بات يشرح لها...

أنا استلمت 100 ألف دولار فقط من أصل المبلغ البالغ 150 ألف دولار، إذا ما حسبنا ضرائب العقار التي دفعت للدولة، زائداً المبالغ التي دفعت لمكتب العقار، والذي هو مناصفة بيني وبين قاسم، كما أن شرط الجزاء يقع عليه، بذلك لن أستطيع أن أعيد لكم المبلغ كاملاً، لن أستطيع أن

- أعيد لكم أكثر من خمسة وسبعين ألف دولار فقط أن رضيتم بذلك.
- لكن العقارات زادت قيمته.
 - والقتل والنصب والسرقات أيضا زادت عما كانت عليه في الأمس، باتت الناس تبيع بيوتها لتشرّد خارج الوطن، لا توجد في بغداد معنى للحياة قط.
 - أجعلها ثمانون ألف نكون راضين بذلك، والمبلغ من يدك ليد المجرمين.
 - وهو كذلك، عودي إلي يوم السبت أكون قد جهزت لك كامل المبلغ، هذا فقط لأنكم في ورطة أود فك كربكم.

تم الاتفاق على استعادة ثمانين ألف دولار، وهم لازالوا يحتفظون بحدود ثمانين ألف دولار تقريبا تحت اليد، بذلك يمكنهم تسديد المبلغ المطلوب للجناة... أما باقي المبلغ والذي قيمته يعادل مائتي ألف دولار؛ بقي خارج الحسابات، كان قاسم قد وضعها في كيس من النايلون ثم دفنها تحت إحدى بلاطات أرضية البيت بعيدا عن الأنظار، تلافيا لاحتمال مdahمة البيت أو سرقة لما تعرضوا إليه من نكاية، بحيث بقي ذلك الأمر سرا بينه وبين زوجته رقية، على أن لا يتصرف به أحد مهما كانت المصائب كبيرة، لألا يفتقروا ويفتقدوا مستقبلهم.

كانت فكرة بيع البيت من أنضج ما خطر على بال قاسم، بعد أن تيقن أنه مراقب من قبل عصابة تعرف عنه أكثر مما ينبغي. أدرك أن البقاء في بغداد لم يعد خيارا، فالفوضى التي تعصف بها والمشاكل التي لاحقته جعلت المدينة طاردة للأمان. لذا قرر أن يهرب منها فور انقضاء السنة الدراسية، بعد أن يصرف ما تبقى من بضاعة دكانه، ويُنهي ما يتعلق ببيته من التزامات.

بات يبحث عن الأمان في عيون الفرص القادمة، وبالمبلغ الذي بقي في يده يفتح ابواب سعيه، شعر أنه قادر على استعادة توازنه والعيش برفاهية في مكان آخر، إن وجد الأمن. ربما في أربيل، أو إن اضطر، فالهجرة إلى تركيا أو أي بلد آخر قد تكون مخرجاً معقولاً لمبتغاه الأخير.

بعد يومين، اتصلوا بها. وعدتهم بأن المبلغ سيكون جاهزاً يوم الأحد. طلبوا منها أن تحضر بنفسها أمام مشفى اليرموك، مرتدية ربطة عنق صفراء وتحمل المبلغ في حقيبة بنية، لتسهيل التعرف عليها.

قال لها ابنها محمد:

— دعينا نخبر الشرطة، ربما يتمكنون من القبض على العصابة.

ردت عليه بحسرة:....

— أي شرطة يا بني؟ وهل بقيت حكومة حقيقية تلاحق المجرمين؟ أتجازف بحياة والدك؟ ألا يكفي ما يعانيه؟ ربما ضربوه، وهو لا يحتمل القسوة، قد يصاب بجلطة ونخسره إلى الأبد. لا، لن نخبر أحداً، فلن ينفعوننا. دعنا نُنهي هذه المأساة، ثم دع الشرطة تدافع عن نفسها من المداهمات والقتل الذي يطالها كل يوم.

كانت تذوي عطشاً وشوقاً وفراقاً، ولم تعد تشعر بالندم على الأحلام التي تبخرت في ليلة غامضة. مثلما ارتقت قمة العز في زمن الهدوء، هبطت منها بنفس السرعة. الوسط بات غريباً، زلماً، لا يُمكن الاستقرار فيه، بفعل الفوضى السائدة.

بهبوطها قطعت خيوط الحلم التي عقدتها بشجرة الزيتون، تلك التي لم تعد تروق لها، كالعقدِ الفاخر والتي لم ترتده سوى مرة واحدة.

غدت الرفاهية التي حلمت بها أكلوبة تماهت في مساء الحياة، لا تعني لها شيئاً، ولا تقدح شرارة النجوم في ليالي الحب.

تم تسليم المبلغ بشهادة والدها، وتوقيعه، وبصمتها. بذلك، ضاع الحلم الأبيض في يوم أسود ملبد بالغيرة والحسد. كان حلمًا منمقًا، راودها منذ لحظة زفافها، لكن الأقدار لا تعد العدة بحسابات فكرها، دعست عليه، وعرقلت سعيها.

حين كانت طفلة، كانت تتمنى أن تتزوج ضابطاً، لما له من هيبة وتقدير واحترام في المجتمع آنذاك. لكن الحرب طالت، وجرت ويلاتها على الوطن كله وبالذات على صنف الضباط، الذين استشهد الكثير منهم. غدت معظم زوجاتهم أرامل، عندها شكرت الله على نصيبها من الدنيا.

الأحلام تولد نتيجة الفقر المباح، فأولاد الميسورين لا يحلمون قط، كان الحصار قد أصاب المجتمع بالسل والطاعون والجرب، لقد شلت حركة المجتمع، طفحت في الوسط امراض عضال شتى أصابت الجميع بقيح قرؤها دون تمييز، جراء الحروب المتعاقبة على العراق، مذ سنة 1980 ولغاية اليوم لم تندمل جراحاتنا، بسبب قصر نظرة الساسة من جهة وبغض الحاقدين وأطماع الدول الأخرى بالوطن من جهة أخرى..

أنحدر الوضع بنا دون أن يستقيم، مضى بنا في خنادق ضيقة بطابع السوء. دارت الأيام علينا، صارت تأكل بعضها البعض وتذرف مخلفات القشور في بطون وعيون الشباب، حتى تراكمت وتكومت مزابل العقد والمشاكل في طرق الحياة وعلى الأبدان والنفوس، باتت تنفلق دماملها وتتوسع جراحاتها. بحيث لم يعد بإمكاننا تنظيف ذواتنا من تلك المخلفات التي تركتها الطائفية والقومية التي التصقت بالنفوس كالتصاق الشعر في الجسد.

وفي يوم الأحد وفي ساعة الاتفاق كانت قد جهزت المبلغ وانتظرت المجرمين قرب باب مشفى اليرموك، بعد أن ارتدت شيلة صفراء وحقيبة قديمة بنية لتوهم المارقين بأنها خارجة من المشفى. خلال توقفها لدقائق توقفت أمامها عجلة تاكسي وفيها ثلاث ملثمين، هم جعفر ورشيد والسائق، نادى عليها جعفر..

- أم محمد! كل شيء جاهز؟ هات المبلغ.
- أين أبو محمد؟
- خلال ساعة يكون عندك في البيت.

استلموا منها الحقيبة ثم انطلقوا نحو مبتغاهم... بقت عيناها منصبة خلفهم، تراقب عجلتهم التي زاغت في متعرجات الطرق، كانت قد لمحت نصف وجه السائق، لكن العجلة كانت غير مرقمة.

فعلا مثلما وعدوها صدقوا وعدهم، خلال ساعة من استلامهم المبلغ وصل أبو محمد البيت بوجه شاحب، ونفسية منهكة، مرتبكة، الدموع محصورة في محجر مقلتيه، أشبه بالذي مسه خيط جنون في رأسه! بات يحتضن زوجته وأطفاله، يشمهم، يقبلهم، يلعن حظه العائر الذي بات يتعبه..... احتفت به زوجته، طيبت نفسيته بمحبتها ووفائها، عبرت له عن شكرها لله بعودته سالما غانما، قالت له:...

- فداك الفلوس؛ المهم عدت لنا سالما، لم نتعب بالمال، أظن أنه مال حرام، فالمقولة تقول: مال الحرام للحرام. لا تهتم، لا تفكر بما ذهب، إنما أدعوا ربك أن يعوضك الصبر وغنى النفس والإيمان.
- علينا أن ندبر أمرنا ونهرب من بغداد.....
- لنفكر بالأمر عليك أن ترتاح أولا.....

3

بعد أن استحم وبدل ثيابه، جلس جانباً، شارحاً لزوجته وأبنه طريقة خطفه، حينها جذب محمد لجانبه وصار يناقشه في مسألة اختطافه، أن يتذكر وجوه خاطفيه وأين وضع وما هي ملاحظاته داخل القبو، أيقونوا هم ذاتهم من اختطفوه؟

سال أبنه محمد قائلاً له:....

- يا بني؛ حين اختطفت أين وضعوك؟ هل لك أن توصف لي المكان بدقة؟
- نعم يا بابا... لقد وضعوني في سرداب مظلم، فيها شباك وحيد صغير في الأعلى.
- نعم وماذا بعد، أوصف لي الدرج.
- الدرج الواح مصبوبة من الأسمنت بعرض متر دون درابزين حافظة.
- هم نفسهم، هم.. نفس المكان الذي وضعت به، وهل تتذكر تشقق جدار الحائط الملبوخ بالحص في الجهة المقابلة للشباك.
- نعم يا بابا، أنه على شكل علامة زائد.
- هم.. هم نفسهم الذين خطفوك خطفوني، لا بد أن يكونوا من المعارف أو الجيران! لأنهم تعودوا علينا، ويعلموا اسرارنا، يعلموا ما لنا وما نملك وما لا نملك، يارب أسعفني.
- ماذا تقصد؟.. سألت أم محمد..
- أقصد الخاطف هو أحد أقاربك أو أحد أقاربي... أو احدا من أفراد الجيرة فعل بنا هذا.
- وكيف تجزم بذلك؟.

- خيال الشخص الذي كتف ذراعي لا يفارق ذهني، كأني أعرفه أو قد تعاملت معه فيما سبق، لا أستطيع أن أحدد شخصه بالضبط، تركيزي مشتت في هذه النقطة. يارب أسعفني.
- بابا الذين اختطفوني هما شخصين، أحدهم ضخم الجثة طويل، والآخر ضخم لكنه قصير، الشخص الطويل ذات أنف أزور، مقرط، معقوف جانباً.
- هو نفسه، أحسنت الوصف يا بني، هو هذا الوجه ليس غريباً عليّ.

بقي يفكر ليل نهار في صورة الشخص الذي أختطفه، لم يخرج للعمل خلال اليومين التاليين. لكن لا بد من العمل، لا بد من الحركة، لا بد من العودة للحياة الطبيعية.

بقيت الكآبة تلازمه وهو مشغول بالخاطفين له، لم تنفك عن صدره حشرات العقدة، أنها صورة ضبابية مرتبطة بأنفاسه، بشهيقه وزفيره، لم يعد يشعر بالضحكة والفرحة ترسم على وجهه، فكره ملغم بالحيرة المرة، وبطيف وشكل ذلك الشخص الذي أصبح كابوساً يراود خياله، شبح قانط في دهاليز فكره لا يفارق ظنه.

صار ذاك الشكل يطارده في الأحلام، يطرق أبواب ذهنه كل لحظة، أنه قريب جداً من الإمساك به، وكلما حاول ذلك فلت من نافذة النسيان كشبح يغص في الضياء التيه. أنه قريب من التماس الحقيقة، قريب من أن ينطق اسمه. لازلت الصورة مشوشة وغامضة..

صار يتأخر بالخروج من البيت حتى تدب الحركة في الشوارع، ليتطمأن على نفسه. لذا توجه لمحله في العاشرة صباحاً من اليوم

الثالث لفك قيده في الرابع من حزيران 2005. بعد أخلاء سبيله تغيرت نظرته إلى العالم. أضحي أكثر حساسية وشك بكل من يصادفه، لم تعد ثقته تعينه على تفسير الأشياء، كل شيء صار مبهما أمام عينيه، صار ملغما في فكره.

في خروجه من البيت كان قد التقى جاره أبو عادل أمام الدار، قبل أن يستأنف طريقه لمحله، أفسر منه أبو عادل باستغراب عن تغير وتبدل حالة أخيه جاسم المفاجئة؟ عن تحوله بليلة وضحاها من أجبر وحمال إلى تاجر يتاجر بحاجات المفرد والجملة في سوق الشوجة. استفساره كان أشبه بنسخة كاربونية من الأحداث التي دارت رحاها في فكر قاسم، كان استفساره في محله، كشف له عن الجانب المظلم الذي لا يراه إلا بأعين الغير قائلا له:...

- ترى كم يجني من عمله ليرتقي إلى تلك الدرجة، هناك من هو أقدم منه وأكثر ثقة في السوق ولم يتبدل وضعه وموقعه عن قدره كأجير أو كحمال قط. ترى كيف استطاع تبديل وضعه؟..

- ماذا تقصد يا أبو عادل؟

- قبل أيام كنت أتجول في سوق الشورجة، وقد صدمت من تغير حال أخيك!! كنت قد تبضعت منه بعض الحاجات، ما شاء الله عليه تمكن من ترقية حاله، أصبح تاجرا ينافس الآخرين. أصابه وابل خير ونعم، الاموال تجري بين يديه، تدر عليه البركة...

يا ترى هل من الممكن أن يرتقي بعمله لهذه الدرجة من ما كان يجنيه من دفع العربة؟ هل ساعدته بنفسك في تغيير كاره؟

قاسم متعجبا....

- يا أبا عادل؛ عينك شديدة الحرارة، دع الرجل بحاله، الله يرزق من يشاء، بالحقيقة أنا لم أساعده قط.
- ليس حسدا يا أخي، إنما التحول السريع يجلب الأنظار، والتجارة تحتاج لعقل نير ورصيد قوي، كيف أستطاع أن يجمع كل تلك البضاعة في كشكه، من أين أتى بتلك الأموال؟ لا تقول أنها لغيره، فلا أحد يُأتمن في هذا الوقت.
- لا علم لي بذلك، ممكن أن تسأله. ولكنه يقول أنا مجرد سمسار، أتاجر ببضاعة غيري وأستخلص منها الأرباح..
- جميل، ولكن بهذا الظرف الأعرج لا أحد يجازف بماله، ثم لو كان أخوك سوي مثلك لكان مقنعا بادعائه، لكنه طوال حياته دميم وصاحب عقد ومشاكل، لم يكن سويا أبدا، التجار يعرفون طباعه.
- لا علم لي بذلك، ليس عندي ما أقوله، أستاذك أني مشغول هذه الساعة..
- أبو عادل: إذنك معاك، مع السلامة...

رغم أنه أنزعج من فضول أبو عادل الذي صار يدخل أنفه في الكبيرة والصغيرة، إلا أنه استخلص من حديثه فكرة غَنَاءه، أعاد شريط لقائه بأبو عادل مرات ومرات وهو يتدحرج في طريقه لدكانه، حتى صار للشك مخالب تخربش ذهنه، تداهمه، تقري فكره، مع بقاء صورة شبح ذلك الرجل الذي أختطفه يدور في خياله، كأنه لا يبدُ في ظله.

كان قد أستخلص ملاحظات أبو عادل لربطها بشكل ذلك الشبح القابع في ذهنه، لا بد هناك من حلقة مفقودة تكمل سلسلة الجريمة، شيء ما مبهم، غامض، غير واضح، لا يعكس أضواء القضية... كأن أبو عادل قد غزه بإشارة عابرة غير مقصودة منه نحو جاسم، كأنه أوضح له بأن المجرمين هم قرييون منه، يدورون في دائرته،

لكنه ينقصه الدليل والفتنة لتحديدهم وغربلتهم. ابو عادل ليس له علم باختطاف محمد ولا باختطاف قاسم...

ذهب لمحله والشك يتكور مع خطوات قدميه، يزداد حجما لبلورة تلك الفكرة التي عجز على هضمها وتحميمها وتصويرها، عجز عن بيان أثر الغل الدائر حوله. حينها قرر أن يجمع بعض المعلومات عن أخيه قبل أن يتهمه جزافا بجريمة اختطافه واختطاف أبنه.

كما أنه تذكر حين اختطف أبنه طلبوا منه أن يأتين أخيه جاسم ليسلمه المبلغ، ترى لماذا اختاروا جاسم، أكون واحدا منهم، أم هو الرأس المدبر؟؟؟.

وما أن وصل محله؛ حتى فتح كبلك دكانه (باب الدكان) وهو يفكر بالتغير المفاجئ لحال أخيه، وبذات الوقت يتبع بعمق صورة شبح ذلك الشخص الذي كتفه ذو الأنف الأزور، والتي طبعت صورته في ذهنه وخياله بشكل جدلي، حيث يجد في تلك العلاقة المخفية سر العقدة ومشاكلها....

ما أن جلس على كرسيه ليرتاح قليلا، حتى أخذه التيه لبضع دقائق في رواق المحل متبعا إرهاباته وخياله، باحثا عن عقدة المشكلة التي نغصت حياته. أو بالأحرى صار يتتبع المشاكل التي اعترته واحدة تلو الأخرى، صارت تتجدد في مخيلته من لحظة سرقة محله واختطاف أبنه ومن ثم اختطافه، ولغاية تحرره ولقاءه بأبو عادل.. وهو يتمتع في محله وفكره مشغول بالشبح المارد.....

على حين غفلة نط من مكانه، انفكت أحجية لغزه كصرة فتحت أمامه، كأنه في تلك اللحظة قد هبط عليه الوحي ليبعد عن عينيه أوشحة الغشاوة.... ودون إرادة منه صار يصرخ ويبكي والدموع تنهمر من مآقيه مرددا مع ذاته...

- هو ... هو...ذلك الكلب جعفر، هو من حمل أمتعتي وحاسبني هنا، كأنه واقف أمامي الآن.. هو ذلك الحقيير الحمال جعفر، طالما أنه حمال فأكيد أنه صديق جاسم، وأكيد تعاون معه في اختطافي واختطاف محمد، وإلا من أين له كل ذلك الغنى، صدقت يا أبو عادل، شكرا على تلميحاتك، ارسلك الله لي لتبين الحقيقة التي لا أراها....

صار يرى شبهه يدور في دكانه. فأستدرك الحدث قائلا:...

- هنا تعاملت معه حين حمل البالات، وحين أنزل البضاعة من العجلة (صناديق الملابس الجاهزة) وحين قبض مني أجرته متوسلا أن أزيده هو ورشيد. هو ذاته ذات الأنف المقرط المعقوف.....شكرا يا إلهي! شكرا جعلتني أتذكره، وشكرا يا أبو عادل، كانت ملاحظاتك صائبة، لقد أوصلتني للحلقة المفقودة، نبهتني عليها وعن حالة أخي.

أعاد غلق كبنك دكانه ورجع للبيت مغتبطا، بشوشا، مسرورا، لقد تعرف على المجرمين، تمكن من الوصول اليهم، جعفر وصديقه رشيد ومن ورائهم جاسم. لابد أن يكون هو المخطط لهم، لابد من أن يتخفى في الظل ليبعد عنه الشكوك، وإلا من أين له كل هذا؟ لم طلبوا أن أسلم المبلغ له حين أختطف محمد؟ شكرا يا أبو عادل...

عاد قاسم للبيت والدهشة تتملكه، تكاد تفقده صوابه وتوازنه، ترتجف أطرافه من كم الهم والحزن الذي تكبل به وارتاده، ومن سحابة الفرح التي سورة قلبه وأبطط سره واغاثته برذاذها.

الحزن نابغ من غدر أخيه به، والفرح من معرفة الجناة...

لم تخطر بباله فكرة غدر أخيه به إطلاقا، لكن تغير أحواله وعدم إعلامه بزواجه المفاجئ وتغيير كاره والذهب الذي تترصع به

زوجته نرجس، وأثاث البيت الجديد. كلها دلائل تشير إليه بأصابع الاتهام بالإضافة إلى الثقة التي أولوه له باستلام المبلغ مقابل الإفراج عن محمد.

ثم بنت رهيبة جذابة كنرجس بقامتها وجمالها، استحالة أن ترضى بشخص نافه كجاسم زوج لها دون أن تقبض المقابل الثمين، لابد من مقابل مادي يوازي فتنتها... مستحيل أن تتزوج من رجل حافٍ وهي ابنة جاه وعز كما تتدعي، مرصعة بالفتنة والجمال والذهب.

لم تفلح في محاولة إيهامه خلال زيارته لها، حين أدعت بأن حليها من ميراث زوجها السابق. من تملك أموالا كالتى تملك؛ تنتقي زوجا مناسباً لها وليس حمالاً أجيراً. وقد أدرك ذلك في حينها، وكان قد أدرك بأنها لم تكن صادقة معه، إنما ودت أن تبعد الشكوك عنها وعن جاسم.

أنتشت أوصاله بالفرح، عرف أعدائه، عرف اللص الحقيقي، عرف القطط التي نهشت لحمه، لابد من أن يتحول لكلب شرس، لتهابه تلك القطط التي تجرأت عليه، بل لابد أن يتحول لأسد ضرغام، لابد له من أن ينتقم منهم جميعاً!!

ولكن كيف؟ ما هي السبل لذلك؟.....

دخل البيت وهو مضطرب، مما أوقع خيفة في قلب زوجته رقية...لأنه لا يستطيع أن يستكين وفي ذهنه جمرة تلسع أحشائه، لا يمكن أن يستكين في مكانه وتستكين النار المضرمة في فؤاده.. الأعصاب مشدودة، منتبذة عن أصل حالها، صار لها أنياب تنهش فكره وعقله، أنه مكبل بالشرود، مشدود إلى الانتقام، الحيرة تقوض سلوكه، لابد من صبر ودراية لئلا يستشعروا به أعدائه.

صار يدور في أرجاء البيت كالمصراع، لا تستقر قدماه على بقعة، ناثرا غبار الغضب من على وجهه، عيناه محمرتان، كأنه وحش كاسر يبحث عن فريسته لينقض عليها. الواقع يقول بأن الضرس المسوس هو مصدر الألم فلا بد من قلعه.... حينها استقبلته رقية بشيء من الخوف عليه لعودته المبكرة، توقعت خلفه مصيبة جديدة حلت به....

- خيرا، لم عدت بهذه السرعة، ماذا أصابك؟
- يا رقية، الله نور بصيرتي، عرفت المجرمين!
- يا لله خير.. أخبرني منهم؟ هيا أخبرني، أذهب وأخبر الشرطة عليهم.
- لا لا لابد من تأني، أنه جاسم الكلب وأصدقائه.
- ماذا !!! أخوك؟... وكيف عرفت؟... ثم هده من روعك، أهدأ كي لا تصيبك جلطة تفرحهم بك. أغسل وجهك بالماء البارد، أشرب قدحا من الشاي لتهدأ أعصابك، سأجلب لك إستكان شاي يزيل توترك. تعال أجس على الكنبه، ارتح قليلا. الحمد لله على كل شيء. لكن كيف عرفتهم؟
- يجب أن أنتقم منهم، هؤلاء الكلاب. تركونا نعيش في رعب وقلق دائم، سرقوا منا ألامنا، سرقوا أموالنا، لم يدعونا نهنا بالبيت الجديد ولا بحياتنا البسيطة. جعلونا نخاف من ظلنا، لابد لهم يد في سرقة الدكان أيضا، لابد أن يكون أبو عصام قد هيا لهم سبل الجريمة، أو حثهم عليها....
- أبو المثل ما كذب حين قال (البرد الذي يصيبك من رجلبك). ماذا يدور في بالك؟ لا تورط نفسك فتذهب حياتك سدى، أذهب وأخبر الشرطة.
- دع الشرطة تحمي نفسها قبل أن تحمي الناس، يجب أن أنتقم منهم بنفسى....
- طيب وكيف عرفتهم؟

- وأنا خارج من البيت التقيت بأبو عادل، قال لي: بأنه قد تبضع من جاسم في الشورجة، ثم سألني أسئلة غريبة، قال: هل الحمالة ممكن أن تجعل الشخص غنيا؟ لقد تغير حال أخيك كثيرا، هل ساعدت أخيك؟ أني وجدته قد تحول من حمال أجير لتاجر في سوق الشورجة.... ثم قصة زواجه بامرأة شابهة مرصعة بالذهب شغلت فكري، كل تلك التحولات لم تأتي بغتة، كنوز سليمان فتحت عليه، فمن أين له كل هذا؟؟؟-

- صدقت وأنا لم يعد مخي يستوعب الحالة.
- وأنا في طريقي إلى الدكان صرت أفكر بكلام أبو عادل، أحاول أن أبعد الشك عن جاسم، لكن الشك تشعب في ذهني، قويت مخالفته، أثقل العبء عليّ، بات ينكز بعيني، ينغز فكري، خاصة حين تذكرت في لحظة اختطاف محمد، طالبوا مني أن اسلم المبلغ بيد جاسم مقابل الافراج عن محمد، يا ترى؛ لِمَ اختاروه؟

حينها قررت أن أجمع عليه بعض المعلومات قبل أن أتهمه جزافا... ولكن بعد أن وصلت الدكان، بعد أن فتحت كبنكه وجلست على كرسيي المعتاد، تراءت لي صور المجرم الذي خطفني تحوم حولي، ذلك الذي كتف ذراعيّ بذراعيه القويتين وهي تتحرك أمامي، تراءت لي صورته وهو ينقل صناديق الملابس من العجلة للدكان حين اعتمدت عليه في تغيير شكل المحل، حينها تعرفت عليه، عرفته، أنه جعفر الحمال وزميله رشيد...

أكدت أنهما صديقا جاسم، هو من نقل البالات من الدكان إلى العجلة، هو من أنزل صناديق الملابس الجاهزة مع صاحبه رشيد، هو من تعامل معي وقبض أجوره... إذا لابد من أنهم صلبة تعاونوا على ابتزازنا، لا أحد غيرهم يفعل ذلك، هم

وراء كل الجرائم، ربما لهم يد في سرقة الدكان وقتل أبو عصام أيضا.

- وكيف العمل؟ لابد أن تخبر الشرطة؟
- قلت لك دعي الشرطة تحمي نفسها.... ثم أنهم كلهم بلا استثناء لصوص وجرامية، أتودين أن أستخدم علي لص في إعادة ما سرق مني؟" قال ذلك وهو مشدود الأعصاب "يجب أن أنتقم منهم بنفسني كي يبرد نار قلبي وخاصة من الكلب جاسم، لابد أن أتخلص من الضرس المسوس.

يا ترى؛ ماذا عليه أن يفعل بعد أن تعرف على الجناة، أنه أخوه الوحيد من أبويه، أخوه الأصغر، كيف سيتصرف معه؟ ثم أنه لم يكن يوما جزارا، ولا سلك سلوكا أرعنا مع أحد، لا يعرف أسلوب القسوة واساليب المراوغة.. ولكن ما تعرض له من إذلال وابتزاز كان كبيرا جدا، لن يحتمل ضيمه وسخطه أحد.

... ترى يا صديقي القارئ العزيز ما رأيك؟ لو كنت مكان قاسم كيف ستتصرف، كيف ستواجه معضلة من أدلك وابتزك وسرقك؟ أنها عقدة كبيرة قد لا يتحملها قاسم، وخاصة الطرف الآخر هو أخوه وأقوى منه بدنيا... حاول أن تعطي لنفسك بضعة دقائق وتصور المشهد من خلال خيالك، ترى هل يطابق خيالك خيال الكاتب؟

بعد أن هدأت أعصابه، راودته فكرة أن يشتري مسدسا لينال من المجرمين، سوق السلاح أصبح مفتوحا، كل الناس تتاجر به، بغداد أصبحت تكساس في هذا المجال. سلاح الجيش والشرطة وتركات نظام صدام من العتاد لا تتضرب، صارت سلعة علنية في الأسواق، ثم أن معظم الناس يمتلكون سلاحا في البيت إلا أنا.

خلال فترة الظهيرة ذهب إلى أبو عادل فهو أقرب الناس الذي ممكن أن يسنده في هذا المجال، كونه متعاوناً مع الميليشيا وله خبرة ممتازة في السلاح... طرق باب بيته ... فتح الباب أبو عادل بنفسه مستقبلاً له.

- تفضل أدخل أبو محمد، البيت بيتك...
- عذراً منك يا أبو عادل، أود منك مساعدة خاصة، أنت أقرب الأصدقاء والشخص الوحيد الذي ممكن أأتمنه وأعتمد عليه، وممكن أن يقدم لي يد المساعدة.
- أنا في الخدمة، قل ماذا تبغي، أنا في خدمتك... هل تحتاج لمبلغ معين؟
- لالالا الحمد لله الحالة مستورة، الزمن أصبح صعباً، ولا بد من سند أعتمد عليه. كما أنت تعرف قصص البلاء التي مررت بها، وظرف البلد المتقلب، لذا من الضروري أن أحمي نفسي وأحترس من محيطي، أود أن أحمي أهلي من كيد الغادرين.... أريد منك أن تدبر لي مسدساً جيداً، فأنت لك خبرة في هذا المجال، وأنا لم أستخدم سلاحاً من قبل، وكنت قد استخدمته منذ فترة طويلة خلال فترة الخدمة الإلزامية.. لا أعرف تصنيفاتها بشكل جيد ولا أسعارها ونوعياتها.
- أبشر؛ في المساء سيكون عندك غرضك، مسدس قوي جداً ومعروف، أنه روسي الصنع من نوع توكاريف.
- أريده كاتماً للصوت ولا يهكم سعره؟
- لالالا.. أنه معروف سعره، المسدس مع مخزنين ومئة إطلاقه بألفي دولار فقط.
- وهو كذلك، أنتظر في المساء، شكراً لك.

ضباب الحزن شف ملامحه، أطبق عليه، تلاعب به، صارت الأحداث أشبه بالخيال تتحرك في وسط صمته، لا يستطيع أن يتخذ قرارا صائبا، الحذر والخوف من المجهول والمصير المجهول.. تلك العناوين باتت تقلقه في جريدة يومه.

كيف ستنتهي الأمور الشائكة...

يا ترى؛ ماذا سيحصل خلال الساعات القادمة؟ أو خلال الأيام القادمة؟ يجب أن يتخذ قراره بأسرع وقت، قبل أن يخطر في بال الجناة فرصة الهرب بما جمعوا من مبالغ متاحة، الطرق أمامهم سالكة ومفتوحة، ومجالات الهرب واسعة.

دعني أتحرك أسرع مما يظنون وأسرع من نياتهم الخبيثة. ثم أني ممكن أن أعثر على جاسم بيسر، لكن كيف سأنتقم من هؤلاء الحثالة جعفر ورشيد؟ أين ممكن أن أعثر عليهم؟

مضت ساعات المساء ثقيلة على قلبه، كأن عقربة الساعة توقفت على حَجَرِها، الفكر مضطرب، البال مشغول، ينتظر عودة أبو عادل على أحر من الجمر، أملا أن يرفده بخبر سار بشأن المسدس.

أضحت الفكرة كمرض الحساسية تهرش ذهنه. حيث كأس الحياة مرير، الخبير من يجعله طيب المذاق. طالما لعق فكره ولسانه بمرارة الصبر، فلا ضير من أن يصبر على ضيمه صبره الأخير...

جلس قاسم جانبا وصار يحلل المشهد العام مع نفسه قائلا:....

- حسنا فعل أبو عادل بانتمائه لأحد فصائل المليشيا، لقد غير من روتين عمله ونمط حياته كثيرا، تحسنت حالته المادية والنفسية، وبدل من أن يُهدد من قبل المجرمين والصوص؛ صار هو الذي يُهدد الآخرين. كما أنه أصبح أكثر جرأة وثقة بالنفس، صار يتاجر بالأسلحة الخفيفة سرا وعلانية، استغل الفرصة المتاحة أمامه بتمعن، بذهن متفتح، لم يتأخر عن الركب مثلي ومثل أبو عصام..
- ربما كنت سأكون شبيه لولا النفس المريضة الجبابة المتقمصة ذاتي، التي مهووسة بالكسل والعجز، تلك التي تروق إرهاباتها وتخبطاتي. دعني أستفد من تجارب الآخرين، دعني أنقذ نفسي وعائلتي من الوحل الذي غصت فيه قدامي.
- هناك أناس تستطيع قراءة المشهد من اللحظة الأولى كأبو عادل، وبعض البشر من تمر عليه الحقب والمصائب حتى تلسع جلده النار ليستشعر بخطورة الظرف، حينها ينتبه على ما يدار حوله كأمثالي....
- الفرق واضح بين الاثنين في تركيبة الفكر وفي القدرة والعزم والنية والجرأة، لا بل هناك سر كامن في داخل كل إنسان يدفعه لمواجهة ظرفه، هذا السر مرتبط بمدى قدرة الشخص على قراءة المشهد والمجازفة باللحظة المناسبة وامتلاك الشجاعة والتحلي بالصبر المكنون في داخله.
- إين أنا من كل ذلك؟....

أكيد لن أقارنها بأبو عادل، لن أضع نفسي داخل قوس المجازفة، لأنني لا أتحدى بصفة الشجاعة قطعاً، لأنني لم أتعامل معها ولم أتعرف عليها عملياً.

هناك من يبحث عن الفضلات فوق المزابل كأبو عصام، لا تهمه شخصيته ولا دينه ولا كياسته، هناك من يعيش كالبكتريا الضارة بتطفله الملح، أينما تضعه يُشم عطن جسده ويلمس خبثه كجاسم، وهناك من هو يختلف عن عامة البشر مساق خلف إرادة جبارة، ذات معدن أصيل كالذهب خالٍ من الشوائب كصفاء.

الناس أصناف، ولكل صنف طبيعته، وعلى الإنسان أن يتحدى بالتأني، يجمع من كل صنف ما يرسم شخصيته ويعينه على مقارنة الظروف.

فليكن ثعلباً ماكراً حين تستدعي الحكمة ذلك، كأبي عادل، وليكن ذنباً شرساً إذا تطلب الموقف قوة، كصفاء، وليتمسكن أحياناً، يتتبع الأخبار ويقرأ غايات الناس ليسايرهم، كأبي عصام، ولكن عليه ألا ينحدر إلى درك النذالة والخسة والخداع، كجاسم.

فالناس معادن، وأنا معدني هشّ، رقيق كالتنك، أنطوي على ذاتي من ضربة واحدة، كأنني أعيش بين صلابة الاضلاع الآخرين وضعف نفسي، أبحث بين العيون عن توازنٍ يحميني من الانكسار.

ليتني أجمع بين شجاعة صفاء وعزيمة أبو عادل ودناءة أبو عصام وخبث جاسم وطيبة قاسم، تلك التي تكور شخصيتي، لأستطيع أن أرسم بانوراما حياتي بدقة مع كل حركة الموج وعصره، كي أستطيع أن الحفاظ على كياني من عبث الآخرين، كي أستشعر بالأمان والحب والحياة.

لم يتأخر أبو عادل كثيرا، أحضر له المسدس المطلوب وطلب مني تجربته ليلا، فلا أحد يسأل عنه بعد أن يحل الظلام.

شكرته على مساعدته القيمة ومن ثم ودعته بعد أن أقبضته الفي دولار.....

أخيرا صار قاسم يستطيع الدفاع عن نفسه، صار يتمكن من مقارعة أعدائه، صار يلتمس تحوله من حمل وديع لنمر مفترس. التجارب المتكررة كافية لتغير طبيعة الإنسان، تلقن الفرد دروسا في العطاء والجفاء والعناء والحكمة، تجعله يتلون بلون الظرف، متقد الفكر من البداية، يتقد من قدحة حين يود تجاوز العضلات المحيطة به، وقبل أن يتخطى نزق المطبات ومخططات المناوئين له عليه الاحتراس ثم الاحتراس.. حيث الفرد تُعلى مراتبه بالمواجهة، كما أنه يتوه في التلكؤ وخيوط العقد إذا ما استساغ السجال في خطوته الأولى، لذا تجده يفعل المستحيل من أجل إنقاذ نفسه ودرء الخطر عن أسرته..

مثلما أعانه الزمن على الصبر؛ سيجنبه المسدس خطط مناوئيه ومطبات المستقبل، التجارب تعطي الدروس المجانية، والدروس يجب أن يكون لها توثيق وتطبيق في حياة البشر، لتكون عبرة له ولغيره.

ثم ادرك نفسه قائلا:....

- مثلما للظلمة مخالب شرسة تنهش وجه الجراءة، فهي أيضا تمنحه فرصة التبجح والمجازفة والاختفاء والاختباء في ظلها، فهي أيضا تحظى بعالم واسع من السهد والسكينة والتفكير الحر، تعين الذات على تجاوز العقبات بالتبصر

والتعقل. ففي الوقت الذي به ترهق النفوس الضعيفة، فأنها تزيدها قوة وإصرارا وحنكة وشراسة وتمعن بمعالجة العقد.. الوجل يولد الجبن، والضعف ينهك العزيمة، كما أنه يولد حماقة في النفس ويقتل النية والهدف. الوجل والضعف والحمق مسارب ضيقة للشخص الضعيف، دائما ما تؤدي نهايتها إلى الفشل....

إذا يجب أن أرفع الوجل عن القلب، يجب أن أغير من سلوكي تماما، كي أتجاوز حالة الضعف وحدود الفشل. لا بد أن يطرأ تغيير في نمط حياتي، عليّ أن أكون ذنبا أعسّس دروب الليل، أن أجعل قناديل الأحلام تسرج في فكري، تتقد في طريقي، عليّ أن أتخطى هاجس الخوف والحسد والعيون الناقمة بردة فعل مناسبة.

لكن؛ بأي ذنب أحاسب جسدا مغفرا بالجبن؟ وذهنا مضطربا غارقا بالخوف وتقلب المواجه؟ مكبلا بصفات أنثوية تحط من عزيمتي، تحط من قدرتي وشخصي.. بأي ذنب؟.....

تلك الصفات مدفونة بأعماقي، هي ليست صفات مكتسبة فحسب، إنما وليدة تربية خاطئة وطباع بالية تراكمت نتيجة ظروف عجنت سلوكي، بعضها موروثية وأخرى مكتسبة، حيث أنني لم أخضع لتجارب سابقة، لم احتك بالمصاعب، كي تمنحني الثقة بالنفس، كي تزيد من خشونة طبعي وطباعي، كي تقوي بأسّي وعضلي، تزيد من بصري وتبصري.. دائما ما كنت أتجنب المشاكل والعقد والاصطدام بالآخرين، دائما ما تعودت أن أسير وحيدا بجانب الحيطان، منزويا في ظلي دون أن أختلط بالصالح والطالح لأستقي منهم التجارب.

إذا يجب أن تتبدل وتتغير المعادلة، يجب أن أتحوّل كيميائيا من صفة الثلج والبرود الملازمة لسلوكي وطبعي العام؛

لصفة النار والحديد، لصفة أكثر ذكورية وشراسة وجدية،
يجب عليّ أن أتحرق من القيود الأخلاقية والدينية والعاطفية
التي كبلت بها، وبالذات في حالة النقاط الحرجة التي أمر
بها، تلك التي تعيق سعبي وتلجم قراري.
الظرف الكاسر يجبرني على إعادة بناء شخصيتي تحت
شعار - أن لم تكن وحشا أكلتك الوحوش.

هكذا أنصف فكره وأتخذ قراره..

ذهب لغرفة نومه وأغلق رتاج الباب عليه، ليكون بعيدا عن
فضول الأطفال وإرهاصاتهم، ليتجنب شر السلاح وعبثه، حيث لا
يود أن يعلموا بأنّ في البيت شيطان يقرر عمر البشر، آلة قادرة
على أن تحيي وتميت... يجب أن يتوخى الحذر، فالكلاب ذكية، تشم
رائحة الخطر عن بعد، مثلما تشم رائحة الفريسة..

لا زال هو في نظرهم حمل وفريسة، ويجب أن يبقى كذلك لغاية
لحظة الحساب. إذا عليه أخذ الحيطة والحذر ليتجنب غدرهم. يجب
على الحر أن لا يلدغ من جحره مرتين، لقد تعلم الدرس، وعليه أن
يكون أستاذا ماهرا في مجال عمله، ماكرا في تطبيق منهجه، مع
احتفاظه بصفاته المعروفة التي تبجله وتعظمه أمام المجتمع.

مرت عليه أقدار جسيمة، شائكة، لن تحتمل طائلها. إلا أنها علمته
أن ينظر جيدا لمحيط دائرته ويركز في سدم الأفق عن المنافذ التي
تجيله لواقع السلام، ليكون أكثر حذرا، متجنبا السهام المطلقه ضده.
عليه أن يتمتع جيدا بما حو اليه من شر وخير، فلا بد هناك من
بصيص أمل يخطر ذهنه ويضيء له دربه.

النور قد يكون كامنا في أعماقه دون أن ينتبه له، ك طبيئته
المعهودة، أو في طريقه كإشارة أبو عادل الاعتراضية له، أو في
دكانه كبالات الأسماك التي أشارت إلى جعفر، أو داخل قوقعة

الخبث والشرك المنصوبة في طريقه كلامح جعفر وغنى جاسم وحسد أبو عصام له، أو في شقوق الجدار وسلم القبو الذي وضع فيه لحظة الاختطاف...الخ..... تلك هي إشارات استعانة أرشدته إلى السراط القويم، بينت له مسار الخطر.

فمسألة تذكره لجعفر طرأت في باله كبصيص يقين بمجرد أن جلس على كرسيه ولمح بالأت أسماه، تلك الإشارة جردته من سحنة العذاب... من ذاك البصيص الباهت لمح وجه العالم الآخر، بعث في صدره نورا أزاح واجهة العتمة التي أغشته طويلا، أراحت ضميره، جعلته يتحول من حمل لذنب في مواجهة الكلاب السائبة، مثلما فاضت فطنته على إشارات القبو الذي وضع فيه، هلت عليه الفطنة كهبات إلهية، نبهته عما يدور حوله وما يُزرع من شر في حقله وطريقه، عرفته بمن سرقه وأختطفه وأختطف أبنه.

صار يجرب المسدس في الغرفة، يسحب ويطلق دون أن يحشوه بإطلاقات حقيقية.. فيما سبق كان قد أستخدم السلاح مرة أو مرتين خلال تدريباته العسكري حين استدعي للخدمة الإلزامية، إلا أنه بعد أن سرح من الجيش لم يحاول التعلق بالسلاح بتاتا، بل أنه أبعد عن هذا الخط نهائيا، كون الأمان كان سائدا في البلد، فلا داعٍ للتفكير به أو الاحتفاظ بقطعة من الأسلحة..

أما الآن فقد انقلبت المعادلة، أصبحت للضرورة أحكام، فلا بد من وجود سلاح في البيت يزرع الثقة والامان في الذات.

خلال منتصف الليل ارتقى سطح البناية، صار يطلق إطلاقاته تماشيا مع اسراب الإطلاقات العابرة في اجواء المدينة، تلك المحلقة كاسراب الطيور بين الشرق والغرب، المرشقة بين شلة المقاومين من جهة والمحتلين من جهة أخرى، أضحت الحالة سمة من سمات الليل في سماء بغداد.

عندها أخرج مسدسه وصار يطلق إطلاقات طائشة في الهواء ليزداد ثقة وطمأنينة بالنفس. فمضت قعقعت إطلاقاته باهتة، بلعها هدير ترددات الأصوات المترددة والممتدة خلال محيطه. أصوات مدافع الرشاشات والبنادق وقاذفات الهواوين وقاذفات بعيدة المدى غطت على فعلته بصخبها، تلك التي هزت سكون الليل وسهده.

أيقن خلال إطلاقه الرصاص الجدي بأنه على قدر العزم، وعلى قدر ما نوى وخطط، فلا بد من أن ينتقم من الذين تجاوزوا على صحنه وبزوا غلهم فيه، لا بد من أن يتبع أثرهم واحدا تلو الآخر عاجلا أكان أم أجلا، حتى يزح عن دربه هالة الظلام ونباح الكلاب السائبة.

الذين تتبعوه فيما سبق حتما سيتبعونه في توالي الأيام القادمة، لأنه في ظنهم بئر سبيل لا ينضب، فكلما وشتل جيوبهم سيتجهون إليه لملئها من جديد.

مع طلوع فجر اليوم التالي السابع من حزيران 2005، جلس في فراشه باكرا وهو الذي لم تصاحب عينه غفوة حقيقية مذيوم الاختطاف. لم تصاحب ذهنه راحة قط مذي أن قتل حسن، بل بقي طوال الليل يرسم ويدير في رأسه خطط عملية انتقامه، يصور الحالة التي سيكون عليها والحالة التي سيرد بها على أخيه جاسم..

كيف سيدخل البيت؟

كيف سيكتشف السر الذي يبحث عنه؟

كيف سينتقم من جعفر ورشيد؟

القلق والوسواس جائش في ذهنه كالأرضة، نخرا فكره، جعلاه هشا لا يرتكز على قرار. فيما الحزن لم يبرح حشاشة القلب وسمات الوجه، كتم على أنفاسه، كحل جفنيه بالأرق والعذاب الروحي والنفسي، جعله يعيش عيشة ضنكة، يشوبها لغو وهوس وجنون. لاتقاد الحالة، أضحي مخه رماد عناء، منثور بين اشواك الخوف والحيرة، الخوف من الفشل، والحيرة ما بعد الفشل، هو اجس تعيق سعيه.

كأنّ الهم المراق في هاجسه ترسب على فكره وقلبه، أشعره بثقل الأيام التي مضت وخطورة القادمة منها، بعكس ما كان قد ظن وتأمّل؛ هالات جبن رسمت له مستقبلا باهتا، مبهما.... ذلك القلق المصاحب لعزيمته هو قلق طبيعي، أصبح يعيش في داخله كمارد، يغير لونه كالهرباء، يتلون بلون الظن، بعمق التفكير وصور الانتقام. صار يغرق في حساباته، يلفه صمت عميق، ثم يرتد وينقض على ذاته مع ارتداد خيط العصب والأيام العصبية

التي عاش فيها أيام النكد، لتشتعل فتائل سخطه حقدا وكراهية وبغضا على كل من تناول وتجرأ عليه.

ثم تهبط بالونة غضبه ليعود منكبا على عاقيه للخلف، ليغور في شجون فؤاده، في خافق النبض، حتى يرهق بعوامل العجز ومخلفات العملية التي يود القيام بها والتي لم يحسب لها حساب.... صار يشعر بعجز يقيده في تنفيذ المهمة، لم يتعود على الانتقام، لم يسلك خط الجريمة سابقا، لم يكن أسدا يوما ما ولا ذئبا ولا حتى كلبا ينبح على خصومه... هكذا بقي يتقلب في ظل فكره...

كيف ؟ وكيف؟ كيف سيغير ذاته من صفة الحمل لصفة الذئب؟.

هذا القلق ضلَّ صاحبه، لا ينفك عن ذهنه، ضلَّ يركبه، لم يستكين به ابدا. أشباح وكوابيس تراحمت في رأسه، طافت في وسنه، عبثت في خياله... بقي يعاني من تدفق الأفكار المصاحبة التي صارت تراوده تترا، دون أن يرسى على قرار صائب. ذلك القلق الذي ساير فكره، صار يحثه على اتخاذ القرار اللازم على عجل، يجب أن يدخل في محك التجربة والتنفيذ، لوضع حدا لتلك المنغصات والمآسي التي تلاحقه.

جلس فجرا دون أن يفطر، حشا مسدسه بإطلاقات كاملة، ثم خبأه تحت لباسه وهو في وضع الأمان. عازما على تنفيذ قراره، شعر بالنار تشتد في داخله، نشف ريقه، حينها تناول قدحا من ماء الزير الموضوع في حوش المنزل، بعدها خرج مودعا زوجته قبل أن يستيقظوا أولاده..

أوصته زوجته في خروجه تجنب العنف والتهور.. وهو بذاته طمأنها بأنه سيبحث عن أمانه ومستقبله، فالخضوع والسكوت عوامل مساعدة على تكرار مأساة الخطف والابتزاز والسرقة مرات ومرات، تجعله يبقى فريسة جاهزة في عيون مغرضيه.

وصل لبيت أخيه والذي هو بيت والدته قبل أن يهتم جاسم بالخروج للعمل..

طرق الباب طرقا خفيفا، فتحت له الباب زوجة أخيه نرجس، وكل ظنهما بأن الطارق صديقا زوجها جعفر ورشيد اللذان تعودا أن يزورا جاسم قبل الذهاب للعمل بعد أن صار يشركهما في عمله. ما أن شاهدت قاسم بوجهه الشاحب حتى بادرت تسأله:...

- خيرا؟ ما بك؟ ما وراءك هذا الصباح، لم وجهك شاحب؟

سألته والربة سورت لها ظن السوء.

- هل جاسم في البيت؟

- لازال نائما في فراشه، يقول ليس لي رغبة بالعمل هذا اليوم.

- أحسن، أود رؤيته.

دخل قاسم متوجها لغرفة النوم، بقدمه دفر باب الغرفة الذي كان شبه مفتوحا دون أن يسرج. جلس جاسم في فراشه مبهورا. أبهره الأثاث وطقم السرير الناعم، كان قد وجد ضبة من النقود على طاولة البوفيه..

بدخول قاسم المفاجئ أرتبك جاسم، مرتعدا في سريره، مبهورا، حس بأن أخوه قد علم بخبثه ونذالته، أراد أن يقفز عليه ليسيطر على الوضع وعلى أخيه، لكن قاسم كان أسرع منه، شهر مسدسه بوجهه، مصوبا على صدره... أرتبك في محله موجها كلامه لأخيه...

- ما بك يا أخي؟ ماذا جرى لك؟ هل جننت؟

- نعم جننت بأفعالك يا سافل....

حاولت نرجس أن تمنعه وتدفعه بعيدا، لكنه هدها بالقتل أن تقربت، فارتبكت ووقفت بعيدا في جانب من الغرفة مبدية نصحتها.

- ما بك يا قاسم من الصبح، ماذا تريد منا؟

قاسم موجهها كلامه لجاسم....

- من أين لك كل هذا؟ إلا تجد شخصا آخر في بغداد تخطفه وتسرقه وتهده سوى أخوك.
- لا أنت غلطان، ليس لي دخل... (قاطع قاسم)
- هناك من شهد عليك، صديقك!
- هما اللذان خطفوك، لست أنا.

بعد أن تيقن من اعترافه وارتبأكه أشتط غضبا، فمسك ببساره نرجس من شعرها ودلفها إلى جهة جاسم، حاولت منعه صارخة بوجهه، لكنها لم تسطع مقاومة غضبه وقوة ذراعه التي تصلبت كقطعة خشب صلبة.

- ألا تخجل من نفسك؟ أم من أجل هذه العاهرة بعثتي يا كلب؟... اشتريتها بفلوسي؟....

لم يجد فرصة حقيقية لمنع يده من أن تنهز وتطلق إطلاقا نار صوبه، نهزت إطلاقه لتكشط عضلة ساعده، أنهار جاسم متوسلا بعد أن نهزت يده دما...

- لا يا أخي... لا يا قاسم لا تقتلني... خذ الفلوس، فلوسك تحت السرير، أرحمني، أنا أخطأت، أنت لم تساعدني فدنت نفسي على سرقتك..
- أين البقية؟
- صرفتها على هذه العاهرة... أشر على نرجس...

حينها توجه إلى نرجس أمرا بأن تستخرج كل ما تملك وتخلع كل ذهبها..

نرجس خلعت الذهب واستخرجت مبلغا بحدود 50 ألف دولار كأنت قد خبأتها في حافظة مدعوسة بين طيات الفرش لا يعرف بها جاسم. حينها تفاجأ جاسم من فعلتها، فقال لها:..

- أيا كلبة يا أبنة الكلب؛ تقولين لا أملك شيئا، منعني نفسك عني، جعلتني أسرق أخي، أن كيديكن لعظيم.
- كلب حقير عثر على كلبة مومس، لا فرق بينكما.

حينها اهتزت يده بإطلاقه ثانية، لتستقر هذه المرة في صدره دون سابق إنذار، رافقتها صرخة من نرجس التي هي الأخرى تلقت إطلاقه حازمة في جبينها لتصمت على أثرها للأبد، لتتكب على وجهها مضرجة بدمائها.. فيما كان جاسم يصارع الموت بصحبة وحوحة أنين متعبة، أطلق عليه إطلاقه رحمة ثالثة لتفتح صنبور شريان رقبته، ليصمت على سريره إلى الأبد.

لملم الفلوس والذهب في حقيبة سفر سوداء كانت تحت السرير، يحتفظ بها بكل ما هو ثمين وقيم، وقبل أن يهم بالخروج من المنزل سمع طرقا ولغوا على الباب الخارجي، أدرك صوت جعفر وهو ينادي...

- جاسم - جاسم .

رد عليه قاسم بصوته القريب من صوت أخيه...

- أدخل..

هنا اكتملت فرحته بعد أن جاءت القطط التي نهشت لحمة يوم أمس برجليها لموقع حتفها.

نحى جعفر الباب جانبا، دخلا إلى فسحة الصالة برفقة رشيد، كان قاسم أخفى ذاته خلف ستارة باب المطبخ وخاصة لا توجد إنارة في البيت تدل عليه، حيث الكهرباء مخرسة في كل أنحاء العراق منذ حرب الكويت الأولى 1991، بعد أن عطلت محاولات توليدها الطائرات الأمريكية.

بعد أن اجتازا المفازة الوسطية والتي تمنعهم من العودة للخلف بوجود قاسم خلفهم، ظهر إليهم شاهرا مسدسه بوجوههم، أمرهم دخول غرفة جاسم، صارخا عليهم:....

- هيا أدخلا للغرفة هيا.
- ماذا هناك؟ من أنت؟
- ما بك يا أخي؟.. من أنت؟
- ألا تعرفان الشخص الذي خطفتموه قبل أيام، ألا تعرف الشخص الذي سطرته على خده يا جعفر الكلب داخل القبو؟
- هيا أدخلا للغرفة هيا.
- والله لم نكن نعلم بأنك أخوه، أنا وجعفر ليس لنا دخل في ذلك، هو الذي خطط لنا وأمرنا بخطفك وفي لحظة القسمة أخبرنا بأنك أخوه كي يلتف على المبلغ كله.

دخلا للغرفة خائفين، تفاجئا بمقتل جاسم ونرجس، صارا يولولان ويتوسلان به، راجيان عطفه...

- لم نعمل إلا بمشورة أخوك، هو الذي طلب منا مراقبتك وخطفك مقابل أن نحصل على شقة مما يحصل عليه منك.
- هو الذي ورطنا معك.
- هيا أخرجا كل ما في جيوبكما مما جنت أنفسكم الأمارة بالسوء، أخرجا ما تملكان وإلا قتلتم.

أخرجنا من جعبهما المبالغ التي استلموها من جاسم، تركوها على الأرض، حينها أطلق عليهما رصاصتان ليرديهما قتيلين إلى جانب جاسم ونرجس.

أخذ الحقيبة وحشر فيها نقوده والمسدس والذهب، ثم خرج من البيت دون أن يراه أحدا، مرتبكا، خائفا، محمر العينين، صاغر الفم، ترتجف ساقيه، متوجها لبيته قبل أن تقطن عليه الناس وتشاهده متلبسا بالجرمة.

لقد حضرت عدالة السماء وأرتقى السيف رقاب الجناة بعد أن جنحت أنفسهم لمصيب الجريمة. رغم قساوة الموقف لكنه شعر براحة تامة في نفسيته التي تخلصت من الأعداء بتطبيرهم، هؤلاء الذين أجهدوا على فرحه. عندها شعر بذاته طيرا حرا يرفرف في الفضاء دون صقور أو نسور تتبعه.

كانت شعوزة الطائفية تزحف وتنتشر في البلاد كالنار في الهشيم، اشتد وتيرها، بدأت تضفر ضفائرها في مواقع الكراسي والشارع معا، بحيث بات الجار لا يأمن جاره، فقرر أن يترك بغداد لجهة مجهولة، إضافة لخوفه من تتبع العدالة خطواته، وخوفا من غياهب الجب، قرر أن يترك بيته ودكانه ليتولاهما عمه أبو زوجته، ليتصرف بهما كيفما يشاء، أو يؤجرهما من بعده. كان الوقت قد صعب عليه بعد أن تعقدت مسيرته، لا يسعه التفكير والتصرف بأملكه في ذلك الوقت الحرج من زمن العراق.

أما هؤلاء القتلى فهم جميعا دون جذور، لا أحد يعرف لهم ذوي ولا عناوين تدل عليهم أو تنسبهم لجهة ما، في بلد تهلhel به الشرع تحت جلد الراعي الأمريكي الذي لا يهمه استقرار البلد. بلد دون حكومة ترعى مصالحه وخاصة بغداد بدأت تنتشر بها جثث مجهولة مقتولة على الهوية التي عمت مناطقها وشوارعها..

بعد أسبوع على وقع الجريمة، تكفلت البلدية بدفنهم بعد أن تركوا عالقين تلك المدة في برادات الطب العدلي.

"وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا" صدق الله العظيم

الجشع صار كملح الطعام في عين هؤلاء. أما أبو عادل لم يشبع ولم يكف عن طمعه، رغم تلك المآسي التي خضبت بها جثث أصحابه وزملائه من عناصر الميليشيا أمامه- بمعنى آخر؛ أن أبو عادل لم يعد حرا طليق النفس بعد أن تلطخت يده بالخسة والجرم والندالة، بعد أن تطبع بأخلاق ونوايا العصاة التي أنتمى إليها، لم يعد يملك قرارا بالتخلي عنها، ولم يعد يملك من الشرف شيء بعد أن دهن مرثه بالحرام مرات ومرات، بعد أن صار عنصرا فعالا ورئيسيا بين شلته، عندها ارتقى في المنصب ليصبح أميرا على جماعته، فلم يستطيع أن ينفصل عن مجموعته، لقد خرج الأمر من تحت يده، أضحي حلقة مهمة ورئيسية ترتبط بسلسلة حلقات ببعضها البعض.. هكذا بقيت نفسه جانحة خلف لذة الطمع والجشع سالبا قوت الأبرياء....

في محاولة تكرار السرقات التي راققت له ولمجموعته، تم مداهمة متجر في منطقة البيع.. كانت محاولته الأخيرة، حينها واجهوا بها عصاة أخرى منافسة لا تقل عنهم قوة وشراسة، وقد تمكنت من أن تستاف منه ومن مجموعته، بعد أن قتلت في وضح النهار. وقد شاع خبر وفاته من خلال المأتم الذي أقيم في داره قبل أن يفل قاسم من سكنه وينتقل إلى أربيل بيومين.

بذلك حصل على نصيبه العادل من الدنيا الذي سعى خلفها برجليه وأظفاره، فالعنف لا يولد إلا عنفا... "وبشر القاتل بالقتل" صدق الله العظيم.

فيمافاسم بعد أن ترك بغداد تماهى في العدم، ذاب في صرة
المجهول، اضحى بعيدا في راحة بال، فص ملح ذاب في مياه
البحر، لم يعد أحدا يتذكره.

أنتهت

النهاية

مجموعة الروايات:-

- 1- عطر خلف الستار
- 2- فتاة الكاطمية
- 3- جنوح النفس
- 4- عبير
- 5- شذرة العقد
- 6- طريق الجحيم
- 7- غراب البين
- 8- عقاب الذات
- 9- الإقداح المتكسرة
- 10- عواصف الجنين
- 11- فواصل الشوق
- 12- حين اتقدت الرأفة
- 13- الرويا

للكتاب عشرات الكتب بين رواية
ومجموعات قصصية

المجموعات القصصية:-

1. فرصة هدف
2. عصير الرمان
3. لغة العود والحجر
4. زيارة طبيب
5. كرستال
6. الانتقام
7. صياد النساء
8. المجموعة الكاملة الجزء الأول
9. المجموعة الكاملة الجزء الثاني



يقول أحدي الصحف في نشرتها لحادثة مريضة
والتي تحدثت عنها وكالات الأنباء بإسهاب، حين
قصة صياد سمك في جنوب بغداد، والذي لما إن
خرج من نهر دجلة وهو معني بصيد سمك، حتى
استقبله جندي أمريكي برصاصه في جبهته،
بحسن حين كاهله وزر حملة القنابل من السمك،
منحها به ليوحدته، وكأنه قتل كلبا أو دجاجة.

فوق اختبري فكرها، ثم بدعها في سامن من
الحدث، ثم بدع انفس من أن يتخلى عن شطرنج
النسر، المخل الشجي يقول "الفقير فوق التعبير
وحضه الكلب" فما بالك بالذي يمسي على قدميه
في شوارع اموت؟